

الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود



قضية التصوف
المنقذ من الضلال

ناضح



دار المعارف

الدكتور
عبد الحليم محمود

قضية التصوف المنقذ من الضلال

الطبعة الخامسة



دار المعارف

المصدر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع.
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل مخلوق ، وخير مبعوث ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

قال تعالى :

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً﴾ .

(صدق الله العظيم)

مقدمة

التصوف والحياة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين وبعد :

فإن من الحقائق التي لا مربة فيها : أن الإنسان لا يثنى له أن يلج باب الله ، أو يسير في الطريق إليه ، إلا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له . فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه ، وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين ، وحقق بذلك : ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾ - فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل :

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلًا ﴾^(١) ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة لله سبحانه ، فيقول :

﴿ فبعتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(٢)

(١) الإسراء : ٦٥

(٢) ص : آية ٨٢ ، ٨٣

ويقول :

﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين﴾^(٣)

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله ، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة . . إنه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

﴿فوجدنا عبداً من عبادنا ، آتينا رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً﴾^(٤)

إنه حقق العبودية ، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ، وأن يفيض عليه العلم . .

ولبست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية ، بل إن للتحقق بالعبودية ثماراً كثيرة سامية .

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

﴿واذكر عبدنا أيوب ، إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألياب . ونخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنت إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أواب﴾^(٥)

ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة .

لقد حققها في ذروتها ، فكانت صلاته ، وكانت نسكه ، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته لله رب العالمين . . لا شريك له :

(٣) ص : آية ٤١ - ٤٢

(٢) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

(٤) الكهف : ٦٥

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ،
وبذلك أمريت ، وأنا أول المسلمين ﴾^(٦)

لقد حققها موفورة تامة ، فاتاه الله عز الدنيا والآخرة . .
وبتابعة الرسول ﷺ ، والافتداء به ، سار الصوفية على الدرب . . يقول
صاحب « عوارف المعارف » :

(الصوفي : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن
شوب الأقدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس . . ويعينه على هذه التصفية
دوام افتقاره إلى مولاه . . فبدوام الافتقار ينقى من الكدر . . وكلما تحركت
النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها . أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه .
فبدوام تصفية جمعبته ، وبحركة نفسه تفرقة وكدره . . فهو قائم بربه على
قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . . قال الله تعالى :

﴿ كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ﴾^(٧)

ومذم القوامية لله على النفس ، هى التحقيق بالتصوف^(٨)
ويقول فى موضع آخر :

(والصوفى يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها
بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه . . ويسر ما ينبغى أن
يسر ، ويظهر ما ينبغى أن يظهر . . ويأتى بالأمور فى مواضعها ، بحضور عقل ،
وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص)^(٩)

(٦) الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣

(٧) المائدة : ٨

(٨) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا .

(٩) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٢٢ بتحقيقنا .

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول ﷺ فيما دق من الأمور ، وما
وضح منها . . وفي السير من أعمالهم ، والعظيم منها . . ومن أمثلة ذلك :

في الجهاد :

ولا يتأتى أن نذكر تاريخاً مفصلاً لجهاد الصوفية الحربى ، ولكننا نكتفى هنا
ببعض الأمثلة :

كان « شقيق البلخى » وهو من قم الصوفية الشاذلية ، يسارع إلى خوض
المعارك لا يبالي على أى جنب كان فى الله مصرعه . .

انظر إليه : خائضاً المعارك ، محارباً العدو ، مسلحاً بإيمانه ، وثقته فى الله ،
وعذته الحربية . . شاهراً سيفه ، فارساً بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ،
هادئاً ، مطمئناً ، كامل الثقة فى الله . .

ولقد وصلت ثقته بالله ، إلى حد أنه - وهو لا يرى إلا سيوفاً مصلتة ،
ورقاباً تقطع ، ورعوساً تتساقط - يقول لمن بجواره فى هذا الجو : كيف ترى
نفسك ؟ أترى نفسك فى سعادة ، تشبه سعادتك فى الليلة التى زفت فيها امرأتك
إليك ؟

فأجابه الذى بجواره : لا . . والله . .

فقال « شقيق » : لكفى والله . . أرى نفسى فى هذا اليوم ، مثلها فى الليلة
التي زفت فيها امرأتى إلى . .

لقد كان سعيداً بجهاده ، ومات شهيداً فى معركة الشرف والبطولة ، فى
ساحة الحرب والجهاد .

وشخص آخر - هو من قم الصوفية أيضاً - : إنه « حاتم الأصم » : كان

يدخل المارك ، ويخوضها في غير خوف ولا فزع ، وما كانت نفسه تطير شعاعاً من الأبطال . . وما كان يقول لها : لن تراعى . لقد كان كيانه كله في ثقة مطلقة بالله - وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون المثل ، حينما أخذوه أسيراً وطرحوه أرضاً ، وجثم العدو على صدره ليذبحه .

إنه يصف شعوره وهو في هذه الحالة فيقول :

لم يشتغل به قلبي ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى في . . فبينما هو يطلب السكين التي يذبح بها ، أصابه سهم فقتله . . وقت سليماً معافى . . . قام سليماً معافى ، ليعاود المعركة من جديد .

وإذا قفزنا في ساحة الزمن ، قفزة واسعة ، فوصلنا إلى معركة المنصورة ، فإننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية في قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبوا متدفعين إلى المنصورة ؛ ليساهموا في النصر والاستشهاد في سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم . ولقد كان - وهذا له أهميته الخاصة - « أبو الحسن الشاذلي » وهو من صفوة الصفوة الصوفية قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فإنه ترك بيته ، وذهب إلى المنصورة ، مساهماً في المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل ، لقد كانت تشغله مستيقظاً ، فيمر بستره الوقور ، وبهيته المستعدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود . . مشجعاً ، حاثاً ، مبشراً بالنصر وبالجنة ، فإذا ما جنته الليل ، أخذ يسهل إلى الله سبحانه وتعالى ، متضرعاً ، خاشعاً ، راجياً التوفيق والنصر ، للأمة الإسلامية .

وفي ليلة من الليالي ، رأى رسول الله ﷺ - في رؤيا طويلة وأصبح رضى

الله عنه يشير بالتصر.

ولم تكن هذه هي الموقعة الأولى ، التي أسهم فيها « أبو الحسن الشاذلي »
رضي الله عنه - ولم تكن الأخيرة .

وإذا ما قفزنا مرة أخرى - في ساحة الزمن - قفزة واسعة ، فإننا نلتقي
بالصوفي الشهير : « عبد القادر الجزائري » .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة في الحرب . ولقد حارب الاستعمار
في الجزائر ، وفعل بإيمانه القوي ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، في الشجاعة
والإقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل . سرى إيمانه وإقدامه فيهم ، فتمثلت فيهم
الشجاعة في أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد ، شيئاً فشيئاً ، على مر
الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يحصلون عليه من أسلحة العدو .
ولقد وجه الأمير « عبد القادر » النداء تلو النداء ، للأمة الإسلامية ، من
أجل العون المالي ، والإنساني ، ومن أجل العون في العناد . . فكانت
المساعدات التي قدمت إليه مخجلة ، ينهى لها الجبين .
ولم تشعر الأمة الإسلامية ، بأنها أمة واحدة . . وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول
الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ ^(١٠) .
وقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون ﴾ ^(١١) .

(١٠) الأنبياء : ٩٢ .

(١١) المؤمنون : ٥٢ .

يد الأمة الإسلامية لم تتحارب معه تجاوب الإخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١٢) .

ولا تحس بالإحساس الإسلامي .

(ليسم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يجذله) (١٣) .

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (١٤) .

نرى المؤمنين في نوادهم ، وتراحيمهم كاجسد الواحد ، إذا اشتكى عصبه ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولم يترك كل ذلك الأمير « عبد القادر » ، عن مناعة الحرب ، والكفاح ضد المستعمر ، وحيثما أسر ، كرم الأعداء أنفسهم ، لشجاعته وشهامته ومروءته ، ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتصحية الحربية - وذلك بعد الأسر - مكث في « دمشق » يدرس التصوف ، متحداً « الفتوحات المكية » كتابه المفضل في الشرح والتفسير .

ولقد طبع هذه الفتوحات . وفي أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب « المواقف » . وهو كتاب في التصوف عريق ، يبين فيه وجهة النظر الصوفية ، في مختلف الموضوعات

في التزام الشريعة .

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فإننا نبتدئ بذكر كلمة « للإمام ، الكامل الفقيه ، الأصولي ، المفسر ، الإسفرايبي » صاحب كتاب « التبصير في

(١٤) البخاري

(١٢) احببات ١٥ .

(١٣) مسلم .

الدين . . . وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

إبه يذكر ما يمتار به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، ولروافض ، والقدرية فيذكر أن سادس ما امتار به أهل السنة هو

علم التصوف والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ . . بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والعطمانية .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم ما يقرب من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم . ولم يوجد في حملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع « القدرية » ، و« الروافض » ، و« الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم ولتصويب ، والتبرئ من النفس ، والتوحيد باخلق والمشيئة .

وأهل البدع يسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعمل عما عيه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

بعد هذا بدأ في النظر إلى طريق التصوف ، وصلته بالشرعية :

يقول الإمام « العراقي » :

إن الطريق إلى ذلك إما هو « تقديم المجاهدة ، أو نحو الصلوات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . . ومهما حصل ذلك ،

كان الله هو المتولى لقب عبده ، والمتكامل به بشويرة بأوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاصت عيه الرحمة ، وأشرق الورد في القلب ،

وانشرح الصدر ، وانكشف له سرائر سكوت ، وانفثع عن وجه القلب حجاب

الغرة ، نطف الرحمة ، وتلاّلات فيه حقائق الأمور لإلهية ، فبیس على العد
إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ،
والتعطش التام ، والرصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة »
وعن هذا الطريق ، يقول « ابن خلدون » .

« وقد كان اصحابه رضى الله عنهم على مثل هذه المحاولة ، وكان حفظهم
من هذه الكرامات أوفر الخطوط ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية .
وفى فضائل « أبي بكر » . « وعمر » . « وعثمان » ، وعلى ، رضى عنهم
كثير منها ، وتعمهم فى ذلك أهل الطريقة ، من اشتملت رسالة « نقشبورى »
« على ذكرهم ، ومن تبع طريقهم من بعدهم » .
هذا فيما يتعلق بالطريق . .

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشعور ، والأحوال فإن الصوفية - على وجه
المعوم - يهوا فى صور حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة ، يقول الإمام
« أبو الحسن اشهدنى » رضى الله عنه :

(من دعا إلى الله تعالى ، بعبر ما دعا به رسول الله ﷺ . فهو يدعى)
ويقول :

(إذا لم يواطىء المقير على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة ، فلا تعباً
به) .

ومن أجمل كلماته فى هذا ، قوله :

(ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان . ومناعة السنة . فمن أعطيهما ،
وجعل يشاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفسر كذب ، أو ذو حظ فى العلم والعمل
بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا . فجعل يشاق إلى سياسة

الدواب ، وخلع الرضا) .

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج . ومن هؤلاء مثلا : « أبو يزيد البسطامي »
الذى يقول في قوة حاسمة ، وفي نطق صادق .

(لو طرتم إلى رجل أعطى من الكرمات ، حتى يرتقى في اهواء ، فلا تفتروا
به ، حتى تنظروا كيف نجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء
الشرعة) .

ولقد تحدث الإمام « الجنيد » أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف
والشرعة . وبما قاله في ذلك :

(الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ،
واتبع سنته ، ولم طريفته) .

وقال أيضا :

(من لم يحفظ القرآن ، وم يكتب حديث . لا يقتدى به في هذا الأمر ،
لأن علما هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) :

ولقد كان الإمام « الغزالي » ، في سلوكه ، وفي قوله ، وفي حياته الخاصة
والعامة يلتزم الشرعة ، ويقول : إن المحققين قالوا .

(لو رأيت إنساناً يطير في اهواء ، ويمشي على الماء . وهو يتعاطى أمراً يخالف
الشرع ، فاعلم أنه شيطان) .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على نكرة أيهم ، إنما هو رسول الله
ﷺ ، وهم يحاولون - باستمرار - أن يهجموا بهجه ، وأن يسيروا على مواله ،
فهم إمامهم الأسمى في كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين في ذلك
يقول الله سبحانه وتعالى .

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾ .

وبعد : فقد تبيننا مما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقيق بالعبودية ، وقد سار الصوفية في هذا الطريق ، فأثمر لهم ثماراً سامية كثيرة :
منها الجهاد .

ومنها التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصوفية والعلم : فإن الصوفية يمثلون العلم الإسلامي في فقهه ، في جميع فروعِهِ : في الفقه ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، وفي الأخلاق . .
وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشامخة ، التي لا تضارع بها اجتماع لديها من علوم مدرّسة ، مرواة محكمة ، فيها الإتقان ، والاستنتاج المتبصر ، والتبصر المتابع ، والانباع الواعي ، أعنى شخصية الشيخ الأكبر « محيي الدين » فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات

وإن مقاربات مؤرخي الفكر ، بين الشيخ الأكبر وغيره من العربيين والشرقيين ، تصعد به إلى القمة .

ولشيخ الأكبر يذكر دائماً بحجة الإسلام « العراقي » الذي جمع في إحيائه ، أربعين كتاباً ، كل منها له استقلاله ، وله دانيته ، وألف منها - في إحكام محكم - كتابه « إحياء علوم الدين » .

ولقد انهار تحت قلمه في سهولة ويسر ، عاقرة افكر لعلسى ، فتهافتوا ، وانهاروا ، وأتى عليهم كتابه النفيس « نهايت الملامسة » .

وأحمد حجة الإسلام بدعة الفلسفة ؛ وعيث لفلسفة في الشرق الإسلامي .

ولالإمام « الغزالي » أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة ، في الأصول ، والفقه ، والتوحيد ، والفلسفة ، والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ أو تتداول عليها دائماً طابع لضرة : طابع الخلود . والصورة الجميلة في الصوفية - في الألب الأعم - هي صورة « الجنيد » .

لقد كان الكتاب (البعويون والأدباء) يحضرون مجلسه ، لألفاظه والعقهاء ، لتقريره .

والفلاسفة ، لدقة نظره ومعانيه .

والمتكلمون ، لتحقيقه .

والصوفية ، لإشاراته وحفائظه

يقول صاحب « الرسالة القشيرية » :

« وكان فقيهاً على مذهب « أبي ثور » وكان يفتي في حلقاته بحضرته ، وهو ابن عشرين سنة .

ويروي صاحب « الرسالة القشيرية » عن « أبي الحسين علي بن إبراهيم الحداد » ، يقول : حضرت مجلس القاضي « أبي العباس بن شريح » ، فتكلم في الفروع ، والأصول ، بكلام حسن ، عجبت منه ، فلما رأى إعجابي ، قال : تُدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضي .

فقال : هذا ببركة جمالة « أبي القاسم الجنيد » .

وإذا ذكر « الجنيد » ذكر أستاذه : « الحارث المحاسبي » . وقد كان « الحارث » مثقفاً في الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف ، لقد كان فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان متكلماً ، وكان عالماً في الأخلاق ، وكان صوفياً ، ولقد دخل في قوة - كل المشاكل التي وجدت في عصره ، باحثاً ، مرشداً ، مجادلاً هادياً إلى الحق ، والحق في نظره هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه .

وألّف « المحاسبي » الكثير من الكتب ، في شتى مجالات العلوم . ولأحد الإنسان أي صوف من هؤلاء الذين ذكرهم « السلمي » في « طبقاته » ، أو الذين ذكرهم « القشيري » في « رسالته » ، أو الذين تحدث عنهم صاحب « الحلية » فيسجد لهم قوم اتخذوا من العلم عبادة وعكفوا على دراسته تقريباً إلى الله سبحانه .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وإنما مع علم الكتب ، كان طموحهم إلى العلم الوهبي : العلم الذي يمحاه الله لبعض عباده ، العلم الذي سافر « موسى » عليه السلام سفرة شاقه بمجهد ، ليلتقي في نهايتها مع عبد من عباد الله تعالى ، علمه الله من لدنه علماً . يقول سبحانه عن « موسى » وفتاه : ﴿ هو جدنا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً ﴾ .

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم - وهو مطمئحهم الأخير - لا يتأتى إلا بإخلاص العبودية

لله ، لأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون الاستعراق في العمل صلاة وذكرًا وصياماً . من الأسس الجوهرية في حياة الإنسان : فإهم

الجهوا في صورة موفقة إلى العمل ، لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أنقياء .
فأفاض الله عليهم من إلهاماته ، واتسم ما دُونوه بطابع الروحانية ، واتسم
بالنضرة ، وكان طابعه أن يزكو على مر الزمن .

والصورة الحية المثالية للآثار الإلهاماتية هي كتاب « إحياء علوم الدين » لحجة
الإسلام وكتاب « الحكم لابن عطاء الله » .

ولقد كان لكتيبهم الأثر الكبير الواضح في الهداية على مر العصور .

* * *

وقد يتساءل قوم : وماذا عن العمل ، والضرب في الأرض ، واكتساب
الرزق ؟ :

وأبتدئ في هذا الموضوع بذكر بعض ألقاب الصوفية .

القصار ، الرزاق ، الخزاز ، الخواص ، الزاز ، الحلج ، الزحاحي ،
الحصري ، الصيرفي ، المقرئ ، المرء .

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كغيرهم ، منهم الفقير ، ومنهم الغني ، ومنهم العازف
عن الثراء العريض ، ومنهم أصحاب الثروات الضخمة ، التي يؤدون فيها حق
الله ، وينفقون منها في سبيله ، إسم يؤتون حق المال يوم حصاده :

﴿ وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ﴾

وهذا مثلاً « أبو الحسن الشاذلي » رضى الله عنه ، وهو من صفوة الصفوة
الصوفية ، كانت له مزارع .

ويقول « مزارع » بالجمع ، لتتابع في هذا التعبير حديث المؤرخين عنه ،
وكان له حصاد ، ودراس . وكانت له ثيران . وكان يتاجر . .

ومن دعائه المشهور :

« اللهم وسع على رزقي في دنياي ، ولا تحجبني بها عن أخراي » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها في أيدينا ، ولا تجعلها في قلوبنا » .

والفرق بين الصوفية وغيرهم في هذا هو أن الدنيا لا تستعبد لهم . وإنما

تستعبد غيرهم

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا الله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون بقيادهم إلى مال أو جاه ، أو منصب أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الدين يتحنون ديارهم ، وأهواءهم آلهة يعدونها من دون الله . . .
إنهم أغنياء أو فقراء تحققوا بقوله تعالى :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

و ابن عطاء الله السكندري ، يقص في كتابه الجميل ، « لطائف المنن » .
قصة ترى صوى تحقق بالآية القرآنية الكريمة ، فلم يمنعه ثراؤه الصحم
العريض أن يكون صوفياً .

يقول « ابن عطاء الله » :

« قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ، ومن أهل الخلد والاجتهاد ، وكان عيشه بما يصيده من البحر ، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

إذا دخلت إلى بلد كذا ، فادهب إلى أخى فلان ، فأقرئه مني السلام ،
ونطلب الدعاء منه لي ، فإنه ولي من أولياء الله تعالى :

قال : فسأمرت ، حتى قدمت تلك البلدة ، فسألت عن ذلك الرجل ،
فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك ، فتعجبت من ذلك ، وطلبتة فقيل لي
هو عند السلطان ، فأرسلت تعجبي ، وبعد ساعة ، وإذا هو آت في أحمر ملبس
ومركب ، وكأنما هو ملك في موكب .

قال : فأزاد تعجبي أكثر من الأول .

قال : ففهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكنني محالة
الشيخ .

فاستأذنت ، فأذن لي ، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد ، والخدم ،
والشارة الحسنة ، فقلت له :

أخوك فلان يسلم عليك .

قال : جئت من عنده .

قلت : نعم

قال : إذا رجعت إليه قل له .

إلى كم اشتغاك بالدين ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع
رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت إلى الشيخ ، قال

اجتمعت بأخي فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذي قال لك ؟

قلت : لا شيء .

قال : لا بد أن تقول لي ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلاً وقال :

صديق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده ، وعن ظاهره ، وأنا أخذها من يدي ، وعندي إليها بقايا التطلع « ا هـ .
وفى نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة ، وإن كانت مشهورة ، نوردها ص « الطبقات الكبرى » « للشعراني » فى اختصار :
يقول الإمام « الشعراني » - عن هذه الشخصية الصوفية - رضى الله عنه :
« ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى : الإمام الصالح الورع الزاهد « شمس الدين الديروى » ، ثم « الدمياطى » الواعظ .

كان فى الجامع الأزهر أيام اسلطان « قانصوه الغورى » ، وكان رضى الله عنه مهاباً عند الملوك ، والأمراء ، ومن دونهم ، زاهداً ورعاً ، مجاهداً ، صائماً قائماً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر . وقد حضرت مجلس وعظه فى الجامع الأزهر مرات ، فرأيت به مجلساً تفيض فيه العيون ، وكان إذا تكلم أنصتوا بأجمعهم ، وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف فكان كل واحد يقوم من مجلسه ، متحشعاً ، صغيراً ، ذليلاً . رضى الله عنه . . وكان إذا مر فى شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته ، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى بردائه من بعيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه ، رضى الله عنه .

حط مرة على السلطان « الغورى » فى ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ، فلما وصل إلى مجلسه ، قال للسلطان : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - فلم يرد عليه - فقال : إن لم ترد السلام فسقت وعزلت - فقلت - وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال :

سلام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد ، وليس لنا مرأى بجاهد فيها ؟
فقد : عندك المال الذي نعمل به فقال بيها الكلام . فقال الشيخ
للسلطان :

« قد سببت نعم الله عليك ، وقابقتها بالعصيان - أما تذكر حين كنت
نصرايياً ثم أسروك ، وباعوك ، من يد إلى يد ، ثم مرَّ الله عليك بالحرية
والإسلام ، ورقاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق ؟ وعن قريب يأتيك المرض
الذي لا يصح فيه طب ، ثم تموت ونكس ، ويحفرون لك قبراً مظلماً ، ثم
يدس أنفك ههنا في التراب ، ثم تبعث عريان عطشان جوعان ، ثم توقف بين
يدى الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المنادى :

من كان له حق أو مظلمة على العورى ؟ فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم
عدتها إلا الله تعالى ، فتغير وجه السلطان من كلامه ، فقال كاتب السروج جماعة
السلطان : الصائحة يا سيدي الشيخ ، خوفاً من السلطان أن يحتل عقله ، فلما ولي
الشيخ ، وأفاق السلطان ، قال : اتوني بالشيخ ، عرض عليه عشرة آلاف
دينار يستعين بها على ساء البرج في دمياط ، فرده عليه وقال : أنا رجل ذو مال
لا أحتاج إلى مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجاً أقرضتك ، وصبرت
عليك ، فما روي أعر من الشيخ في ذلك ، محس ، ولا أدل من السلطان فيه .
هكذا كان العلماء العامدون ، وقد صرف على عمارة البرج دمياط نحو
أربعين ألف دينار : ولم يساعده فيها أحد ، إنما كان يعقد الأثرية .

ويتاجر في اختيار شبر ، ونحوه ، رضى الله عنه ولم يأخذ قط معلوم وطيفة
من وظائف الفقهاء ، وكان ينفر طلبته من أكل أوقاف الناس ، وقبول
صدقاتهم ، ويحرمهم أنها تسود وجه قلوبهم ، رضى الله عنه . وله مصنفات

منها : « شرح منهاج النوى » فى الفقه ، وشرح « الستين مسألة » ، وكتاب « انقاموس » فى الفقه ، وشرح « قطعة من الإرشاد » « لابن المقرئ » رضى الله عنه . وكان متواصلاً مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير ، ولم يصدده ما وصل إليه من العنوم ، والمعارف ، والشهرة ، عن ذلك ، ولقد رآته مرة ركباً فتزل ، وقبل يد أعصى تقوده ابته ، فقلت له : من هذا ؟ فقال : هذا أقرانى وأنا صغير حزين من القرآن ، رضى الله عنه ، فما أقدر فقط أن أمر عليه وأنا راكب .

توفى رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ، وله من العمر نيف وخمسون سنة ، رضى الله عنه ، ودفن بزاويته بدمياط ودفن عنده الأح العزيز العارف بالله تعالى سيدى « أبو العباس الحرينى » رضى الله عنه . وبعد : فلعلنا بذلك قد أزلنا بعض الشبه التى تحوم حول الصوفية بسبب الجهل بهم والله الهادى إلى الصواب . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

الفصل الأول التصوف

- لفظاً
- وتعريفاً
- وطريقاً
- ومصادر
- ونشأة
- ونخبة عامة عنه

حول كلمة : « تصوف »

١- يروى عن أحد الصالحين : أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه ، ولو أمكنه أن يلقي سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلقي اسمه لعمل راصياً معتبطاً ، ذلك أن التسمية والجلاب الشخصي الفردى فى الإنسان لا قيمة لها ، إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

وبما يتلاءم مع هذا الاتجاه قول بعض الصوفية ما معناه :

إن طائفة الصوفية : لو تنزهت عن الفردية والشخصية لنزهم الله عن التسمية تنزهاً مطلقاً ، ولكن لما شابت الفردية أعمال بعضهم وصح لهم اسم وادرجوا تحت عنوان : « الصوفية » .

وسئل « الشبلى » رضى الله عنه : لم سميت « الصوفية » بهذا الاسم ؟

فقال :

هذا الاسم الذى أطلق عليهم ، اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه : ولم يتتبعه الراى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت ، وأطرفها : ما ذكره « البيرونى » : من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : « سوف » اليونانية التى تعنى الحكمة يقول « البيرونى » .

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقى لليلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفقود فى الوجود إلى غيره فوجوده

كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ، فإن « سوف » باليونانية الحكمة ، وبها سمي « الفيلسوف » بيلا سوريا أى محب الحكمة .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سمو باسمهم . ويرى « البيرونى » أن التصحيح دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسراً ومعللاً . ولم يعرف اللقب بعضهم ، فنسبهم - لتوكل إلى الصُّفَّة ، وأنهم أصحابها فى عصر النبى ﷺ .

ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس . . . ورأى « البيرونى » هد على طرائفه لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية « بالصوف » كانت موحودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية « فالبيرونى » يقول فى صراحة :

« ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم » . ورأى « البيرونى » إذن لا يستقيم ، إلا على أن هذا اللفظ : نشأ فى الإسلام بعد أن عرمت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها ونداونها الأكنة ولاكها الأفواه ، وألفت معناها العقول ، أى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، على أقل تقدير مع أن الكلمة عرمت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى على ما يرى صاحب « النعم » . ولكن إذا كان رأى « البيرونى » لا يستقيم ، فإلام نتجه فى اشتقاق هذه الكلمة .

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً . رأياً ، وينقصها جميعاً .

- ١ - فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال : تغمص إذا لبس القميص ، وذلك وجه .
ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .
- ٢ - ومن قال : إنهم مسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ :
فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوى
- ٣ . ومن قال : إنه من الصفاء .
فاشتقاق « الصوى » من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة .
- ٤ - وقول من قال : إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول
يقولهم من حيث المحاضرة من الله تعالى . المعنى صحيح .
ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .
- وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية : يتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن
لا يرى الاشتقاق ويقول : هذه التسمية غبت على هذه الطائفة ، فيقال :
رجل صوفى وللمجاعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف
وللمجاعة : المتصوفة .
- وليس يشهد للاسم من حيث العربية - قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه
أنه كاللقب :
- لقد استعرضنا الآراء التي قيلت في هذا الموضوع قديماً ، فهل يا ترى هناك
من جديد ؟

٢- ما رأى الباحثين الحديثين في أصل كلمة (تصوف)

يقول الشيخ « عبد الواحد يحجي » :

أما أصل هذه الكلمة . « صوفي » فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت عروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة . إنها في الحقيقة تسميه رمزيه ، وهذا أردنا تعسيها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ : أن القيمة العددية لحروف « صوفي » تماثل القيمة العددية لحروف « الحكيم الإلهي » فيكون الصوفي الحقيقي يد ، هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية إنه (العارف بالله) إذ أن الله لا يعرف إلا به .

ونلك هي الدرجة العظمى (الكلية) مما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

وقد انقرد الشيخ « عبد الواحد يحجي » ، فيما نعم بهذا الرأي ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المطقية يستسيحه قوم دون برهان ، وينصر به آخرون من غير ما حجه . وإذا تركنا الشيخ « عبد الواحد » لننظر إلى الباحثين في هذه اللفظة ، فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يخاري فريق منهم « أما الريحان البيروني » في أنها مأخوذة عن أصل يوناني هو كلمة « سوفيا » اليونانية .

وقد قال هذا الرأي (فون هامر) من المستشرقين واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين . وأيده في حرارة « محمد لطفي جمعه »

أما السبب الذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، فهو
إهمهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية ،
ويسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير « محمد لطفي جمعة » . « يجرّد
هذه المِرْقَة انتمية إلى الإسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة »
وقد بينا رأينا في هذا الموضوع قِماً مضي ، ونقول الآن :
إن أصحاب هذا الرأي يعطون قوة وتأيداً ، لمن يزعم أن التصوف
الإسلامي وليد القسمة « الأفلاطونية » وهو رأي باطل
ولقد هاجم الدكتور « زكي مبارك » هذا الرأي في قوة وفي منطق سليم .
لقد كان العرب - حسماً يرى - مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ
الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) نصوا عليه ، في كثير من
المزلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة وكانت (الفيلسفة) عند
اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء . وقد
ترجمتها العرب : هسموا الطب : « الحكمة » وكلمة « حكيم » لاتزال تؤدي
معنى كلمة . « طبيب » والفلسفة نفسها سماها العرب « الحكمة » وقالوا : تاريخ
الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا « الفلسفة والطب » . أما الحكمة الروحانية ، فمن
البعيد أن يكونوا يسمونها لأسم كانوا يرون اليونان من عدة الأوثان .
ثم يقول الدكتور « زكي مبارك » . في طرف طريف ، وفي صورة من الجدد
هي تعبر ، أبلغ التعبير ، عن التهكم والسخرية : على أنه ما الذي يمنع أن تكون
« سوفيا » بمعنى الحكمة لروحانية ، جاءت من كلمة « صوف » وهي قديمة في العربية ؟

فضيلة التصوف المنقذ من الضلال

إن التصوف ، قديم جداً عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف : كان علامة التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة : « صوف » إلى معابد اليونان .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأي ، على حد تعبير الدكتور « زكي مبارك » : « ليس إلا صرياً من لاغراب » .

أما الفريق الثاني من الباحثين الحديثين - وهم أكثرية - فإنه يرى أن كلمة « تصوف » مأخوذة من « الصوف » .

٣- إنى أرى - كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين -

أن لفظة « التصوف » تنسب إلى الصوف ، وكما أنه يقال : تقمص إذا لبس القميص - كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز انقائلين بهذا الرأي : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ « مصطفى عبد الراروق » ، والرحوم الدكتور « زكي مبارك » والمستشرق « مرجليوث » .

وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الملبس - وهو مظهر وشكل ورسم فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد كما وضع الاسم له إذ المعنى الأصلي : قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ، ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الدين لا يريدون أن ينسوا التصوف إلى الصوف ، بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي للاسم ، وما وضع الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف معنى معروف ، لا شأن له بالمظاهر والأشكال .
وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون في قيمته أو فائدته ، فإنهم
لا يتخذون التسمية تكأة لهذه الممارسة ، وبوفرصنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن
سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية لساخرين .

على أننى أرى - كما يرى كثير غمى وكما يثبت التاريخ - : أن هذه الكلمة
« تصوف » لم توصل في الأصل للتصوف بمعناه العادى ، الذى نفهمه الآن ،
ولمّا وضعت في المبدأ لتدل على نمط من العروف عن الدنيا ، إنها كانت علامة
الزاهدين والمتسكين ، فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .
إن العروف عن الدنيا : عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس ،
تمشياً مع فكرة دينية وإرضاء لشعور تنسكى .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يترهبون ابتغاء رضوان الله .
ويتمذهب بها بعض الناس إرضاء لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب عقل ،
يرى أن السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات ، والبعد عن
الشهوات وذلك هو الرهد .
وسواء أكان العروف عن الدنيا ديناً أم كان منطقاً فإنه موجود منذ أقدم
العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها
والمنطق صاحب الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد - من ناحية الملبس - في الصوف : ما يحقق
أهدافهم التى تتصل بالتقشف ، والشطف والخشونة ، فهو متين رخيص خشن
لا يحتاج ، الإنسان معه في الشتاء إلى غيره ولا يحتاج إلى تعييره كثيراً ، ذلك أنه

لا يبل بسرعة فتصوفوا . أى لبسوا الصوف .

وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم : صوفية ، وأطلق الاسم مصادفة أو تعمداً فداع وشاع ! وأصبح الزهاد يعرفون - في البيئات العربية - باسم ! « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد ! كانوا موجودين في العصر الحاهل تديناً أو منطقياً ، وكانوا موجودين في صدر الإسلام تديناً أو منطقياً ! حتى إذا كانت « رابعة » ، وكان « الجيد » وكان « ذو النون » . حتى إذا داع التصوف وانتشر ممثلوه عارفين عن ابدىا لابسين الصوف ، أضلقت الكلمة عليهم

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما . حالة الزهد السحت ، وحالة التصوف ، ولم يزل الصوفية على التسمية في حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ، ذهب في نسبتها مذاهب أخرى . وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق . ولعل عداية المقادير . هي التي هيأت لها الجول للظهور والشيوع ، إذ أنها تمت بصلة حرقية ، بعمة جرمية ، إلى كثير من الكلمات التي تدل على معد وثيقة الصلة بالتصوف : كالصماء « وصلته بالتصوف ظاهرة » .

والصف « الصف الأول في الجهاد جهاد العدو وجهاد النفس » .

والصفة « صفة مسجد رسول الله ﷺ التي كان يعيش فيها قوم وهوا أنفسهم للجهاد » .

والصفة « الصفة الجميلة » .

وسوفيا اليونانية « التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص » .

وكان من لتوفيق أيضاً هذا العموض نفسه في أصل الكلمة . فما من
شك في أن اختلاف المذاهب والآراء في أصلها . يبين الكثير من معاني
التصوف ومن مطاخره .
وبالله التوفيق .

تعريف التصوف

١ - يتجه الكثير من الناس - في تعريف التصوف - إلى الجانب الأخلاقي ، وهذا الاتجاه : شائع عند الصوفية أنفسهم ، وعند غيرهم من الباحثين في التصوف والمؤرخين له ، وتذكر الآن حدة أمثلة ، تبين بها هذا الاتجاه :

يقول « أبو بكر الكتاني » ، المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ :

« التصوف : خلق ، فمن زاد عليك في الخلق ، فقد زاد عليك في الصفاء » .

وتروى الرسالة القشيرية أن « أبا محمد الجري » المتوفى سنة ٣١١ هـ ، سئل عن التصوف فقال :

« الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق ذني »

وأحد تعريفات « أبي الحسين النوري » ، للتصوف كما تذكره « تذكرة الأولياء » : ينفي عن التصوف أن يكون رسماً ، أو علماً ، ويحدده بأنه « خلق » . إنه يقول :

« ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ، ولكنه « خلق » ثم يعلل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسماً ، لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً ، لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » . ويحدد أبو الحسين النوري - في تعريف آخر - الأخلاق التي يتكون منها التصوف فيقول :

(التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء)
هذا الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف ، شائع في الشرق وفي الغرب ،
وهو أيضاً - شائع في الزمن القديم وفي الزمن الحديث ... ومع ذلك ، فإنه
لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ، ذكروا ،
هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك - - على الأقل - يدل دلالة لا لبس
فيها ، على أنهم : لم يروا كفاية الجانب الأخلاقي في تحديد التصوف وتعريفه .
والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو ، في
الجانب الأخلاقي الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا
الفصيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين في المحيط الأخلاقي ، وفي
المجتمع .

ولكن ليس معنى ذلك أنهم ، لا محالة ، من الصوفية .
ولو نظرنا في البيئة اليونانية لوجدنا داعية إلى الفضيلة ، ومتمذهباً بها ،
ومحاولاً نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة
الإقناعية ، أو بالمطى الجدلى ، أو بالأسوة الكريمة ، ذلك هو سقراط ومع
ذلك فإن سقراط هذا لم يكن صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة : (صوفى) .
وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية ، فإننا نجد الحسن البصرى ، رضى الله
عنه ، من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالمية ، لقد كان مثلاً صادقاً
للشعور الأخلاقي ، في طهره وصفاته . وكان يشر الفصيلة بوعظه المتونر ،
ومنطقة القوى ، وصوكة المثالي ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفياً
بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفى) .

على أنه من الطبيعي : أن تكون الأخلاق لكرامة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق في أسى صورة من صورها ، ثمرة للتصوف ومن الطبيعي أيضاً ، أن تكون الأخلاق لكرامة شعار الصوفى ، فيما بين الأساس والثمره ، هى إذن ملازمة للتصوف ولصوفى ، ملازمة تامة لا تتحلل عنه ، ولا يتخلل عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف ٢ وهالك انجده أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق . هو تعريف التصوف « الزهد » .

وحينما يسمع كثير من الناس كلمة « التصوف » ، يفهم منها معنى « الزهد » ولا يفهم من كلمة « صوفى » إلا الزاهد فى الدنيا وما من شك فى أن الصوفى : لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد فى الدنيا شىء ، والتصوف شىء آخر ، ولا يلزم عن كون الصوفى زاهداً ، أن يكون التصوف : هو « الزهد » .

٣ - ويخلط كثير من الناس بين الصوفى والعايد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة ، قالوا عنه إنه « صوفى » . ولا ريب أن « الصوفى » كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثر من النوافل ، ويدأومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من « الصوفية » .

ولخلط الناس بين الزاهد والعايد والصوفى ، حاول (ابن سينا) أن يفرق بينهم ، وبين أهداف كل منهم يقول فى كتابه « الإشارات » :

١ - المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم « الزاهد » .

٢ - النواظ على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما ، يخص

باسم « العابد » .

٣ - المصروف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق في

سره ، يحص باسم « العارف » .

و « العارف » عند « ابن سينا » ، هو « الصوفي » .

ويتحدث « ابن سينا » - كما يذكر غيره - أن الراهب قد يكون عابداً ،

ولعابد قد يكون زاهداً ، فيمتزج الزهد والعبادة في شخص واحد ، ولا يكون
بعبادته وزهده معاً : « صوفياً » .

ولكن « الصوفي » لا محالة ، زاهد عابد .

عنى أن هناك تفرقة حاسمة ، بين زهد الصوفى وعبادته ، وبين زهد غير

الصوفى وعبادته .

وهذه التفرقة إنما هي في الهدف ، أكثر منها في الأسلوب والمنهج .

ولقد تحدثت السيدة « رابعة العدوية » ، رضى الله عنها ، عن هذا بأسلوب

مؤثر ، وتحدث غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفى ، إنما هدفه

الاستمتاع في الآخرة ، فهو نوع من المعاملة « كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع
الآخرة » .

أما الصوفى : فإنه يرهد في الدنيا ، لأنه ينتزه عن أن يشغله شيء عن الله .

وعبادة غير الصوفى ، هدفها . دخوله الجنة . كأنه يعمل في الدنيا لأجرة

يأخذها في الآخرة : هي الأجر والثواب « فمثل : كمثل الأجير : يعمل طيلة
النهار ليأخذ أجره في المساء .

أما عبادة الصوفى ، فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله : (لأنه

مستحق العبادة ، ولأنها سببة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة) .

وتقول السيدة « رابعة » رضوان الله عليها ، ما معناه . « اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نورك فألقني فيها ، وإن كنت أعبدك طمعاً في جنتك فأحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم . فلا تحرمي من رؤيته . »
هذه المعاني الخاصة بأهداف الزهد والعبادة - من حيث كونها لوجه الله -
إسما معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بديهية في محيطهم وفي جوههم :
﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ .
والتصوف إذن : ليس خلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ، ولا عبادة
لا غير ، وهو وإن كان متضمناً للخلق الكريم ، والزهد الرفيع ، والعبادة
المتجردة ، فإنه مع كل ذلك شيء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الدين يربطون بين
التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرين ،
ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات ، إنه شيء يتجاوز
الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً ، بل يعدونها من الأشياء
اليسيرة ، التي تبعث السرور في قلب من يجربها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها
واكتفى ، تدل على أنه لم يبلغ بعد في التصوف قدماً ثابتة ، ولا درجات ممتازة .

٤- ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التي تتحه الوجهة الصحيحة فيما يتعلق بالمعنى
الحقيقي لهذا الموضوع .

١- أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

سئل عن الصوف فقال :

« من صنى ربه قلبه ، فامتلاً قلبه نوراً ، ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله » :

٢ - « الجنيد البغدادي » المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

التصوف - هو أن يملك الحق عنك ، ويحييك به .

٣ « أبو بكر الكتاني » المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

التصوف : صفاء ومشاهدة .

٤ « جعفر الخلدي » التوفى سنة ٣٤٨ هـ .

التصوف : طرح النفس فى العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .

وسئل « الشبلى » عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده

وإذا نظرنا إلى تعريف « الكتاني » ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان فيما نرى يكونان فى وحدة متكاملة - تعريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثانى : « غاية » .

أما الوسيلة : فهي « الصفاء » .

وأما الغاية : فهي « المشاهدة » .

والتصوف من هذا التعريف طريق ، وغاية

وطريقه يتضمن نواحي كثيرة تشير إليها تسميته نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التى كانت السبب فى هذه التسمية ، واتخاذها عنواناً على هذه الطائفة .

لقد قال جماعة . إنما سميت « صوفية » لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها .
وقال « بشر بن الحارث » . الصوفى : من صفا قلبه لله
وقال بعضهم : الصوفى : من صفت لله معاملته ، وصفت له من الله عز
وجل كرامته .

وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة : « الصوفية » إنما تشير إلى الصفاء ، وهذه
الإشارة لا تخضع لمقياس اللغة ، وما دامت « إشارة » فإنه من التحسف أن
يجادل إسان في أمر اسجامها مع اللغة ، وعدم اسجامها
ويقول قوم إنهم إنما سموا : « صوفية » لأهم في الصف الأول بين يدي الله
عز وجل ، بارتفاع همهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم
بين يديه .

وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف أى إلى الصف الأول
في العمل على الوصول إلى الله والجهد في سبيله .
أما إشارة الكلمة إلى « أهل الصفة » ، الذين كانوا على عهد رسول الله
ﷺ ، إنما تشير إلى أوصافهم من العبادة ، والتجهد ، وعدم الطمع في
الدنيا ، واستعدادهم الدائم للجهاد في سبيل الله .
وتشير الكلمة للصفة - أى الصفة الكريمة ، التي لا يتعلق فيها القسب
بالمادة وإنما تتعلق بالله تعالى .

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل .
على أن هذه الوسائل التي تشير إليها الكلمة ها وسائل أخرى هذه الوسائل
الأخرى ما يعبرون عنه بقولهم « لا يَمْلِكُ ولا يُمْلِكُ »
ويعنون بذلك أنه « لا يسترقه الطمع » .

وهذه الكلمة لها مدلول واسع ، هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا ، حتى ولو ملكها عريضة طويلة ، يتحرر من الخاء ، من الانغماس في الملهيات ، من الجري وراء المال ، من حب السلطان ، من حب الترف ، من الصفات التي تتناقى مع انفصيلة .

وحاتمة المطاف في هذه الوسائل ، أنها تؤدي إلى الصفاء ، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة ، فيجود الله عليه بها ، إن شاء .

هذه المشاهدة هي أسمى درجات المعرفة ، وهي الغاية الهائية التي يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف ، والعطر الملائكية ، والشخصيات الربانية

فالتصوف إذن معرفة - أسمى درجات المعرفة بعد النبوة - إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة

وإذا أردنا أن نلجأ إلى الإمام « الغزالي » في تلخيص الطريق والغاية ، فإننا نجده يقول في كتابه الخالد : « إحياء علوم الدين » .

« الطريق تقديم المحاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الحمة على الله تعالى ، ومنها حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر المكوث ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية .

فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة .

ومن القصص اللطيفة التي تصور الوسيلة إلى المشاهدة في سهولة ويسر
القصة التالية :

قال « ذو النون » :

رأيت امرأة يبعض سواحل الشام .

قللت لها :

من أين أقبلت رحمتك الله ؟

قالت :

من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

قلت :

وأين تريدان ؟

قالت :

إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

قلت :

صفيهم لي ، فأنشأت تقول .

فألهم همهم تسمو إلى أحد	قوم همومهم بالله قد علق
يا حسن مطيهم للواحد الصمد	فطلب القوم مولاهم وسيدهم
من المطاعم ولذات الولد	ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف
ولا لروح سرور حل في بلد	ولا للبس ثياب غلق أثق
قد قارب الخطو فيها بأعد الأبد	إلا مسارعة في إثر منزلة
وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد	فهم رهائن خسران وأودية
والمشاهدة التي هي الغاية (للصوفية) هي أيضاً تحقيق واقع للتعبير ، الذي	

منطق به في كل آونة حينما نقول :

(أشهد أن لا إله إلا الله)

فالشهادة هي غاية الصوفى ، وهو إنما يسمى جاهداً إليها بشق الوسائل ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولاً ، أو ما يقوله حروفاً .
وما من شك في أن تعاريف التصوف الكثيره التي نجدناها متشعبة هنا وهناك ، والتي تكاد تبلغ الألف إنما تعبر في أغلب الأحيان عن زاوية من زوايا التصوف ، تتصل بالوسيلة ، أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها إذا ما كانت كذلك ، إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو في أخذها ، على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة . أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف «الكتاني» : التصوف (صفاء ومشاهدة) .

الطريق الصوفي

المقامات والأحوال

إن الصوفية هم طريق روحي ، يسرون فيه !
وهذا الطريق يعتمد أساساً ومنهجاً وغاية على القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

وقد ذكرنا في غير هذا الفصل بعض كلمات لكبار الصوفية ، تؤكد وتوضح اعتمادهم على القرآن الكريم في سيرهم إلى الله تعالى .
وهذا الطريق قد جربه الصوفية ، فثبت ثماره عن طريق التجربة أيضاً ،
وحوهر الطريق الصوفي هو ما سماه الصوفية . المقامات والأحوال .

والمقامات هي المراحل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدًا في إطارها ، حتى يهبى الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثاني ، لكي يتدرج في السمو الروحي من شريف إلى أشرف ، ومن سام إلى أسمى ، وذلك مثلاً كمنزل « التوبة » الذي يهبى إلى منزل « الورع » ، ومنزل « الورع » يهبى إلى منزل « الزهد » ، وهذا حتى يصل الإنسان إلى منزل المحبة ، وإلى منزل الرضى .

وهذه المنازل لا بد لها من جهاد وتركية ، ولذلك يقولون عنها : إنها مكتسبة .

إنها اجتهاد في الطاعة ، ومواصلة في التسامى في تحقيق العبودية لله سبحانه !

أما الأحوال فإنها السمات الروحية التي تهب على السالك ، فتنعش بها نفسه لحظات حاطفة ، ثم تمر تاركة عطراً ، تشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجها ، وذلك مثل : الأسس بالله .

وسواء كنا بصدد المقامات أم بصدد الأحوال ، فإن الصوفية قد اختصوا فيها بين مجمل لها ومفصل .

ولكن الملاحظ أنهم في وصف المقامات والأحوال - لا يتعارضون . واختلافهم إذن ليس اختلاف تناقض وتعارض ، وإنما هو اختلاف بسط وإيجاز .

ويقول الإمام « أبو نصر السراج الطوسي » عن المقامات .
« والمقامات مثل التوبة ، والورع ، والرهبة ، والفقير ، والصبر والرضى ، والتوكل ، وغير ذلك »^(١) .
ويقول عن الأحوال :

« وأما معنى الأحوال ، فهو ما يحل بالقلوب ، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار !

وقد حكى عن « الجنيد » رحمه الله ، أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم »^(٢) .

ويقول الطوسي أيضاً :
« وليس (الحال) عن طريق المحاهدات والعبادات ، والرياضات - كالمقامات التي ذكرناها . وهي أي الحال - مثل : المراقبة ، والقرب ، والعبادة ، والخوف ، والرجاء والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والشاهدة

(١) السمع : ٦٦

(٢) السمع : ٦٦

واليقين ، وغير ذلك ^(٣) .

ويقول الإمام « القشيري » عن المقامات :

« والمقام : ما يتحقق به لعبد بممارسته - أى بتزوله فيه ، وبما اكتسب له - من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة بكلف .

لمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشغول بالرياضة له .
وشرطه : ألا يرتقى من مقام إلى مقام آخر : ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل . ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإجابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد ^(٤) .

ويقول عن الأحوال :

« والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعبد منهم ولا اجتلاب واكتساب لهم ، من : طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قصر ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هية ، أو احتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب !

والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببدل المجهود . .

وصاحب المقام ممكن في مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله ^(٥) .

(٣) نفس المصدر السابق

(٤) الرسالة القشيرية ٢٢٤

(٥) الرسالة القشيرية ٢٢٦

حب الله ورسوله :

وهذا الطريق - الصوفى الذى نتحدث عنه - يستند إلى مقياس بزن به نفسه ، وهو : الاقتداء برسول الله ﷺ : ولا يتأتى الاقتداء به صلوات الله وملائمه عليه ، ما لم يملأ حب رسول الله ﷺ جميع أقطار النفس ونبدأ إذن بالحديث عن حب رسول الله ﷺ .

يقول الله تعالى :

﴿ نل إن كان آباؤكم ، وأبنائكم ، وإخوانكم ، وأرواحكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله فتربصوا ، حتى يأق الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقون ﴾ (٦) .

وفى معنى الآية الكريمة يروى الإمام « البخارى » رضى الله عنه عن « عبد الله بن هشام » قال :

« كنا مع رسول الله ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال . والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى ! فقال رسول الله ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

فقال عمر : فأنت الآن أحب إلى من نفسى !

فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » .

وقول الرسول ﷺ : « الآن يا عمر » أى : الآن وقد صار الرسول ﷺ

(٦) التوبة : ٢٤

أحب إليك من نفسك ، فقد استقامت أمور الإيمان عندك ، وصرت إلى ما أحب الله ورسوله .

ومحبة رسول الله ﷺ تتضمن كشرط أساسى جوهرى اتخاذه ﷺ قدوة في السلوك والعمل والدرجة الجوهرية في القدوة به ﷺ إنما هي متابعته في إسلام وجهه لله سبحانه وتعالى .

لقد باع رسول الله ﷺ نفسه وماله لله سبحانه ، وكان أول البائعين ، وكان أمثل البائعين . وحقق بذلك وحقق أصحابه ومن اتبع هديه متأسين به قول الله تعالى :

﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقْتُلُونَ ، وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًّا عَلَيْهِمْ حَتَّى فِي تَوْرَةٍ وَإِنْجِيلٍ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذى تابعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٧)

لقد اشترى الله في عقد الإيمان النفس والمال ، شمس هو الجنة ، فإذا بخل المؤمن بنفسه في سبيل الله ، فقد أحل بعقد الإيمان .
وإذا بخل بماله في سبيل الله ، فقد أحل بعقد الإيمان .

وحب رسول الله ﷺ - إذن - إنما هو إثار ما يحب ، واتباع هديه ، والعمل بسنته في الإيجاب ، وإيثار كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم ، مما يحبه الإنسان من أشخاص أو من أشياء .

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام « البخارى » رضى الله عنه :
« والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحب إليه من والده

وولده والناس أجمعين » .

فحب رسول الله ﷺ مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليا ، تمثلت فيه طيلة حياته .

والآية الكريمة ، والأحاديث الشريفة التي رويها ، تدل كلها دلالة صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية أو مع أمور الدنيا ، فإنه يحب على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها .

يقول الإمام « الرازي » :

« إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا » .
أما بعد :

فيقول صاحب الكشف عن الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا الحديث ما معناه :

« وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنمى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب جبل اليقين ، فلي نصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء ، والإخوان ، والعشائر ، والمال ، والمساكن ، وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم أن الشيطان يغويه من أجل حظ من حظوظ الدنيا فلا يبالي كأنما وقع على أنه دباب هطيره ؟
ثم أما بعد :

فإن الحب الصادق به ﷺ يتمثل حقيقة في المحادة الصادقة ، لالتزام صفاته ﷺ في النفس والعمل على سيادتها في المجتمع .

الأسوة الحسنة :

وحب رسول الله ﷺ يستلزم لا محالة التأسي به ﷺ ، بقول الله تعالى :
﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر
وذكر الله كثيراً ﴾ (٨) .

إن الأسوة برسول الله ﷺ خير ما يحقق النجاة في الدنيا والآخرة .
فرسول الله عليه الصلاة والسلام هو المثل الكامل الواقعي ، التطبيق ،
للمدين الإسلامي !

إنه الصورة الحية للقرآن الكريم ، وفي ميسر كل إنسان الاقتداء به ، إذا
توافرت فيه ثلاث شروط ، بينها الآية الكريمة :

أوها : أن يرجو الله ، ورجاء الله يبينه الله سبحانه بقوله :
﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً . ولا يشرك بعبادة ربه
أشداً ﴾ (٩) .

فتحقق الرجاء في الله أن يخلص الإنسان وجهه لله في العبادة ، وأن يكون
من ذوى الأعمال الصالحة ، وإلا كان رجاءه في الله شكلاً ، لا حقيقة له .
وظاهراً ، لا جوهراً له .

أما الذين لا يرجون لقاء الله فيصفهم الله تعالى بقوله :
﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا وطمأنوا بها ، والذين
هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار ، بما كانوا يكسبون ﴾ (١٠) .

(٨) يونس : ٧ - ٨ .

(٨) الأحزاب ٢١

(٩) الكهف ١١٠

وهؤلاء لا نصيب هم في الاقتداء برسول الله ﷺ حيث لم يتواضع لهم
شرط رجاء الله سبحانه .

والشرط الثاني : أن يرجو الإنسان اليوم الآخر .
ورجاء اليوم الآخر هو رجاء النجاة فيه
ورجاؤه إذن إما هو بالعمل للنجاة ﴿ يوم لا يفع مال ولا نون إلا من أتى
الله بقلب سليم ﴾ .

ومن لا يرجو اليوم الآخر فليس له في الاقتداء برسول الله ﷺ من
نصيب

أما الشرط الثالث الذي يجب أن يتواضع في الإنسان حتى يتأق به الاقتداء
برسول الله ﷺ : فهو أن يذكر الإنسان الله كثيراً .
وقد حدد الله الذكر بالكثرة ونص عليها سبحانه ، والذكر الكثير من سمات
المؤمنين حقاً .

و لتدين والذكر الكثير من سمات أصحاب العقول الراجحة الذين يذكر الله
سبحانه أن من صفاتهم التفكير لمعظة واعتبار في خلق السموات والأرض
ومن صفاتهم الذكر في جميع حالاتهم التي هم عليها ، وذلك كله على
أساس من الإيمان الخالص .

يقول الله تعالى في أسوب رائع ، وفي معان تتسلسل بوراً وتلاصياً
﴿ إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي
الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويصعكون في خلق
السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب
النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أحرقت ، وما للطغيين من أنصار . ربنا إننا

سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر
عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تحزنا يوم
القيامة إنك لا تحفـ الميعاد ﴿١١﴾ .

ويعقب الله على ذلك بقوله :

﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ ا

وبعد :

فإنه إذا توفرت في الإنسان هذه الشروط ، فقد أصبح جديراً بالناسي
برسول الله ﷺ ، وأصبح بذلك من الذين يجونه ، والمراء مع من أحب !

التوبة :

وإذا أراد الإنسان أن يتأسى برسول الله ﷺ ، فيحاول أن يقترب ما
استطاع من .

﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له ﴾ .

إذا أراد الإنسان أن يدخل في معنى « الإسلام » كيف يبدأ ؟

ما هي الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟ ثم إلى أين ؟

ما هي الثمرة المرجوة ، وما هو النفع الذي يعود عليه من ذلك ؟

إنه يبدأ الدخول في النظام القرآني ا

والدخول في النظام القرآني معناه : العزم المصمم على التحلي عما ليس

بقرآني :

(١١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤

وهذا ما يسمى في العرف الإسلامي أو في النظام القرآني :
« التوبة » ١

ولقد أمر الله في القرآن بالتوبة ، وحث عليها ، وحسب فيها ، وأوجبها في بعض الأحيان .

والواقع أنها اللمسة الأولى إلى الله ، وهي اللبنة الأولى في طريق إسلام الوجود لله ، يقول أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسي ، رحمه الله - أو من مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى . التوبة . وسئل السوسي عن التوبة ، فقال . التوبة ارجوع من كل شيء دمه العلم ، إلى ما مدحه العلم .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، تفضلاً منه ورحمة ، يقول سبحانه في حديث قدسي ، وفي أسلوب كله رافة :

(يا عبادي إنك تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوبون » .

وما من شك في أن توبة العوام - كما يقول « ذو النون » رضي الله عنه هي من الذنوب ، وأما توبة الخواص فيها من العملة ، وتصل التوبة في صموها فتكون مما سوى الله تعالى . .

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن ، ويعرفنا رسول الله ﷺ أن ربنا يرسل كل ليلة إلى سماء الدنيا عدد ثلث الليل الأخير فينادي :

(ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه) .

ويقول الله سبحانه وتعالى في صورة من تجلى الرحمة وسعة من شمول الرأفة
بإعباد :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقطعوا من رحمة الله ، إن
الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .
وبلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة ، يقول سبحانه
وتعالى :

﴿ وأنبيوا إلى ربكم ، وأسلموا به من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا
تنصرون ﴾ .

أي : ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له .
ثم بين لهم الطريق الصحيح الذي يلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى
﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب
بغتة ، وأنتم لا تعلمون ﴾ .

والله سبحانه وتعالى في هذا بوجه الدين صدقوا في توبتهم إلى أن يشعروا
أحسن ما أنزل إليهم من ربهم .
وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع كلاً من لوازمه - أن
يستقيم الإنسان على الطريق .

والله سبحانه يسد على الدين بين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد ، مهدداً
تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من
رحمن رحيم !

يقول سبحانه :

﴿ أن تقول نفس : يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن

الساحرين . أو تقول : لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول - حين ترى العذاب - : لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴿ .
فإذا ما قال الإنسان ذنب أو تعطل بأمثاله ، فإن الرد يأتيه من رب العزة :
﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها ، واستكبرت ، وكنت من الكافرين ﴾ .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافر والمؤمن يوم القيامة فيقول :
﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين . وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

والآن : قد وضح الطريق ! فهو :

أولاً : التوبة .

وثانياً : اتباع أحسن ما أنزل الله .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم - متابعين للأوضاع الإسلامية -
يبدءون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدءون شهر رمضان
بالتوبة ، ويبدءون الحج بالتوبة .

والرحلة المباركة ، رحلة « الإسراء والمعراج » بدأت بشق الصدر ، وشق
الصدر بالنسبة لنا ، إنما هو التوبة الخالصة النصوح ، لأن التوبة تظهر وظهر
وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر
الإنسان ، ويفسلانه بالثلج والبرد ، أو بماء زمزم ، أى : يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تجب ما قبلها ، أى تزيله
وتحمره

والتوبة التي من هذا النمط ها شروط ، لا بد من توافرها ، حتى تهيب
الإنسان لشق الطريق إلى الله نهضة موفقة !

يقول الإمام « الموى » في رياض الصالحين :

« قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين لعبد
وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط .

أحدها : أن يقطع عن المعصية .

والثاني : أن يندم على عملها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . .

وإن كانت المعصية تتعلق بأدمي فشروطها أربعة :

هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كنت مالا أو نحوه رده
إليه ، وإن كنت حد قذف ونحوه ، مكته منه ، أو طلب عهوه ، وإن كانت
عنية استحلته منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته
عد أهل الحق من ذلك لدنس ، وبقي عليه الباقي .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة ، .
هذا فيما يتعلق بالتوبة .

وبقي الحديث فيما يتعلق باتباع أحسن ما أنزل الله !

وأتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين
في الإسلام ، أعني مواد البيعة .

ومن المبايعات التي بايع عليها رسول الله ﷺ أصحابه ما كان قبل فتح

مكة ، بل قبل الهجرة إلى المدينة ، كما في بيعة العقبة ، فيها قال الرسول ﷺ
لن حضر من الأنصار - فيما ذكره « ابن إسحاق » -

« بايعوني على السمع والطاعة ، في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر
واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في
الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتنصروني إذا قدمت عليكم ، مما تمنعون منه
أنفسكم ، وأروا جكم ، وباءكم ، ولكم الحنة ... » .
ومن هذه المبايعات ما كان بعد هذه البيعة .

روى « البخاري » بسنده عن « عبادة بن الصامت » أن رسول الله ﷺ
قال - وحوله عصابة من أصحابه - :

بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزبوا ، ولا تقتلوا
أولادكم ، ولا تأتوا بهتاناً تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في
معروف من وفي منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في
الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم سره الله فهو إلى الله ، إن
شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن بيعة النساء بقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ، وَلَا
يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَرْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ يَدَيْهِنَّ
وَأَرْجُلَهُنَّ ، وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايَعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ، إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ .

وكانت هذه البيعة عقب فتح مكة ، بعد بيعة الرجال ، ويتحدث « ابن
جرير » عن هذه البيعة فيقول :

« ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول ﷺ على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيما استطاعوا . فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قائلاً : « بايعني على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين بهتاناً تفترينه بين أبيديكن وأرجلكن ولا تعصينني في معروف » .

ثم قال ﷺ « لعمر » :

« يا أيها من واستغفر لمن الله إن الله غفور رحيم » .

وروى عن « جرير بن عبد الله » رضى الله عنه ، قال :

بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل

مسلم .

الورع :

وإذا صدقت التوبة ، استلزمت لا محالة : الورع .

والورع هو أن يترك الإنسان كل ما فيه شبهة .

ولا نتحدث عن ترك الحرام . وذلك أن التوبة الصادقة إنما هي - أولاً

وبالذات - توبة عن احرام : كل الحرام .

وتوجيه رسول الله ﷺ - متناسقاً في ذلك مع القرآن - كثير مستفيض فيما

يتعلق بالورع ، من ذلك ما أخرجه الشيخان عن « النعمان بن بشير » قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشبهات ، لا يعلمهن كثير

من الناس ، فمن اتقى شبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع
في الحرام ، كالأصمى يرى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل
ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضعة ، إذا
صبحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي
القلب^(١٢) .

ومن ذلك ما رواه « الحسن بن علي » رضي الله عنهما قال :
« حفظت من رسول الله ﷺ . دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .
رواه « ترمذى » وقال حديث حسن صحيح ، ويقول الإمام « النورى »
معناه : اترك ما تشك فيه ، وخذ ما لا تشك فيه .
وعن « عطية بن عروة السعدى » الصحابى رضي الله عنه ، قال : قال
رسول الله ﷺ :
« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به ، حذراً مما به
بأس^(١٣) » .

والورع يكون في الحديث ، والقلب : والعمل .
أما في الحديث : فإنه التورع عن الغو بجميع صروبه ، إنه ترك كلمات
الفضول ، وترك كل حديث ليس من شأنه إلا قطع الوقت دون فائدة أو ثمرة .
والورع في الحديث ليس سهلاً ، ويقول فيه الإمام « الفشيرى » :
الورع في المطلق أشد منه ، في الذهب والفضة .
ولا تدخل العيبة والعيبة فيما نحن فيه ، وذلك أننا في مستوى لا ينزى إلى

(١٢) معنى قلبه

(١٣) ورواه الترمذى وقال حديث حسن .

مستوى الآثام والذنوب .

والورع في القلب ، هو عدم انشغاله بالتواضع من انخضرات ، ويتسامى الورع في القلب حتى يصل إلى ما يقويه الإمام « الشبلي » وهو من كبار أئمة التصوف :

« الورع : أن تتورع عن كل ما سوى الله » . .

أما الورع في الأفعال ، فإنه يتضمن التحري فيما يتعلق بالمأكل ، والمشرب ، والملبس ، حتى يكون كل ذلك من حلال طيب .
وبقد كان أسلاماً رضوان الله عليهم يتحرون في ذلك ما استطاعوا ، وذلك أن النور في القلب ، والصفاء في العبادة ، والتيسير فيما يأتي الإنسان وفيما يدع ، كل ذلك له علاقة قوية بطيب المطعم ، والمشرب ، والملبس .
ولجو الإسلامى كله بحث على ذلك ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول ﷺ متناسقاً مع القرآن الكريم ، ما يلي :

عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طيباً ﴾

فقام « سعد بن أبي وقاص » ، فقال يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة .

فقال يا سعد أظن مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف النقرة الحرام في جوفه . ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأما عبد ست لحمه من اسحت والربا ، فإلار أولى به .

وعن أبي « هريرة » رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ

« يَا نَاسَ إِنْ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَهُ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .
وَقَالَ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، يَارِبُ ، يَارِبُ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغَدَى بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يَسْتَجِيبُ لَذَلِكَ ؟ .
وَتَرَوَى لَأَمْتُنَا فِي هَذَا الْجَانِبِ قَصَصُهَا مِنْهَا مَا يَلِي .
يَقُولُ « أَبُو حَلِيٍّ الدِّقَاقُ » :

كَانَ « لِحَارِثُ الْحَاسِبِيِّ » إِذَا مَدَّ يَدَهُ إِلَى طَعَامٍ فِيهِ شَيْءٌ ، صَرَبَ عَلَى رَأْسِ إِصْبَعِهِ عَرَقٌ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ حَلَالٍ .
وَقَالَ : « إِنْ « بَشْرًا الْخَفَافُ » دَعَى إِلَى دَعْوَةٍ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِيهِ طَعَامٌ ، فَجَعَلَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَمَتَّدْ ، فَعَمِلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ :

إِنْ يَدُهُ لَا تَتَمَدَّدُ إِلَى طَعَامٍ فِيهِ شَيْءٌ ، مَا كَانَ أَغْنَى صَاحِبُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ أَنْ يَدْعُو هَذَا الشَّيْخَ ١٩ .

كَلِمَاتُ لَأَمْتُنَا فِي الْوَرَعِ .

يَقُولُ « الْقَشِيرِيُّ » :

« أَمَّا الْوَرَعُ فَإِنَّهُ : تَرْكُ الشَّهَوَاتِ » .

وَيَقُولُ « إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ » .

« الورع ترك كل شهوة ، وترك مالا يعينك » .

وقال « أبو سليمان الداراني » :

« الورع : أول الزهد ، كما أن القناعة طرف من الرضا » .

ويقول « يحيى بن معاذ » :

« الورع على وجهين - ورع في الظاهر ، وهو ألا يتحرك إلا لله تعالى

وورع في الباطن ، وهو . ألا يدخل قلبك سوى الله تعالى » .

ودخل « الحسن البصري » مكة ، فرأى غلاماً من أولاد « علي بن

أبي طالب » رضى الله عنه ، قد أسد ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب

عليه « الحسن » وقال له :

ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال .

الطمع .

فتعجب « الحسن » منه .

الزهد :

يقول الإمام أبو نصر سراج الطوسي :

« والورع يقتضى الزهد »

ويقول . « والزهد مقام شريف . وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب

السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمقطعين إلى الله ،

والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه في الزهد ، لم

يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا

رأس كل خير وطاعة» (١٤) .

ومسألة الزهد من المسائل التي كثر الجدل في تحقيق مفهومها ، وكثر الجدل فيها قبولاً ورفضاً .

وجوهر المناقشات يتركز حول امتلاك المال ، والثراء العريض : أهو مقبول ؟
أهو مكروه ؟ ما هو موقف الدين من ذلك ؟
وإذا كان الثراء العريض لا يتفق مع الأجواء الدينية ، فكيف ملك بعض كبار الصالحين الثروات الكبيرة ؟

كيف ملك الأنبياء عليهم السلام ، الأموال والضياع ، مثل : « داود » ،
« سليمان » و « إبراهيم » و « أيوب » ونظائرهم ، و « يوسف » . عليه السلام ،
على خرائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعده ؟

حول هذه الأسئلة يلور جوهر الحديث في الزهد
وقد سبق أن كتبنا عدة مرات في هذا الموضوع في عدة من كتبنا ، ولا نريد
هنا أن نكرر ما سبق أن كتبناه ، وإنما نحب - بتوفيق الله أن نورد بعضاً من
كان مصولاً - من النصوص النفيسة في هذا الموضوع ، وهو نص قد وفق الله
سبحانه « أبا سعيد الخراساني » لكتابته في صورة دقيقة محكمة ، ونراه فيصلاً في هذا
الموضوع .

يقول « أبو سعيد » في كتاب « الصديق » :

« اعلم أن الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ،
رضي الله عنهم : آمناء الله تعالى ، في أرضه على سره ، وعلى أمره ، ونهيه ،

وعصمه ، وموضع ودبعته ، والصبحاء له في خلقه وبريته وهم الذي عقلوا عن الله تعالى ، أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، وإلام ندمهم ؟ فوافقوه في محبته ، ونزلوا في الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد لألباء ، القابليين عن الله ، والحافظين لوصيته ، وأصغوا إليه بآذن فهوهمم الواعية ، وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتحلفوا عن نديته ، فسمعوا الله - عز وجل - يقول :

﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَتَقُوا عَمَّ جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (١٥) .
ثم قال :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) .
وقال تعالى :

﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (١٧) .
وقال تعالى :

﴿ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (١٨) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما حولهم ، وملكهم ، إنما هو له ، غير أنهم في دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار .

وهكذا يروى عن « اس الخطاب » رضي الله عنه ، حين سمع .

(١٧) البقرة : ٢٨٤

(١٨) الأعراف : ٥٤

(١٥) الحديد : ٧٠

(١٦) يونس : ١٤

﴿ هل أتى على لإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ (١٩) .

قال : ياليتها تمت ا - يعنى « عمر » قبل قراءة :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج مبتليه ﴾ .

ومعنى قول « عمر رضى الله عنه : « ياليتها تمت » يعنى : لم يخلق حين سمع

الله تعالى يقول : ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾

وذلك من معرفة عمر - رضى الله عنه - بواجب حق الله ، وقدر أمره

ونبيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجة لله تعالى عليهم عند تقصيرهم

وماتوا عدهم به إذا ضيعوا .

ويروى عن « الحسن » رضى الله عنه - أنه قال :

« إن الله تعالى إنما أميط آدم عليه السلام ، إلى الدنيا عقوبة ، وجعلها

سجناً له حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .

فمن منك - من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق - شيئاً من

الدنيا ، فهو معتقد : أن الشيء لله جل وعز ، لا إله إلا هو ، من طريق حق ما

خوبه الله تعالى ، وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه ، لأن العمة بلاء ، حتى

يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى :

وكذلك البلوى والضراء ، هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق

الله تعالى فيه !

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله عز

وجل :

(١٩) أول السور .

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ (٢٠) .

وقال :

﴿وَلِيَبْلُوَكُمْ حَتَّىٰ يَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَسْلُو
أَنْخِبَارَكُمْ﴾ (٢١) .

فالأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحون من بعدهم ، الذين شعرهم الله :
بأن أبلاهم في الدنيا بالسعة ، وخطهم ، كانوا إلى الله جل وعز - ساكنين ،
لا إلى شيء ، وكانوا حراً لله - حل ذكره في الشيء الذي ملكهم ، ينفدونه
في حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين
على الله التأويل ، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا ، ولا مشغولين القلوب بما
ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن «سليمان بن داود» عليها السلام في ملكه ،
وما أباحه الله تعالى - من انكرامة ، حين يقول تعالى :

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنِ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٢) .

قال أهل التفسير : «لا حساب عليك في الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً
إكراماً من الله - عز وجل - له .

فذكر العلماء : أن «سليمان» عليه السلام «كان يطعم الأضياف
الحواري ، - وهو لباب البر ، ونخالص الدقيق النقي ، ويطعم عياله
الحشكار - وهو الدقيق الخش ، ويأكل هو الشعير»

(٢٠) الملك : ٢

(٢١) القتال : ٣١

(٢٢) ص : ٣٩ .

وكذلك روى العلماء : أن « إبراهيم الخليل » صلوات الله وسلامه عليه :

« كان لا يأكل إلا مع الصيف ، وربما لا يأتيه الصيف فيطوها ، وربما كان يمشي الفرسخ ، أو أقل ، أو أكثر ، تلقياً للضيف »
قال : « وكان « أيوب » النبي - ﷺ لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى إلا رجع إلى منزله ، مكفراً عنه »^(٢٢)

وروى العلماء . أن « يوسف » عليه السلام ، كان على خزانة الأرض ، فكان لا يشبع ، فقيل له في ذلك ، فقال :
« أخاف أن أشبع ، فأسى الجباع » .

ولقد روى : أن « سليمان » عليه السلام « بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قميص جديد ، مصق ببدنه ، فوجد اللذة فسكنت الريح ، ووصفته على الأرض » .

فقل ها . مالك ؟ قالت : إنما أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله .
ففكر في نفسه : من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح .
ولقد روى : « أن الريح كانت تصعه في اليوم مرات ، من هذا وأشباهه » فالقوم : كانوا خارجين عن ملكهم في ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعادته . غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده إن فقدوه ، ولا يصرحون بالشيء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجه .

قال الله - تعالى - للنبي ﷺ :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾^(٢٣) .

وهذا النبي - ﷺ : « بينا جبريل عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل ، إذا ملك قد نزل من السماء ، لم ينزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : حشيت أنه نزل في أمر ، فجاء إلى النبي ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : هذه مصابيح خرائن الأرض ، تسير معك ذهباً وقصة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا ننقصك مما لك عند الله شيئاً !

ثم يختر النبي ﷺ ذلك وقال :

« أجوع مرة ، وأشبع مرة » !

وعند ذلك من الله عز وجل بلوى - واختباراً ، ولم يره من الله تعالى اختياراً ، ولو كان من الله تعالى - اختياراً لقبوله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى في الترك للدنيا ، والإعراض عن زينتها ، وهجتها .

ولذلك أده الله تعالى - حين قال تعالى :

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ، زهرة الحياة الدنيا ، لعنتهم فيه ﴾ (٢٤) .

ويروى عنه ﷺ : أنه لبس حلة فيها علم ، فطرحها ، وقال : كادت تلهيني أعلامها - أو قال - ألهتني أعلامها ، خدوها واثتوني بأبجانية » وكذلك روى : « أنه صنع خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى من أمره الله تعالى بإنداره ، فلسه ، ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : إليه نظرة ، وإليكم نظرة » ! .

وكذلك روى . « أنه ﷺ ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه جديداً .

فقال : ردوا الشراك الأول » !

وكذلك كل قلب طاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وعرف قيام الله تعالى عليه يفرع من حجاب الكون إلى الدنيا ، والتحق بشيء منها .
ومثل هذا في الأخبار كثير ، والعامل العطر تكفيه الإشارة إليه بالشيء :
وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ - حين حشم على الصدقة . جاء « أبو بكر » بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي ﷺ : ما خلقت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولي عبد الله مزيد !
أفلا ترى « أنا بكر » - رضي الله عنه - إنما كان سكونه إلى الله تعالى ، لا إلى الشيء ، ولم يكن لشيء عنده قدر ، وكان ما عند الله عنده أسر ؟ !
فحين رأى موضع الحق ، لم يخلف منه شيئاً . وقال : خلقت الله ورسوله !
ثم جاء « عمر » رضي الله عنه بنصف ماله ، فقال النبي ﷺ -
ما خلقت لعيالك ؟

قال : نصف مالي ، والله عندي مزيد !
فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : والله عندي مزيد !
ثم « عثمان » - رضي الله عنه - يجهز جيش العسرة كله ، بجميع ما يحتاج إليه ، ويحضر « بئر رومة » !

أعلا ترى أن القوم كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟ !
ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو في أيديهم ، يعلمونه الله عز وجل !
وقد روى عن النبي ﷺ - أنه قال :
إننا معشر الأنبياء لا نورث ، وما خلفناه صدقة ؟

أفلا ترى أنهم في حياتهم لم يرضوا بالشئ عن الله عز وجل ؟
وكذلك لم يورثوه ، وحلفوه الله - عز وجل - كما كان في أيديهم الله تعالى ،
لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً !

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله ، وأنصف من نفسه . .
وهؤلاء : أئمة الهدى بعد رسول الله ﷺ « أبو بكر » رضي الله عنه
حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راعمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم
يتصنع ، وكان عليه كساء يحلله أى يخييط ما به من خلل وشق - وكان يدعى
ذا الخلالين !

وهذا : « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه . حين جاءته الدنيا راعمة من
حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفي ثوبه بصع عشرة رقعة ، بعضها من
أدم - وقد فتحت عليه كور (كسرى) و (قيصر) !
وهذا : « عثمان » - رضي الله عنه - كأنه واحد من عبيده في لباس
والزى !

ولقد روى عنه : أنه رأى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حرمة من
حطب ، فقيل له في ذلك ، فقال :
أردت أن أنظر نفسي ، هل تأني !

أفلا ترى أنه كان غير عاقل عن نفسه ، وتعاهدوا ورياصتها ؟
وهذا : « علي بن أبي طالب » - رضي الله عنه - في الخلافة ، قد اشترى
إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قبصاً بخمسة دراهم ، فكان في كفه طول ،
فتقدم إلى خراز أى خياط فأخذ الشفرة فقصع الكم مع أطراف أصابعه ،
وهو يفرق الدنيا بمئة وبسرة !

وهذا . « الزبير » رضى الله عنه يحلف - حين مات - من الدين مائتى ألف ، أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء وابدل !
وهذا : « طلحة بن عبيد الله » رضى الله عنه - يعطى حل أهله لمن سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله - عز وجل - حين أمرهم فقال :

﴿ أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾^(٢٥) .

ولا يستحي عبد من عبيد الله من أهل زمانه هذا ، عندما ملك من الشبهات التي علم الله تعالى كيف هي ؟ ومن أين هي ؟ وكيف قدرها في قلبه ؟ وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله عز وجل ؟ ومالا يحصى من عيبه في نفسه في ذلك واشغاله بذلك ؟^(٢٦) .

حتى إن أحدهم ليزعم أنه يملك كما ملك من مصى ، ويمنع سهم في اتباع هواه ، مع إقامته على خلاف سنة القوم .
بل الاعتراف لله تعالى بالتقصير من العبد العاقل : أقرب إلى السجادة ، وسؤاله الله عز وجل أن يبلعه ما بلغ القوم ، وبالله التوفيق .

التوكل :

الإسلام أن يسلم لله قلبك . إنه التوحيد .

وهو ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

(٢٥) الحديد : ٢

(٢٦) كتاب الصلوة ٣٥-٤٥ .

، وهو : إسلام الوجه لله .

وذلك يقتضى التوكل على الله ، كجزء لا يتجزأ عن الإسلام .
ويتلون التوكل بحسب درجاته ، ويأخذ اسماً تبعاً لدرجته ، فيكون :
« توكلًا ، ويكون « تسليماً » ، ويكون « تفويضاً » .

والتوكل بداية هذا المقام الروحي ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، إن
كان للثقة في الله نهاية .

ومع ذلك فإن كلمة « التوكل » تطلق على كل درجاته ، وتستعمل في كل
أنواعه ، وعلى هذا الوضع يأمر سبحانه وتعالى به ، جاعلاً منه صفة لا تتمك
عن الإيمان قاتلاً :

﴿ وعلى الله فتوكلوا ، إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ويأمر سبحانه به أمراً مطلقاً كل مؤمن فيقول :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

وإذا توكل الإنسان على الله سبحانه فإن ثمرة ذلك أمران .

الأمر الأول هو حب الله له ، يقول سبحانه :

﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

والأمر الثاني هو كفاية الله له ، يقول سبحانه :

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾

وهناك ثمار ، هي تفصيل لهدى الأمرين ، أو هي نتائج لها : نتحدث عنها

إن شاء الله تعالى .

ومع أن أمر التوكل في الجوه القرآنى ، وفي حو السنة ، واضح كل

الوضوح ، فإن الناس جعلت من التوكل مشكلة : يتجادلون فيها ويختلفون ،

وتتجدد المشكلة كلما جاء ذكر للتوكل ، ومن أجل ذلك يحب توفيق الله - مع
أن الأمر بين واضح - أن يلتقي ببعض الأصواء في هذا المجال
لقد سئل : يحيى بن معاذ - وهو من أئمة الصوفية - : متى يكون الرجل
متوكلاً ؟

فقال : إذا رضى بالله تعالى وكيلاً . .
ويتحدث لقرآن الكريم عن بعض الظروف التي ظهر فيها أن المؤمنين
الصادقين هم الذين يتحدون الله وكيلاً ، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين في
غزوة أحد :

﴿ الدين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم ، فزادهم
إيماناً ، وقالوا حسنا الله ، ونعم الوكيل ﴾ .

ماذا كانت النتيجة ؟

إنها ما عبر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ فانصبوا نعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ،
والله ذو فضل عظيم ﴾ .

من هم هؤلاء ؟ إنهم

﴿ الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ﴾ .

ما هي قصتهم ؟

إن مشركي مكة لما أصابوا من المسلمين يوم أحد ، أخذوا في العودة إلى
مكة ، فلما استمروا في سيرهم ندموا : لم لم يتمسوا على أهل المدينة ويجعلوها
الميصلة ؟ وكان من كلامهم :

لا محمداً قلتم ، ولا الكواعب أردقتم ، بشما صعنم ، ارجعوا . وأرادوا

العودة إلى المدينة .

ولكن «أبو سفيان» لم يمس يوم بدر ، ولم ينس أن الفتة القليلة يوم بدر علبت ثلاثة أمثالها ، مع وفرة العدة في الكثرة ، فأحب أولاً أن يعجم عود المسلمين ، وكان من المصادفات ، أن مرّ به ركب من «عبد القيس» ، فقال : أين تريدون ؟ .. قالوا : نريد المدينة ..

قال : ولم .. قالوا يريد الميرة .

قال : ههل أنتم سلخون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، ونحمل لكم في مقابل ذلك زيباً مكاط ، إذا وحيتمونا ؟ قالوا : نعم !
قال : إذا وحيتم محمداً فأخبروه أنا قد حملنا أسير إليه وإلى أصحابه لتستأصل بقيتهم

ومر الركب برسول الله ﷺ وهو يحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال «أبو سفيان» وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ ، وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم . فاحشواهم فرادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم﴾

قالوا ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من حديد . من كان مجروحاً صمد حرجه ، ومن كان قد كل سيفه أحلّه ، ومن كان أمره متفرقاً في نفسه ، أو ماله أصبح أمره جميعاً . واستعدوا لحوض المعركة ، بكل ما يملكون من وسائل .. وكان «أبو سفيان» ينتظر نتيجة الرسالة ، وما تحلّته من صدى .. ورجع واحد من وفد «عبد القيس» يقول «لأبي سفيان» :

« لقد رأيتهم كالأسد المتورة ، عازمة على الأخذ بالثأر » .
ولما سمع « أبو سفيان » ذلك أخذ في العودة إلى مكة ، طلباً للسلامة . .
وانتوكل - إذن - والمتركلون يتخذون الأسباب ، ويستعدون كأكمس
ما يكون الاستعداد ، وأدق ما يكون الاستعداد . .

وصورة أخرى للتوكل :

يقول الله تعالى على لسان سيدنا « هود » :

﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن
ربي على صراط مستقيم ﴾

أخذ سيدنا « هود » عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحى إليه ، الحق
الذي دعا إليه كل نبي ورسول ، والذي يتلخص فيما قال عليه السلام .

﴿ يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ﴾ .

وابلغوا في ذلك بالاستغفار والتوبة ، فإذا استغفرتم وتبتم إلى الله ، فإن
عنايته سبحانه تحيط بكم ، ورعايته تكلؤكم .

﴿ وبأقوام استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم
مداراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ .

ولكن قومه أعرضوا عنه ، ولم تفدهم الأمثلة بالذين أعرضوا عن الله ،
فنكل بهم ، وقالوا :

﴿ يا هود ما جئنا ببيئة ، وما نحن بتاركى آهتنا عن قولك ، وما نحن لك
بمؤمنين ﴾ .

وأخذ الصراع بين هود وقومه يشتد ، وبعنف ، حتى إذا استصفى هود
جميع عناصر الخير منهم ، واستخلص منتهى ما يمكن استخلاصه من أشخاص

آمروا به ، ولم يبق إلا من لا حير فيه : جاءهم عذاب الله ، دون أن يصيب
هوداً والذين آمنوا معه ، يقول تعالى :
﴿ ولما جاء أمرنا بحين هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وبجبتناهم من
عذاب غليظ ﴾ . .

أما الذين لم يؤمنوا به ، واستكبروا ، وغرهم الباطل ، فإن الله سبحانه
وتعالى أهلكهم جميعاً ، بريح صرصر عتية . سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية
أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . .
ونحب - بتوفيق الله - أن نبه أولاً إلى أن الله سبحانه بين في هذه الفصّة -
كما يروى « القشاني » - وجوب التوكل على الله ، وكونه حصصاً حصيناً ، وأن
ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن يرب - يدبر - أمر المربوب ، ويحفظه فلا حاجة
له إلى كلاءة غيره ، وحفظه .

وننه ثانياً : إلى أن التوكل ليس ترك الأسباب ، فقد أخذ « هود » ياضل
ويكافح ، ويدعو إلى الله سبحانه بكل وسيلة شريفة يستطيعها ، يقول الإمام
« الغزالي » :

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بأيدي ، وترك التدبير بالقلب ،
والسقوط على الأرض ، كالخرقة المنقاة ، وكاللحم على الوضغ ، وهذا ظن
الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع

إن المعنى الحقيقي للتوكل : هو أن يعتقد الإنسان اعتقاداً جازماً أن الأسباب
الظاهرة ، لا تلمى إرادة الله ، وأن إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب في
أسسها وبواعثها ، وهي مشرفة على الأسباب في غاياتها ، ونهاياتها ، وعلى

الإنسان أن يعمل ، كما أمر الشرع ، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المهاددين المكافحين ، الأحذيين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضى الله عنه حين بويع بالخلافة أصبح داهباً إلى السوق ، يتجر كمادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين ! كيف تفعل ذلك ، وقد أفتت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم :

« لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لا سواهم أضيع » .

حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . .

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يعملون ، ويكسبون ، وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين .

وبعد : فإن الإمام « انقشیری » - من أئمة الصوفية يقول .

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالطاهر لا تنال التوكل بالقلب بعد ما نحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فتقديره ، وإن انفق شيء فتيسيره .

التقدير من قبل الله تعالى :

إذا آمن الإنسان بذلك - ولا بد أن يؤمن به - فهو متوكل .

والتوكل يتخذ الأسباب ، اقتداء برسول الله ﷺ .

والآن نسير مع السيرة النبوية لشريفه بعد عزوة أحد ، سصل إلى عزوة

الأحزاب ، ولنصل إلى صورة التوكل الذي يتلون بلون التسليم .

إن من التوكل الذي يتلون بلون التسليم ، ما يحدثنا به القرآن الكريم في قوله

تعالى :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ .

لقد زادتهم رؤية الأحزاب الجيوش الجارية التي أتت لتهدم المدينة ، وتقتل من فيها - إيماناً وتسليماً ..

ماذا فعلوا ؟

لقد سهروا ليلاً ، وأقاموا سهاراً من وراء الخندق ، يرهون حركات العدو ، ويستعدون لكل شأن من شئونه

لقد لسوا دروعهم ، وتسليحوا بسيوفهم ، وأقواسهم ، وسهامهم
لقد أحكموا كل أمر من أمور الحرب ، بحسب طاقتهم ، ولكن الأمر فيما
يسلمون به لله كله : ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾

﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ . إيماناً قليلاً وتسليماً قليلاً .
وبن من الملاحظات التي لا نغنى على قارئ القرآن أن آية الأحزاب هذه
سبقها مباشرة قوله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾

ولقد تابع المؤمنون الرسول ﷺ في توكله ، واتبعوه مسلمين في استعداده
وتأهبه ، لقد اتخذوه قدوة

ويقول الإمام سهل بن عبد الله : من أئمة التصوف هذه الكلمات
الحميلة حقاً الصادقة حقاً :

التوكل حان النبي ﷺ ، والكسب سته فمن بقى على حاله فلا يترك
سته .

ويقول :

من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ،

أما كيف عرف « سهل » نفسه التوكل ؟ فإنه قال .

التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

وهي كلمة نفيسة . . الاسترسال مع الله على ما يريد ، في كل ما أراد سبحانه :

في الجهاد في الصرب في الأرض ، طلباً لرزق ، في التزود من العلم ، في حسن الخلق .

إنه الاسترسال مع الله على ما يريد ، وهذا يقتضي أن يسكن الإنسان إلى النتائج بعد أن يكون قد اتخذ الأسباب ، بقدر طاقته ، ويقتضي أمراً آخر هو : الاعتماد عن كل مالا يريد سبحانه .

وبعد : فإن هذا التعريف لسهل رضى الله عنه يتناسق مع تعريف الإمام « حمدون القصار » من كبار الصوفية حيث سئل عن التوكل فقال : التوكل : هو الاعتصام بالله تعالى .

إنه الاعتصام بالله تعالى في أنواع أوامره ، وهو الاعتصام بالله تعالى في احتساب بواحيه ، وهو الاعتصام بالله تعالى في الحركة ، وهو الاعتصام بالله في النتائج ، أي السكون إليه في كل ذلك ، السكون المصاحب للنضال المتواصل مع السكينة فيما يتعلق بالنتائج .

وقصة ثالثة يقصها القرآن الكريم . تبين صورة للتوكل الذي يتلون بلون . التفويض .

قصة رجل مؤمن صادق الإيمان وقف ناصحاً في وجه الطغيان والجبروت ، يدعو إلى الله ، ويبشر بالتعاليم الصادقة ، ويبذر ، ويهتد بعقاب ، في أسلوب قوى ، لا يخشى فيه لومة لائم .

تلك قصة « مؤمن آل فرعون » الذي بعد أن نصح وبشر وأنذر ، قال : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ، وأعرض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ . وكانت النتيجة ما قصه الله تعالى بقوله :

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .
وبحسن أن نذكر القصة بنامها من كتاب الله سبحانه ، كما وردت في سورة غافر ، يقول الله تعالى :

﴿ وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدىكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يجرى إلا مثله . ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يردفون فيها بغير حساب .

ويا قوم ما أدعوكم إلى النجاة ، وتدعونى إلى النار .
تدعونى لأكفر بالله ، وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار

لا جرم أنما تدعونى إليه ليس له دعوة في الدنيا ، ولا في الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار .

فستذكرون ما أقول لكم وأعرض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .
فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾
ومن كل ما تقدم نتهى كما بدأنا ، بأن التوكل جزم لا يتجزأ من الإيمان ،

والصورة المثلى فيه ، هي صورة رسول الله ﷺ ، الذى كان إمام المتوكلين ، وكان إمام المناصلين ، ومن بعده صورة « أبى بكر » رضى الله عنه ، والصحابة الأجلاء الذين كانوا متوكلين ، وكانوا مناصلين فى الحرب ، وفى التجارة ، وفى الزراعة .

وبعد ، فيقول الله تعالى :
﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

الحجة :

يقول الله تعالى فى حديث قدسى :
« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عدى بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عدى يتقرب إلى المتوكل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . ولن سألنى لأعطينه ، ولن استعاذ بى لأعيذنه » .

وفى هذا الحديث الشريف بيد الله سبحانه بالتوجيه فى قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأولياؤه .

وأولياؤه هم :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى .
ونتيجة هذه المداوة ما يقوله تعالى :
آذنته بالحرب .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه .

وأول خطوة في هذا الطريق :

أداء ما افترضته عليه .

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول - شرط القرب منه

سبحانه - وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب .

بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله : لقد ترك قوم العمل وقالوا :

نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا - كما يقول رسول الله ﷺ - لو أحسنوا

الظن لأحسنوا العمل .

لا بد من أداء الفرائض ، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من

سبيل

ومع أداء الفرائض - في جو القرب - الإكثار من التواضع : فإذا أكثر من

التواضع ، أحبه الله تعالى :

ويترتب على حب الله تعالى لعبد هذا الخير الكثير ، أبدى ذكره الله سبحانه

وتعالى في الحديث القدسي

ويربط أسلافنا رضوان الله عليهم ربطاً محكماً بين محبة الله تعالى ، واتساع

رسول الله ﷺ مناسقين في ذلك مع توحيه الله سبحانه وتعالى .

﴿ قل : إن كنتم تحبون الله ، فاتبعوني يحببكم الله ﴾ .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى هي العمل ، ونتيجة محبة الله تعالى هي العمل

يقول الإمام « أبو سعيد الخراز » :

« وبلغنا عن « الحسن البصري » رضى الله عنه : أن ناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً ، فجعل الله تعالى لمحبة علماً وأنزل عز وحل

﴿ قل إنا كنتم نحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (٢٧)

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ ، في هديه ، وزهده ، وأخلاقه ، والتأسي به في الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ ، علماً ودليلاً ، وحجة على أمته ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك ، وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره ، قبل أمر نفسك « اهـ ويقول :

« علامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتجارى (٢٨) مع طرقاته في كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والطرب من كل مالا يعينه على مذهبه (٢٩) » .

أما عن صلته بالإيمان فإن الإمام « العراقي » يقول : « وقد جعل رسول الله ﷺ - المحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال « أبو رزين العقيلي » يا رسول الله ! ما لإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » . وفي حديث آخر .

(٢٧) آل عمران ٣١

(٢٨) التجارى : المسيرة : أى المتابعة

(٢٩) مذهبه . قصده وطريقه

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وفي حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله ، وماله ، والناس أجمعين »

وفي رواية : « ومن نفسه » :

كيف وقد قال الله تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترمتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتركبوا ، حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الماجسين ﴾^(٣٠) .

وإما جرى ذلك في معرض التهديد والإيثار^(٣١) .

ومن أحمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله « يحيى بن معاذ » :

« إلهي إني مقيم بشائك ، مشغول بشائك ، صغيراً أخذتني إليك ، ومرتضى بعرفتك ، وأمكتني من بطفك ، وتفتني في الأحوال ، وقلنتني في الأعمال . سراً وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورصاً ، وحياً . تسفيني من حياصك ، وتهملني في رياضك ملازماً لأمرك ، ومشغولاً بقولك ، ولما طر شاربي ، ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عندك كبيراً ؟ وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلي ما بقيت حولك دننة ، وبالضراعة إليك هممة ، لأنني محب ، وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف . . . !

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه :

(٣٠) التوبة ٢٤

(٣١) النقد . ٩٣ ٩٤

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ ، لا تبدل لكلمات الله ، ذلك هو الموز العظيم ﴿

الرضا :

وإذا كانت المحبة تبعها الرضا ، وذلك أن المحب راض دائماً عن أعمال محبوبه وللرضا في الإيمان ركائز قوية ، وذلك أن المؤمن من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى حكيم وتصرفاته سبحانه تجري على مقتضى الحكمة . ويعتقد المؤمن أنه سبحانه رحيم . وتصرفاته سبحانه تجري على مقتضى رحمته الحكيمة . وحكمته الرحيمة .

فإذا ما وصل المؤمن مع ذلك إلى محبة الله تعالى فقد أصبح راضياً الرضا كله . ودخل في نطاق : ﴿رضى الله عنهم . ورضوا عنه﴾ .

ولكن أمر الرضا يتنس على بعض الناس فيما يتعلق بالسلبية والإيجابية . هل الرضا يتناق مع العمل ؟ هل الرضا يقتضى ألا يحاول الإنسان الخروج من الضيق إلى السعة ؟ ومن الدل إلى العر ؟ ومن الهزيمة إلى النصر ؟ ومن العسر إلى اليسر ؟ ومن الحسن إلى الأحسن ؟ ومن الشريف إلى الأشرف ؟ هل الرضا أن تسكن مستسلماً ؟

كلا ! ! !

وإذا اتجه أحد إلى ذلك فإنه يكون تليساً إبليسياً - على حد تعبيرات ابن الجوزي »

إن القرآن الكريم يذكر الرضا في مناسبات . منها :

﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين ؛ إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .
لقد رضى الله عنهم ، وهم يبايعون على الجهاد ، وعلى الموت في سبيل الله !

إن البيعة كانت على القتال ، لتحقيق العزة لله ولرسوله !
إنها كانت بيعة على الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى :
يقول الإمام « الألوسى » :

« وأصل هذه البيعة - وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها -
(لقد رضى) إلح .. أن النبي ﷺ لما نزل الحديدية بعث « حراشاً »
- بكسر الخاء المعجمة ، وفتح الراء المهملة ، وألف بعدها شين معجمة
« ابن أمية الخزاعي ، رسولاً إلى أهل مكة ، وحمله على حمل له ، يقال له
« الثعلب » ، يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً ، فلما أتاهاهم ، وكلمهم
عقروا حمله ، وأرادوا قتله ، فمعه « الأحابيش » فدخلوا سبيله حتى أتى
الرسول ﷺ فدعا « عمر » رضى الله تعالى عنه لبيعه فقال : يا رسول الله إن
القوم قد عرفوا عداوتي لهم ، وغلظي عليهم ، وإني لا آمن وليس بمكة أحد من
« بنى عدى » يغضب لى بن أوديت فأرسل « عثمان بن عفان » ، « بن عثيرة
بها ، وهم يحبونه ، إنه يبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ « عثمان » فأرسله
إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم تأت لقتال ، وإنما جئنا عاراً ، وادعهم إلى
الإسلام ، وأمره عليه الصلاة والسلام أن يأتى رجلاً بمكة مؤمنين ، ونساء
مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى يظهر دينه بمكة ، فذهب

« عثمان » رضى الله تعالى عنه إلى قريش ، وكان قد لقيه « أبان بن سعيد بن العاص » ، فترل عر دابته ، وحمله عليها وأجاره . فأتى قريشاً فأخبرهم فقالوا له : إن شئت فطف بالبيت . وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه . فقال رضى الله تعالى عنه :

ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، فاحتبسوه ، فلع رسول الله ﷺ والمسلمين أن « عثمان » قد قتل ، فقال عليه لصلاة والسلام . « لا يرح حتى نأخذ القوم » ، ونادى مناديه عليه لصلاة والسلام ألا إن روح القدس قد نزل على رسول ، ﷺ - فأمره بالبيعة ، فأخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وبايعوه . قال « حابر » كما في صحيح مسلم وغيره - . بايعناه ﷺ - على ألا نهر ، ولم نبايعه على الموت ! .

وأخرج « البخارى » عن « سلمة بن الأكوع » قال : بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت (٣٢) !

وأخرج « مسلم » عن « معقل بن يسار » أنه كان آخذاً بأعصان الشجرة عن وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس (٣٣) . ويقول تعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ

(٣٢) لا تمارض بين اثنين - كما يومئذ ظاهر لفظيها - فإن المايعة على الجهاد تضمن المبايعة على الموت .

(٣٣) روح المعاني ٢٦ / ١٠٩

كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم
الإيمان ، وأيدهم روح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين
فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم
المفلحون ﴿٣٤﴾ .

إن الدين رضى الله عنهم ورضوا عنه لا يوادون من حاد الله ورسوله ، وإنما
يعادونهم ويحاربونهم !

ورضا الله تعالى إنما هو في أن يقف الإنسان موقفاً صلياً في وجه كل من يحاد
الله ورسوله ، يقول تعالى للمؤمنين :
﴿ وليجدوا فيكم علفة ﴾ .

ويتحدث الله سبحانه عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في
الأرض فساداً ، فيقول :

﴿ إنما جراء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً أن
يقتلوا ، أو يصبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو يمسوا من
الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (٣٥) .
فالحرب دائرة على مر الزمن بين أنصار الله وأعدائه ، بين من يتصرون
للفضيلة . ومن يحاولون إشاعة الرذيلة ! بين عباد الرحمن ، وأتباع الشيطان !
وحزب الله الذي يدخل في إطار هؤلاء الدين .

﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

إنما هذه الطائفة التي يقول رسول الله ﷺ فيها .

(٣٤) المجادلة . ٢٢

(٣٥) المائدة : ٣٣

« ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من حالهم ، حتى تقوم الساعة » .

وهم طاهرون على الحق بكل ما في استطاعتهم من إمكانات ، طاهرين على الحق بالسيف ، طاهرين على الحق بالمنطق ! ورسول الله ﷺ وهو إمام المحبين وسيد الراصين ، كانت حياته كلها كماحا في سبيل الله تعالى : جهاداً بالسيف ، وجهاداً بالقول ، لقد كانت جهاداً قولاً ، وعملاً ، وكان ﷺ الأسوة للراصين .

ما معنى الرضا إذن ؟

إن معنى الرضا ، أن يبدل الإنسان جهده ليصل إلى ما يحبه الله ورسوله ، ولكنه من قبل الوصول إليه ، وفي أثناء محاولاته للوصول إليه مطمئن إلى النتيجة على أي وضع أحبها الله ، راض بها ، إن : « إليه المصير » .

وإن : ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ .

وإن : ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾ .

يجب أن يكون كل ذلك واقراً في ذهنه ، معصاً به شعوره ، مع إيمانه بأنه سبحانه حكيم ، رحمن ، رحيم ، إنه الرضا ! يقول صاحب الدع :

« والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكناً

تحت حكم الله عز وجل » ويقول :

« والرضا آخر المقدمات ، ثم يقتضي من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار ، وحفاق الأحوال ^(٣٦) .

(٣٦) التلح : ٨٠ - ٨١ .

حول مصادر التصوف الإسلامي

١

يحاول المستشرقون ، وغيرهم من الذين يكتبون في التصوف الإسلامي ، رد الحياة الروحية الصوفية في الإسلام إلى مصدر أحصى تحت ، « هندی » ، أو « يوناني » : إيج ، أو إلى عدة مصادر ، منها القرآن ، أو حياة الرسوب ، صلوات الله وسلامه عليه .

ويحاول بعضهم أن يظهر مظهر الاعتدل ، فيرى أن العامل الأول في شأه التصوف ، إنما كان القرآن وحياة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ومنها استمد التصوف بدوره الأول ، ثم كاس الثقافة لأجنبية - « هندية » ، أو « يونانية » أو « فارسية » ، أو « مسيحية » - هي التي أثرت فيه ، وجعلته يتطور ؛ وهي التي أمدته من الآراء ، كما زعموا أنه نبعث عن روح الإسلام وطبيعته وبرغم أن الأستاذ « لويس ماسيون » يقول في صراحة : « أما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بينا وبين استكناها مبالاة بعيدة » ، فإن المستشرقين ، ومن يبعح بهم يحاولون جاهدين أو يعزوا التصوف إلى مصدر معين ، أو إلى مصادر مختلفة ، يشترك فيها المصدر الإسلامي ، أو لا يشترك . ولتصرف إذن على رأي بعضهم « مذهب دغين في الإسلام مأخوذ . إما من رهبانية الشام ، وهو رأي « ميركس » ، وإما من « أفلاطونية اليونان » الحديدية . وإما من « رردشتية الفرس » ، وإما من « قيما الهنود » ، وهو رأي « جونس » .

ويأخذ المستشرقون بعضهم في مناقشة البعض ، وهدم بعضهم بعضاً ، بل إن الشخص الواحد منهم يغير رأيه ، فيختلف باختلاف فترات حياته ، فالمستشرق « ثولك » مثلاً يذهب في أول حياته إلى أن التصوف الإسلامي إنما هو مأخوذ عن أصل محوسى .

ثم يعدل عن ذلك إلى الطريق للمقابل ، ويرى أن « التصوف » وكل ما فيه من الأقوال المتطرفة بمكر الرجوع به إلى تعاليم الرسول ﷺ ، وسيرته . ويقول الأستاذ الدكتور « أبو العلا عفيفى » بحق ولما بدأت حركة طبع الكتب في مصر ، والهند ، وغيرهما في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة ، تغير مجرى البحث العلمى لا في التصوف وحده ، بل في جميع فروع الدراسات الإسلامية .

وتغير إذن رأى « ثولك » وتغيرت بذلك أدلته ، وأسايدته ، وكما اعتبر في فترة حياته الأولى أن أدلته وأسايدته فيما يتعلق بالمصدر المحوسى للتصوف الإسلامى حاسمة ، فقد اعتبر في فترة حياته الثانية أن أدلته وأسايدته في المصدر الإسلامى للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « ثولك » يمكن الاعتدال عنه بأنه وجد في فترة لم تكرر الكتب الصوفية ميسورة كل اليسر ، فإن ما حدث « لثولك » هو نفسه ما حدث للمستشرق « نيكولسون » ، إنه يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام ، عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجرى .

وأهم هذه العوامل وأبرزها في نظره ، هو « الأفلاطونية الحديثة » المتأخرة والتي كانت شائعة في مصر ، والشام ، إلى عهد « ذى النون المصرى » .

وه معروف الكرخي .

وإذا أردنا تصوير رأي « نيكلسون » بقسمة في هذه العترة ، فإننا نراه يقول : ولكنني على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل « هندي » ، أو « فارسي » ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر « اليوناني » ، والديانات الشرقية أو بعبارة أدق ، وليداً لاتحاد الفلسفة « الأفلاطونية الحديثة » ، والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي .

ثم يتحول « نيكلسون » عن هذا الرأي ، حينما يكتب مادة التصوف في دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : « وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الإسلامي حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التي استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات ، والشعوب التي تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية ، يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً ، دقيقاً ، بإرجاعها إلى أصل واحد . كالفيدا الهندية » ، أو « الفلسفة الأفلاطونية » ، أو بوضع فروض تعمس جانبا من الحقيقة لا الحقيقة كلها .

ويشرح الأستاذ « لويس ماسبيون » فكرة « نيكلسون » الأخيرة فيقول : « وقد بين « نيكلسون » : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دجيل في الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التي اختص بها متصوفة المسلمين : نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئها ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من بوازل .

ويتابع الأستاذ « ماسينيون » ، شرح فكرة « نيكلسون » ، فيقول : « على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التي أدخلت عليه ، ونمت في كنهه »
وفكرة « نيكلسون » هذه ، هي تقريباً نفس فكرة الأستاذ « ماسينيون »
« ماسينيون » يرى ، أن التصوف لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولاً إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التي استمد منها التصوف نشأته وحياته والمصدر الثاني ، هو الحديث ، ولغته وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية .

أما المصدر الأخير . فهو : الثقافة العلمية الأجنبية العامة التي وجدت في البيئة الإسلامية ، في عهدها الأولى .

٢

هذه الاختلافات الكثيرة ، التي استفاض فيها الكاتوب ، وكونوا فيها لفصول الطوال ، واستشهدوا فيها للجهد ، والتي لا تزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهي - ولا تريد أن تنتهي - إن دلت على شيء . وإنما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من أساسه وهذا الخطأ في وضع المشكلة مفهوم السبب والعللة .

لقد وقف الكاتوب من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية ، والثقافة الكسبية يتأق فيها التأثير ، والتطور ، والتقييد ، فالكاسب ، أو الشاعر ، أو الممكر على وجه العموم ، الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه ، إذن هو قضية التصوف المنفرد من الضلال

أثر للبيئة الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت له أصالته التي تسمو به عن أن يكون
صدى للوسط الذي يعيش فيه

ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادي .

وإذا أردنا أن نتحدث في تحديد ودقة ، فإننا نرى أن المشكلة التي نحن
بصددها تنفرع إلى أمرين :

١ - الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو النزعة إلى سلوك الطريق الصوفي

٢ - الشعور الصوفي .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفي ، فله مؤثراته الداخلية السخنة ،
وهي مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية ، أكثر من أن تتصل بعمل
خارجي ، لا بد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصي الفردي المعطى
موجوداً ، مهيباً ، ويكفي لأن يسلك عملياً هذا الطريق . كلمة ، أو فكرة ، أو
إشارة ، أو حادثة من الحوادث ، فيأخذ فعلاً في سيره نحو الله - تعالى - إلى
ذهاب إلى ربي .

هذا العزم المصمم ، الذي يتمثل في هذه الكلمة الكريمة - لا بد له من
الاستعداد المعطى ، الذي لا يفي عنه فلسفة « أفلاطونية » ، ولا « فيدنا
هندية » ، ولا « زرادشتية فارسية » .

وقد يكون التوجه إلى التصوف قارئاً « للأفلاطونية الحديثة » ،
أو لا يكون ، وقد يكون على علم بعقائد « الهند » ، أو لا يكون ، فالمختص
في « الأفلاطونية الحديثة » لا يفيد تخصصه هذا - لا ولا قلامة ظفر في أن
يكون صوفياً . وكذلك الأمر في المختص في عقائد « الهند » .

وقد قرأ الإمام « الغزالي » كتب الصوفية أنفسهم ، ويحدث بذلك فيقول :

« فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب »
 « لأبي طالب المكي » رحمه الله - وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات
 الماثورة عن « الجنيد » ، و « الشبلي » ، و « أبي يزيد السطامي » قدس الله
 أرواحهم - وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم
 العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع ،
 ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيًا ، ولم يكن الإمام « الغزالي » بهذه الكتب ،
 ولا بمطالعة لفلسفة « اليونان » ودراسة ها دراسة عميقة صوفيًا ، ولكنه تبين
 أن أخص خواصهم - عن حد تعيره - ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل
 بالدوق والحال ، وتبدل الصفات

وليس التصوف إذن ثقافة كسبية ، تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما
 هو دوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليها عن طريق الخلوة ، والرياسة
 والمجاهدة ، والاشتياق ، بتركية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب
 لذكر الله تعالى .

وهذا هو جوهر الشعور الصوفي .

أخص خصائص التصوف : شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل
 فيه ، إلى درجات يصيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا
 اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .

والذي لاسته تلك الحالة على حد تعبير الإمام « الغزالي » - لا ينبغي أن

يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما ست أذكره فظن حيراً ولا تسأل عن الخبر
 المشاهد الصوفية . ذن ، ليست ثقافة كسبية ، وإذن لا يتأقى التحدث عن

مصادرها الخارجية - أيًا كانت هذه المصادر .

ووضع المسألة مسألة مصادر التصوف إذن موضع البحث ، والنظر ،
والدراسة : إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به إلا من لا يسهم
التصوف ، ولم يسهم في تدوقه بقليل ولا بكثير .
والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها - إذن - هي أن الاتجاه نحو التصوف
والتزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .
أما الدوى الصوفي ، والشعور الصوفي ، والمعرفة الصوفية ، فإنها استمداد
من مصدر النور ، والهداية .

نشأة التصوف

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة ، شأ مع نشأة الإنسان . والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ؛ لأن نشأة الإنسان كانت قبل الكتابة والتسجيل . ولكنه من البدهى . أن الإنسان منذ نشأته ينطلق إلى معرفة الغيب ، وإن استشراف عالم ما وراء الطبيعة ، بل إلى الاتصال بذلك العالم عن طريق الوسيلة الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوصف تقرها الأديان على وجه العموم . ذلك أن الأديان تعترف بسبوة آدم ، وبأن الله قد احتباه ، إنها تعترف بصنائه بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها : والنبوة أعلى درجة من التصوف إنها تتضمنه ، وتزيد عليه إن النبوة تتضمن الولاية ، ولكنها أعلى درجة ومرة منها ، لأنها اصطفاء من الله :

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ .

والأديان - على وجه العموم - لا تنتهج نهج التطويرين أو الشوئين ، الذين يرون أن العقل الإنساني : درجات مختلفة ، وأن تطعمه إلى المعرفة الإشرافية ، إنما نشأ متأخرًا : أي عندما بضج وتهذب .

والحق : أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل درجات ، تابعت رقبًا ، وإنما كل الأدلة تثبت أن العقل - باعتباره عقلا - لا باعتباره معرفة مكتسبة : هو ، هو . في بني البشر ، بأديهم ، ومتحضرهم .

ولو أخذنا طفلاً من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ نشأته في أرقى الأوساط الأوربية محصراً ، لنشأ نشأة أوربية بحته . وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلاً من أرقى الأوساط الأوربية محصراً ووضعناه مع البدائيين منذ ميلاد لنشأ نشأة بدائية .

العقل الإنساني . هو ، هو ، منذ أن وجدت الإنسانية إلى الآن ، والذي اختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ، وهذه المعارف المكتسبة هي وحدها التي تتميز المتحضر عن البدائي ، والتي تميز رجل القرن العشرين بعد الميلاد ، عن الإنسان فيما قبل الميلاد .

ومما هو جدير بالذكر : أن التصوف - في وجوده وتحققه - : غير محتاج إلى معارف مكتسبة ، طبيعية ، أو كيمياوية ، أو فلكية ، أو غير ذلك : إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .

والعقيدة الصحيحة وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله ، ونمح فيه من روحه .

هذه النعمة الإلهية ، أو هذا السر الإلهي في الإنسان ، أو هذه الروح التي بين حنفيه ، أو هذا لقلب الذي مسحه الله بإياه إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد في طريق التزكية والتصفية ، واتخذ لوسائل التي تؤدي إلى الاتصال بللإ الأعلى ، فإنه ينتهي - بتوفيق الله - إلى ما يريد من هذا الاتصال ، وإلى ما يطمح إليه من ثمار الاتصال ، أعني : المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة . . إنها الأمل العذب الذي يراود الكثير من النفوس التي تريد أن تتتره عن المادة وأن تسمو على الحسن ، وأن تصبح ربانية . وهذا النمط من الناس موجود في كل زمان ومكان ، ولكنه من الطبيعي أنه

من الندرة بمكان ، « وجل جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يحسن إليه ، إلا الواحد بعد الواحد » ، على حد تعبير « ابن سينا » .
ومن المعقول : أن هذا النمط وجد مع وجود الإنسانية ، مادام الطموح ، وحب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب ، مادام كل ذلك فطرة في بعض الطبائع .

وجد التصوف إذن ، منذ أن وجد الإنسان .

وهما قبل الحضارة اليونانية ، كانت لمسائل - فيما يتعلق بالمعرفة - تسير سيراً طبيعياً ، فقد كان هناك ميدان للحس ، يحول فيه ، كيفما شاء ، وهناك ميدان للعقل ، يبحث فيه ، كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف في الحكمة الهندية مثلاً ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما رواء الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط في تلك الحضارات : أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملاً ، لا لبس فيه ولا غموض . كانت محدودة ، فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة ، فيما يتعلق بالموضوعات . وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرهم وظروفهم أن ينتهجوا سبيله . بل حدث في بعض الأحيان : أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين طبقة معينة ، هي الطبقة التي يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن أسلافها . وطبقة « البراهمة » عن الهنود طبقة محددة ، وما كان كل شخص يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولاتزال هذه الفكرة للآن - فكرة تحديد ميادين المعرفة ، وتحديد وسائلها موجودة في الهنود المحافظين على تراثهم القديم

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح ، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الخلود تزول - نوعاً ما - بين ميادين المعرفة وبدأت بالتالي ، تصطبغ الأمور ، فيما يتعلق بأدوات المعرفة

ومع ذلك فإن هذه الحضارة اليونانية القديمة بمسها في بعض صورها كانت تسير على نهج إحصاراب الصحيحة : هدية كانت ، أو مصرفية فهذا مثلاً ، « فيثاغورث » ومدرسته : كانوا يسرون في المعرفة على أسس صحيحة ، ولكن وجد نوحار « فيثاغورث » من انتهجوا النهج العقلي ، في معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط ، حتى كان « أرسطو » قد ذهب بهذا الخلط أقصى مداه ، واصطبغ الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم يعاني الكثير من آثار انحرافه إلى الآن .

إن إدخال العقل في مسائل ما وراء الطبيعة : انحراف يؤرخ بالعصر اليوناني ، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفياً أمره في العصر اليوناني ، وفيما تلاه من العصور على كثير من دوى البصائر النافذة ، الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأً وعصمة ، والذين تحذوها دثاراً وشعاراً ، والذين عملوا بها ، وتشربتوا أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة فيهم . فقادتهم إلى أن يكونوا رمانيين : لقد قادتهم إلى الأمل المنشود : شهود ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد ، فانصوبوا تحت لواء الآية الكريمة :

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم .﴾
إنهم أولياء الله ، إنهم « الصوفية » .

لمحة عامة عن التصوف

هذه اللوحة كتبها الحكميم الصوفي الفرنسي الشاؤون ريسيه جينو
Rene Guenon الذي أسلم رضى نفسه عند الواحد يحيى وقد كتبنا عنه

مما مضى ما يلي :

أما الذى كان إسلامه ثورة كبرى هرب صمائر الكثير من ذوى البصائر
الطاهرة ، فاعتقدوا به : وعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخصصة تعبد
الله على يقين فى معازل الكاثوليكية فى فرنسا ، وفى سويسرا . فهو العالم
الفيلسوف الحكميم ، الصوفى : « رينيه » الذى يدعى اسمه فى أوربا قاطبة وفى
أمريكا ، والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالاً وثيقاً بالدراسات
الفلسفية الدينية فى أوربا ، وفى أمريكا .

وكان مبع إسلامه بسيطاً منطقياً فى آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنصر مقدس ، لا بآتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
فلم يجد بعد دراسة عميقة سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذى لم يله
التحريف ولا التسويل . لأن الله تكمل بحفظه ، وحفظه حقيقه .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار نمحت لوائه ،
فغمزه الأمن النفساني فى رحاب الفرقان .

ومؤلفاته مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » بين فيه الانحراف
الهازل ، الذى تسير فيه أوربا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى العرب عن
سواء السيل .

أما كتابه : « الشرق والعرب » فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل

شرقى بفخر بشرقيته وقد رد فيه إلى اشرق احتباره ، مبيناً أصالته في الحضارة ، وسموه في التفكير ، وإسائته التي لا تقاس بها مادية العرب ، وفساده ، وامتصاصه للدماء وعدوانه الذي لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين ، وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهم يتفق مع الفضيلة ، ومع أسمى المادى الإنسانية .

وقد كنسا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعرف به ، ننشره فيما يلى :

«رينيه جينو» من الشخصيات التي أحدثت مكانها في التاريخ ، يضعه المسلمون بحوار الإمام «القرالى» ومثاله ، ويضعه غير المسلمين بحوار «أفلوطين» ، صاحب الأملاطونية الحديثة ، وأمثاله . وإذا كان الشخص ، في بيئنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذي يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان حسن حظ : «رينيه جينو» أنه قدر أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته . أم في أثناء حياته : فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المكرين الذين نخشى خطرهم ، وقد وضعت بذلك بحوار عباقرة المكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت في «رينيه جينو» خطراً يكبر كل خطر سابق ، وحرمت ، حتى الحديث عنه .

وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابي . الذي لا يقل في أهميته عن التقدير السلبى ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة «رينيه جينو» ، قالموا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص ، في سويسرا ، وفي «فرنسا» ، والمكونون لهذه الجمعيات احتلوا حدود «رينيه جينو» فاتحلوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ،

شعراً وديداً ، وبكوبون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتعلبة . واحات جميلة ، يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة . ومن التقدير الإيجابي أيضاً ، أن كتبه رغم تحريم الكيسه لقراءتها ، قد انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى اللغات الحية ، النهضة ، ماعدا العربية ، للأسف الشديد . ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : الهند الصينية ، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا « اندالاي لاما » ولم يكن يوحد في الغرب شعص متحصص في تاريخ الأدیان ، إلا وهو على عم آراء « رينه جيوا » كل هذا التقدير كان في حياته .

أما بعد مماته ، فقد راد هذا التقدير ، لقد كست عنه جميع صحف العالم ومنها بعض الصحف المصرية العربية ، كالمصور مثلاً ، الذي كتب عنه ، في استماسة والصحف لإفريقية أيضاً ، كمجلة « إيجيبت نوفل » التي أخذت تكتب عنه عدة أسابيع . ثم أخذت نكتب عنه كل عام في ذكرى وفاته .

وقد حصصت له مجلة : « فرسا آسيا » وهي مجلة محترمة ، عدداً صحفاً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحه بتقدير شاعر فرسا الأكبر « أندريه جيد » لـ (رينيه جيوا) وقوله ، في صراحة لالس فيها : « إن آراء (رينيه جيوا) لا تنقص

وخصصت مجلة : (ستودترا ديسيويل) ، وهي المجلة التي تعتبر في الغرب كله : لسان التصوف الصحيح ، عدداً صحفاً من أعدادها ، كتب فيه أيضاً ، كبار الكتاب الشرقيين والغربيين

ثم حصص له الكاتب الصحفي الشهير ، (بول سيران) كتاباً ضخماً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ، ووضعه ، كما وضعه الآخرون لدين كتبوا عنه ، في المكان اللائق به ، بجوار الإمام العرالي أو الحكيم أفلوطين .

نشأ (ربيه جيو) في فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف
الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته إلى التفكير بعميق
والأبحاث الدقيقة . وهاله حيناً فصح تفكيره ، ماعليه قومه من ضلال ، فأخذ
يبحث في جد عن الحقيقة ، ولكن أين هي ؟ أفي الشرق أم في الغرب ؟ وهل
هي في السماء أم في الأرض ؟

أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه (ربيه جيو) إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى
نفسه : الإمام « الخاسبي » والإمام « الغزالي » ، والإمام « محيي الدين
ابن عربي » وكما وجهه من قبلهم عشرات من المهكرين والدين أنوا أن يستقيموا
للتقليد الأعمى ، وتأتى فترة انشك ، والحيرة ، والألم الممض ، ثم يتأتى عون
الله ، وكان عون الله ، بالسنة لـ (ربيه جيو) . أن سهرته أشعة الإسلام
الحائدة ، وغمره ضياؤه الباهر فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ « عبد الواحد
يحيى » . وأصبح جدياً من جنوده ، يدافع عنه ، ويدعوه إليه . ومن أمثلة
ذلك : ما كتبه في كتابه . (رمزية الصليب) تفصيلاً للفرقة لقي تقول . إن
الإسلام انتشر بالسيف ، ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في العدد الخاص الذي
أصدرته مجلة « كاييه دي سود » ، في عددها الخاص بالإسلام والعرب ،
دفعاً عن الروحانية الإسلامية ، لقد أنكر اغريون روحانية الإسلام ، أو قتلوا
من شأها ، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأها ، ووضعوا التصوف
المسيحي في أسنى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الإسلامي
كتب الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، مسناً سمو التصوف الإسلامي وروعته ،
وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحي ، أي « الميستيسم » ، وانتهى بأن
هذا « الميستيسم » لا يمكنه أن يبلغ ولا من بعد ما بلغه التصوف الإسلامي من
سمو ، ومن جلال .

على أن الشيخ « عبد الواحد يحيى » لم يشد بالإسلام محسب ، وإنما أشد

في جميع كتبه ، وفي مواضع لا يأتى عليها المحصر ، بالشرق ، ثم يخصص كتاباً
 صحيحاً بعنوان : (الشرق والعرب) تريل قراءته من نفس كل شرق مركب
 النقص الذي غرسه الاستعمار في نفوس الشرقيين ، في هذه السنوات الأخيرة .
 لقد دأب الاستعمار على أن يغرس في نفوس الشرقيين أنهم أقل حضارة ،
 بل أقل بسنية من الغربيين . . . وأنى الشيخ « عبد الواحد » ، قلب الأوصاع
 رأساً على عقب ، وبين لشرقيين قيمتهم ، وأهم منع الور والهداية ، ومشرق
 الوحى والإهام .

إن كل شرق يفخر بشرقيته بمجرد قراءته لهذا الكتاب ، وهو ليس كتاباً
 يشيد بالشرق على الأسلوب الصحى ، أو على الطريقة الإشائية ، وإنما هو
 كتب علمى بأدق المعانى لكلمة علم ، وهذا وحده يكفى لأن يقيم الشرقيون
 مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد . اعترافاً منهم بالجميل ، والله الموفق

• • •

وفى ما كتبه الشيخ عبد الواحد ، وقد ترجمناه عن الفرنسية

بين الظاهر والباطن :

ربما كانت العقيدة الإسلامية ، من بين العقائد الموروثة ، هي العقيدة التي
 يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جرأين متكاملين هما « الظاهر » و « الباطن » أعنى
 « الشريعة » ، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع ، و « الحقيقة » ولا يصل
 إليها إلا المصطفون الأخيار ، وهذه التفرقة ليست تحكية ، وإنما تفرضها طبيعة
 الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد لمعرفة الحقيقة .
 وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة
 ومركزها والشريعة تنفص فضلاً عن الباحة الاعتقادية - النحية
 التشريعية والباحة الاجتماعية ، وهما حرواب لا يتحرران عن الدين الإسلامى .

إنها أولاً وقبل كل شيء قاعدة للسلوك . أما الحقيقة^(٣٧) فإما معرفة محضة ، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطى للشريعة معناها السامي العميق ، بل هي التي تبرر وجود الشريعة ، إنها في الحقيقة - وإن لم يشعر بذلك المؤمنون - المركز الأساسي مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن (الباطن) لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السيل الموصلة إليها ، أعنى : الطرق التي تفود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط انبعاث من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، نتهى - كلها - إلى المركز .

إنها « الطرق » وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية .

ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كنفوس بني آدم » .

ومها اختلفت فاهدف واحد . لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً مع رول الآتية ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عدا ، تزول فيها « صفات العبد » التي ليس إلا سحاً « الفناء » فلا تبقى إلا الصفات الربانية ، وقد تحققت « الذات » بها : « ابقاء » .

(٣٧) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقبولة بالشريعة غير محسولة ، فالشريعة جاءت بتكليف ملئق ، والحقيقة إتيان عن تصريح الحق ، فالشريعة أن يعبد ، والحقيقة أن يشهد ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قصى وقدر ونهى وأظهر . فممت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله بقول : توبه إنك بعد حفظ للشريعة ، وإياك ستعين إقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره .

« عن الرسالة القشيرية »

والطريقة والحقيقة مجتمعان يطلق عليهما : التصوف ، وهو ليس مذهباً خاصاً لأنه الحقيقة المطلقة ، وليست الطرق مدارس مختلفة . لأنها طرق ، أى : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .
 ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفي ، اللهم إلا إذا كان ذلك من جهلا محضاً ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفي : وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفى الحقيقى وبين ربه ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه : أنه متصوف : وهو عنوان يطلق على « أسالك » فى أى مرحلة كان . ولكن الصوفى بمعناه الحقيقى ، لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا .

أما أصل هذه الكلمة . صوفى (٣٨) ، فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووصفت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها فى الحقيقة تسمية « رمزية » وإذا أردنا تفسيرها ، ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإن لمن الروائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف « الحكيم الإلهى » ، سيكون الصوفى الحقيقى هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه (المصروف بالله) إذاً الله

(٣٨) هذه النسبة علبت على هذه الطائفة فيقال - رجل صوفى ولنجاعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف ولنجاعة المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث المعربة قياس ، ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كالتعب فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا ليس الصوف كما يقال تغمص إذا ليس القيص فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بليس الصوف ومن قال إسم مسروب إن صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فأنسية إلى الصفة لا نجىء على نحو الصوف ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة . وقول من قال إنه مشتق من الصب ، فكأنهم فى الصب الأول يقرؤهم ، من حيث المحاصرة من الله تعالى ، فالصحيح صحيح ، ولكن النعة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصب ، ثم إن هذه الطائفة أشهر من محتاج إلى تبيينهم إلى قياس لفظ ، واستحقاق اشتقاق

« عن الرسالة القشيرية »

لا يعرف إلا به . وذلك هي الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

من كل ماسبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامي ، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فأصق بالاسلام ، وإنما هي ، بالعكس تكون جزءاً جوهرياً من الدين^(٣٩) . إذ أن الدين بدونها يكون ناقصاً ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعني جهة المركز الأساسي ، لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التي تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبي : « يوناني » أو « هندي » أو « فارسي » : وهي معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً . وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية ، وبين ما يماثلها في البيئات الأخرى ، فتمسير هذا طبيعي لا يحتاج إلى فرض الاستعارة . وذلك أنه مادامت الحقيقة واحدة ، فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور . ويجب ألا نعطي عناية كبيرة - حينما نتحدث عن أصل التصوف - لتلك المناقشات ، التي لا تنتهي بين مؤرchi التصوف ، خاصة بتحديد الفترة الرسمية

(٣٩) قال الأستاذ « مسينيون » في دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية مادة (تصوف) : أما دراسة مصادر التصوف فإن الشقة بيننا وبين استكشافها مارالت بعدة ، وقد حار علماء الإسلاميت الأول في تبصير ذلك . الخلاف الكبير في العقيدة بين مذهب الوحدة الحادي ومذهب أهل السنة الصحيح ، فذهبوا إلى أن التصوف دجيل في الإسلام ، مأخوذ إما من رهبانية الشام ، وهو رأي (ماركس) وإمام (أفلاطونية اليونان) الحليمة ، وإمام « رادشيه الفرس » ، وإما من « عيد اليهود » ، وهو رأي (جومس) وقد بين « بيكوسون » أن إطلاق الحكم بأن التصوف دجيل في الإسلام غير مقبول ، فالحق أن ملاحظ عند ظهور الإسلام أن الأبطال التي اختص بها منصوبة للمسلمين نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئها ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من بوار . على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية حاصلة ، فما لا ينجو من فائدة أن نعرف عن المحسنات الأجنبية التي دخلت عليه ، وعت في كنهه

التي وجدت فيها لعظة صوفي .

إن الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجد تحت اسم آخر ، أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته^(٤٠) . وعلى كل حال فقبصل الحق في مسألة أصل التصوف هو ما يأتي :

إن السنة ترشد في صراحة لالسن فيها - إلى أن الشريعة والحقيقة ، كليهما ينبعان مباشرة من تعينات الرسول صلوات الله وسلامه عليه والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على (سلسلة) تصل دائماً إلى رسول ، وإذا كانت

(٤٠) اشتهر هذا الاسم قبل ثلاثين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين (بن حلدون)

ويقول بعض العلماء : إن هذا الاسم معروف في اللغة الإسلامية من قس دلت ، بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاملي ، عرفته العرب قبل ظهور الإسلام . قال « أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي » المتوفى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في كتاب « اللمع » في التصوف ، وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البعاديون فبحال ، لأنه في وقت « الحسن البصري » كان يعرف هذا الاسم ، وكان « الحسن » قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وروى عنهم ، وقد روى عنه أنه قال (رأيت صوفيًا في الطواف ، فأعطيته شيئاً فلم يأخذه) وقال معي أربعة دوايق فيكفيني ما معي)

وروى عن « سفيان الثوري » رحمه الله أنه قال : لولا « أبو هاشم الصوفي » ما عرفنا دقيق الرياء . وقد ذكر في الكتاب الذي جمع أخبار مكة ، عن محمد بن إسحاق بن يسار ، وعن غيره يذكر فيه حديثاً أن قبل الإسلام قد حلت مكة في وقت من الأوقات ، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يحيى من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت ، ويتصرف ، فإن صنع ذلك فإنه يذب على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم وكان يسب إلى أهل الفصل ، والصالح والله أعلم

ويعقب المرسوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق على ذلك فيقول :

« استعمال لفظ صوفي ومتصوف لم يشر في الإسلام ، إلا في القرن الثاني ، وما بعده سواء كان هذا التعبير عن هذا « بالصوفي » حدث في أثناء المائة الثانية ، كما هو رأي « ابن حلدون » المتوفى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٦ م) في مقدمته أم كان لفظاً جاملياً عن ما ذكره صاحب « اللمع » الذي يحاول أن يبرئ الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون

(عن دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية)

بعض الطرق فيما بعد . (استعارت) أو بتعبير أصح (تبنت) بعض التفاصيل في الطريق وإن كان التشابه به هنا أيضاً يمكن أن يعزى إلى التماثل في المعارف ، وعلى الخصوص فيما يتعلق (بعلم المقاطع ، والأوزان في مختلف فروعه) فإن أهمية ذلك لاتعدو أن تكون أهمية ثانوية ، لائتمس الجوهر من قرب أو من بعد والحق أن التصوف عرفى إسلامى كما أن القرآن الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة عرفى إسلامى . وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم لقرآن ويفسر ويتدبر تدبراً تفهم عنه يتابع (الحقائق) التى هى فى الواقع معناه لعميق . ولقد فسر القرآن أولاً لغوياً ، ومنطقياً ، وكلامياً . ولكن تفسيره صوفياً اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معاً فلا يوجد بينها تناقض أو اختلاف ما وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لاتقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها ؟

التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى المزعوم .

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الإسلامى خلافاً للفكرة لشائعة حالياً عند الغربيين لا يمت بأية صلة إلى ما يرمعون أنه تصوف مسيحى . أعنى ذلك النوع الذى يطلق عليه . « الميستيسيم » . أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنتها ما سبق من حديثنا وهى .

١ - يبدو واضحاً أن الميستيسيم شىء خاص بالمسيحية . وإنه لتشبيه قائم على ضلال ، ذلك الذى يستندون إليه فى ادعاء وجود ما يماثل الميستيسيم فى الأوساط التى لا تعتنق المسيحية

ولاشك فى أن هذا المهم الخطأ يتركز على شىء من التشبه الخارجى الذى يتمثل فى استعمال بعض التعبيرات ولكن هذا لا يسوغ قط دعوى

التشابه ، وذلك لأن المروق الجوهرية تفجأ النظر ولا تدع مجالاً الميسيسيم
نحصر بالمسيحية إذن .

٢ - ثم إنه جزء من الشريعة ، إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد
عن أن يكون المعرفة المحضة بينا التصوف على خلاف ذلك .

٣ - ثم إن المسيحي الذي اتخذ الميسيسيم سبيلاً في الحياة ينهج في سلوكه
منهجاً مسياً . إنه يقتصر على تلقى ما بأنه دون أن يكون له أثر شخصي ، إنه
لا طريقة له إذن يسلكها ، هادفاً من وراء سلوكها إلى بلوغ غاية معينة

ومن أجل هذا لم يكن في المسيحية طرق صوفية . ولذلك لا يتخذ المسيحي
(شيخاً) وليس عنده فكرة عن السلسلة أو الإسناد ، الذي بواسطته يصل إليه
التأثير الروحي ، الذي لا بد منه في التصوف .

٤ - والاختلاف في الهدف أيضاً واضح : فهدف التصوف المعرفة وهدف
الميسيسيم الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ما سبق هي أن التصوف
والميسيسيم مختلفان كل الاختلاف :

بل إن اللغة العربية لا تشتمل على أية كلمة تترجم ولو تقريباً كلمة
ميسيسيم : ذلك أن الكلمة التي تعبر عنها هذه الكلمة غريبة كل الغربة عن
السنة الإسلامية .

علوم التصوف

إن التصوف في جوهره معرفة في محيط ما وراء الطبيعة ، على أن التصوف
وإن كان « معرفة » عليا ، فإن بعض العلوم تنصل به اتصالاً وثيقاً ، بل بها
ليست إلا تطبيقاً لبعض جوابه ، وهذا مما يميزه أيضاً عن الميسيسيم . من
هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس « تنجيمياً » كما يعتقد الباحثون
الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعمق . وكذلك الأمر في الكيمياء

القديمة . إنها ليست استخرج الذهب الحقيقي ، وإنما كانت رمزاً لمعرفة لأصلها لها بالمادة ، وليس لها بالكيمياء الحديثة أى ارتباط ، أو تشابه . إن الباحثين الحديثين لا يعرفون عن المعنى الحقيقي لمدين العلمين شيئاً ، على أن هناك عدداً أخرى ، لا يعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها ، مع أنها كانت من الدقة بحيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

من شروط التصوف :

ولابد في التصوف من شرط جوهرى هو : التأثير الروحى ، أو تصير أدق « البركة » وهى لا تنأى إلا بوسطة « شيخ »^(١١) ، ومن هنا كانت السلسلة . وهل السلسلة إلا بركات ، تنتقل من شيخ إلى مرید ، يوشك أن يصبح شيخاً ، فيؤثر بدوره في مرید أو مریدين ؟

ونحن هذه الكلمة بملاحظة جوهرية ، تتعلق بطبيعة التصوف وهى : أن

(١١) يجب على المرید أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ ، لا يطلع أبداً هذا ، أبو مرید ، يقول من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . ومنعت الأستاذ « أب على الدقاق » يقول « الشجرة إذا بنت بنفسها من غير عارس ، فإنها تورق » لكن لا تنمر ، كذلك المرید إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته ، نفس فتنسا ، فهو عابد هواه لا يجد للاداء

« الرسالة القشيرية ص ١٩٩ »

ويشترط الإمام « لراى » في الشيخ أن يكون محصاً صادقاً ، قد اتبع الصراط المستقيم وأن يكون سالكا ، أما السالك ، فلأن الوصول تأية باعدية على ما قال عليه السلام « جدية من حذبات الحق ، توأرى عمل القفين » وأخرى بالسلوك والأول لا يصح أن يقتدى به ، لأنه مثل من وجد كترأ فصار عباً ، فإنه وإن كان ذا مال ، لكنه غير عالم بكيفية كسب المال ، فلا يتضع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب ، وأما الثاني فهو الذى يصبح لتربية المرید ، لأن من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ، ومنارها ، واطلع على متائفها ومعاطفها ، أمكنه إرشاد الغير إلى مواء السبيل ، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التصصيل

(شرح الإشارات ١١٢)

التصوف ليس عملاً علمياً ، ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يتعلم بواسطة الكتب^(١٢) على الطريقة المدرسية ، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحفز مقوّ للتأمل ، والإنسان لا يصير بمحرد قراءته ، متصوفاً ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلاً لفهمه ، ولأجل أن يسير الإنسان في طريق التصوف لابد له من :

(١٢) من كلام الإمام « العزالي » في المنهاج من الضلال

« ثم إن فرغت من هذه العلوم ، أقبلت جميعاً على طريق الصوفية ، وعدت أن طريقهم إنما تم يعلم وعمل » .

وكان حاصل عملهم قطعهم صفات النفس ، رانثرة من أخلاقها المدمرة وصعائب الحيلة ، حتى يتوصل بها إلى تحلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله

وكان العلم يسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم مثل « قوت القلوب » لأبي طالب المكي - رحمه الله - وكتب « الحارث اعلمى » ، والمعرفات « المأثورة عن « الحيد » ، « والشبل » و « آي يزيد البسطامي » قس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطمعت عن كنه مناصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم . بالتعليم والسامع

فظهر لي أن أحسن خواصهم ، عملاً يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالتدقيق والخاص ، وتدون الصادات

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة . وحد الشيع . وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشيعان ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حائه نحصل من استيلاء أشعره تنصاعد من المصده على الفكر ، وبين أن يكون سكران

بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران ، ومأمعه من علمه شيء

والصالح يعرف حد السكر ، وأركانته ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب لا حالة المرض يعرف حدا للصحة ، وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقد المصداق

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالاً للزهد . وعرف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقول : وأن ما يمكن تحصيله بطرق العلم فقد حصته ، ولم يبق إلا عملاً سبيل إليه بالسامع والتعلم ، بل بالتدقيق والسلوك (المنهاج من الضلال)

- ١ - استعداد فطري خاص^(٤٣) ، لا يبغي عنه اجتهاد أو كسب .
- ٢ - الانتساب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذ أن « البركة » التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسي الذي لا يصل الإنسان بدونها إلى أي درجة من درجات التصوف حتى ابتدائية منها .
- ٣ - ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذي باركه شيخه ، في الجهاد الأكبر : التأمل الروحي ، وفي اندك : أي استحضار الله في كل ما يأتي وما يدع ، وفي تركيز الدهن في المثل الأعلى ، فيصل موفقا من درجة إلى درجة ، حتى يصل إلى أعلى لدرجات ، وهي حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت ، فيصبح ربانيا ذلك هو الصوفي الحقيقي .

مقامات الوصول :

وحينا يقطع الإنسان الطريق ، يصل إلى الولاية والولي إما أن يمكث ولياً فقط ، فتكون معرفته خاصة ، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين ، فيكون نبياً ، أو يكون رسولا والرسول نبى ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة لبي فإياها محددة الأهداف محدودة المكان . إن الرسول مظهر لصفة الإلهية « الرحمن » في جميع أنحاء العالمين . إنه « رحمة للعالمين » فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة . ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي « القرب » من الله بينما لبي متحة ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ، ولكن

(٤٣) يرى الإمام « الرازي » أنه لابد فتكون الرياضة نافعة إن تكون نفس المرید (مستعدة لهذا العمل) ملائمة له . إذ لو لم يكن كذلك ، ما مجتهد فيه الرياضة أصلا لأن تأثير الرياضة ليس إلا في إدارة العواطف ، وروح الحسب والأستار وروا العائق ، لا يمكن أن حصول المطلوب ، بل لابد معه من القابل المستعد ، فإذا لم تكن النفس مستعدة لم تعد الرياضة سعادة أصلا ، لكنها تزيد السلامة (شرح الإشارات ١١٢)

ذلك خطأ محض ، فإن النبوة تتضمن الولاية فهي متضمنة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية ، وعلى ذلك فإن حالة الولي « باقصة » بالنسبة لحالة النبي ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها في العموم . وهذا العموم يصل إلى درجات ازدهاره في الرسالة : إدهى عالمية ، والرسول لا غيره هو حقيقة « الإنسان العاقل » .

والرسول - كما للنبي - اتجاهان :

١ - اتجاه داخلي : إنه الاتجاه نحو الحق

٢ - اتجاه خارجي : إنه الاتجاه نحو الحق .

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحددة ، ودرجة النبي المحددة ، أسمى من درجة الولي الخاصة ، ومقام الجميع لقرب

افضل استاذي التصوف والشرعة

- التصوف والدين
- التصوف والتحلل من الشرعة
- وحدة الوجود .
- السجود للأوامر الإلهية كمظهر للتدين السلم والتصوف الصحيح .

التصوف والدين الإسلامى

ألتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وعاقبته دائماً روحية : رضا الملائ الأعلى ، حب الله ، الاتصال به ، الفناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه ، تلك هى الأعراض التى يسعى إليها ، أو إلى بعضها الصوفى لذلك لا يتأتى لشخص ليس بمؤمن أن يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال . وهى إذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات ، حتى يصل الإنسان إلى العايات التى وصحتها سابقاً ، وهذه العايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا . ولكن التحلق بأخلاق الله ، لا يتأتى إلا عن طريق الوحي المعصوم ، فلا بد إذن من اتباع نعاليم الرسول تبعاً سليماً . وبالتالي فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط ما لم يكن اتباع كامل لشريعة صادقة ، وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية اقتداء تاماً برسول الله ﷺ . لقد أحبه واتبعه وحققوا بذلك قول الله تعالى :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

ويمكننا أن نقول فى صراحة أكثر . إنه لا يوجد الآن تصوف إلا فى المحيط الإسلامى ، وذلك أنه لا يوجد الآن نص مقدس لم يدخله التحريف إلا فى النصوص الإسلامية . إن القرآن كلام الله وهو الآن كما كان أيام رسول الله

ﷺ ، وقد عرف ذلك بعض العربيين الذين استنارت بصائرهم فاعتنقوا الإسلام ، مستمسكين بوحيه سائرين على سق رسوله ، مستجيبين إلى أوامره مجتنبين نواحيه ، وساروا في الطريق فوصلوا إلى روضات القرب من الله سبحانه ، وكل من لم ينطلق من الشريعة الصادقة ولا تناع الدقيق فإنه لا يصل إلى شيء من درجات الصوفية . إن الصوفية لا تنأى إلا بالافتداء ، والقدوة المعروف الآن سيرتها في صدق وبقير هو رسول الإسلام محمد ﷺ ، إنه الأسوة الوحيدة الآن لكل من يحب العرب من الله في صدق .

لقد تناقش الناس كثيراً في كون محمد ﷺ هو القدوة ، لصوفية الإسلام ، بل سحر بعضهم حيناً كانوا يسمعون أن محمد ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتناء آثارها .

والواقع : أن التصوف لا يعدون أن يكون جهاداً عنيماً صد أربعيات ، ليصل الإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحي : ليكون عارفاً بالله .

وليس من عناصر فكرة الاتحاد أو الوحدة أو الحلول - بل إن فكرة الاتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم بعيدون عنها كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم . وماتهم أعدائهم إلا اتهامات أعداء .

هذا هو ، المحاسبي ، الذي لا يشك في أنه : من زعماء الصوفية ، ليست عنده فكرة الاتحاد ، أو الحلول أو ما شاكل ذلك من حالات السكر التي يشعر بها بعض الصوفية حيناً تسيطر عليهم فكرة الله ، فتأخذ بنفوسهم وجواسهم ، وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير ، هيرو ، في النهاية ، أنه :

﴿ أيتها تولوا فثم وجه الله ﴾ .

وإن الله معنا .

وإذا كان الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود - ليس من عناصر التصوف وأن عنصره الأساسي كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية : المحاسبي ، أو الغزالي ، أو رابعة العدوية ، أو كثير غيرهم . ليس إلا الجهاد لرضاء الله وتركية النفس حتى تعرف الله به . إذا كان الأمر كذلك فإننا نعتقد ولست في ذلك الرأي من المحددين أن محمداً ﷺ ، كان أول قدوة بصوفية الإسلام .

* * *

بقى حديث عن القرآن ، وقد كثرت الكلام فيه أنصاً ومحط النزاع هو القرآن ، كتب ديب وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول ، في صراحه وإيجاز : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أما التصوف ، فهو : توكل ورهق . وليس له من هذه الحياة الدب قليل ولا كثير .

والحقيقة : أن كلا من هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد ، فالقرآن ليس كتاب دين ودنيا على الإطلاق : إنه لا يسوي بين الدين والآخرة ، والتصوف ليس رجل آخرة فقط ، لأنه بصارع في الحياة صاعداً بها نحو لكار أحل إن لقرآن يدعو إلى ألا نسي نصيبنا من الدنيا وإلى أن نكون أقرباء ، وإن أن الس باللس ، والعين بالعين ، والأنف بالأف ، والحروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأنس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية .

كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، نوجدنا أن الحياة الآخرة - في نظر القرآن - خير

وأبقى ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة لديه لعب ، ولهو ، وريّة وتماحر ، وأنها لا تساوى عند الله
حناح بعوضة .

ثم هو بعد ذلك يذكر أن عماد الرحمن . هم ﴿الذين تمشون على لأرض
هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالو سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً
وقبلاً﴾ إلى آخر ماى القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة فى هذا العالم
هى حقاً هى الحياة «الدنيا» وأن الآخرة خير وأبقى .

والجهاد يدعو إليه الإسلام من أجل الآخرة وهو جهاد فى سبيل الله وقد
رفع الصومبة ريته خفاقة فى كل المصور .

أما أن الصوفى : رحل آخره فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، أو على
الأقل . عدم التحديد ، فهذا الصوفى يتزوج ، ويدعو هو الآخر ، إلى أن ايد
العلد خير من اسفلى ، وأن المؤمن القوى ، خير وأحب إلى الله من المؤمن
الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب : خير من أن يتكفف الإنسان
الاس : أعطوه ، أو مسعوه . ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن :
﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ .

فعلى إثارة للآخرة إذن ، إنما هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله
تعالى

وما من شك فى أن القرآن الكريم ، والرسول ﷺ ، بطوبان جميع المسائل
ويصعابها تحت لواء الله سبحانه ، إنها يصعب كل عمل من أعمال الإنسان
نصبة الله يريد أن يكون كل عمل إما يراد به وجه الله سبحانه ، فتكون
الأعمال بهذا عبادة ، وتكون الدنيا ديناً ، ويكون الإنسان إهياً يتخلق بأخلاق الله .

التصوف والتحليل من الشريعة الإسلامية

١

في كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، يخدمهم في الميدان الديني ، وفي الميدان السياسي ، وفي الميدان العلمي ، ويخدمهم كذلك في ميدان لتصوف وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستمادة النادية من أقصر الطرق وكما لا يبصر المدين ، ولا يبصر النعم ، أن ينتسب إليه لأدعياء المزيهون وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدوداً من شأنها أن تظهر ريف المريفين وباطل المطلقين ، وكذلك الأمر في الجانب الصوفي نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثاً عن بدعة ضالة ، أخذت تتسرب إلى بعض النعوس التي لم تنمق في الجانب الديني عمومًا ، ولا في الجانب الصوفي خصوصاً .

هذه البدعة ترى أن الشخص الذي وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد شأت أول ما شأت - في العصر الحاضر - بين رجال درسوا القاتون والتشريع : يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية . وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التي وصلتهم ، فسترى عجباً عجائلاً ،

ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إلى هو الأرواح التي ستحصرونها فتلبس بها
يرعمون - حسم توسط وتنقصه ، وتكشف لهم عن العيب من أربه إلى أئده
ومن بدايته إلى نهايته . ومن مشرقه إلى مغربه ١ !

وقد انتشرت بدعة تحصيل الأرواح في وسطهم ، يتحدثون عنها مصحين
ومحسنين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذي لا يديبون غيره ، ولا يتلقون الوحي
عن سواء ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحل محل القرآن الكريم والسنة
المطهرة .

ومن العريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، ويرعمون أنهم من كبار
الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عاقره الملهمين

وقد سمع الأمر بأحدهم أن رعم ، في فترة من الفترات ، أنه من كبار
الأولياء ثم لم يكفه ذلك ، فرعم أنه رسول ملهم ، ثم تحول ذلك إلى أنه عيسى
عليه السلام ، ثم كان بها بعد محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، ثم تخصص من الشريعة جملة ،
فرعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه ، والأرواح التي يستحصرها تزيده في كل
ما يرعم ولا يرى هذه الأرواح ، كما لا يرى هو ، في ذلك شذوذاً ولا ناقصاً ،
وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفي أمثاله ممن يتصلون بالحق ، وينحرفون عن
سواء السبل .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعبدون رجال من الجن فرادوهم رهقاً ﴾

وبعلك تتساءل : هل بين تحصيل الأرواح والتصوف من صلة ؟

وجواب رجال التصوف في ذلك حاسم قاطع :

ليس هناك من صلة بين تحصيل الأرواح والتصوف ، اللهم إلا إذا كانت

هناك صلة بين المتناقضات

إن رجال النصوص يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها تعامل مع
الحس والشياطين ! ! ويتذكرون في هذه المناسبات قول الله تعالى :
﴿ هل أنبئكم على من نزل الشياطين ؟ نزل على كل أفك أنيم . يلقون
السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ .
وقوله تعالى :

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإهم
ليصدوهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .
وليس من عرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعة
وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف ، والضلال والانحراف الذي
يسود الأوساط التي تعمل على ترويضه ، وليس من همنا ، أن ندين نشأتها التاريخية
في العرب بين الأوساط اليهودية التي روحت لها ، وأنمقت في سبيل نشرها
الأموال الطائلة لأغراض وأهداف يعرفها الضيغون بسر انتشار هذه الدعوة :
« تحضير الأرواح »

إن عرضنا الآن . إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة « إسقاط
التكاليف الشرعية » ، وهي مسألة لم يتدعها من يزعمون التصوف في العصر
الحديث ، وليس لهم حتى فضل سبق في الباطل ، إن كان سبق في الباطل له
فصل

إنها صلالة قديمة نشأت في أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتساباً
باطلاً ، وحاربها ممثلو التصوف في كل عصر وفي كل بيئة .
ومما لاشت فيه أن القول الفصل في كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه
إلى الذين يمثلون الموضوع الذي تتسبب إليه المشكلة وإذا رجعنا إلى زعماء
فئة التصوف المنفذ من الضلال

انتصوف الذين لا يخفف في رعايتهم اثنان نحمدهم سواء في ذلك القدماء منهم والمحدثون - نحمدهم يسكرون المكرة إنكاراً تاماً ، ويرونها زينة وضللاً وانسلاخاً عن الدين بالكلفة

وستحدث عن رأي بعض القدماء في هذا الموضوع ، ثم تفصل ، نوعاً ما ، رأى الشيخ عبد الواحد بجي ، وهو دعيم علم من رعماء الصوفية في العصر الحديث

قال أبو يزيد البسطامي لأحد حسائه :

« قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلاً مشهوراً بالزهد - فقصينا إليه ، فلما حرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقه فحاء القلة ، فاصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما بدعيه ؟ ! » ومن كلام أبي يزيد

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرقى في الهواء فلا تعزوا به ، حتى تنظروا كيف تحدونه عند الأمر والهي ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التستري معبراً عن أصول التصوف « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والافتداء باللسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ونجس المعاصي ، ولزوم التربة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجبيل - سيد هذه البطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيري . « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« عمنّا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الحق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز

وجل » .

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عدى عظيمه ، والذي يسرق ويبنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالي ، فإننا نجد يقول ، فى شيء من تفصيل ، فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامة له :

وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موروثة بميران الشرع ، موقوفة على توقيعاته إراداً وإصداراً ، وإقداماً وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التمسك بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واطب على جملة من الواصل ، فكيف يصل إليه من أهل العرائص ؟ !

فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى يحيط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من

النساهل في هذه الأمور ؟

« أقول لك اعلم أن هذا عين الغرور ، وأن المحققين قالوا
« ولو رأيت إساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمراً
يحالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان . . . » وهو الحق .
فإذا ما انتبهنا أخيراً إلى أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، فإننا نحده
يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع
الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم
يضمنها في جانب الكشف ، ولا الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرصتها على
الكتاب والسنة . »

والصوفية يتبعون في كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القرنية والعملية
للرسول ﷺ ، وهم يعلمون - لاشك - البدييات التاريخية من أن الرسول
ﷺ ، كان المثل الأعلى في أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .
هذا رأى القدماء ، وحيث ما نختتمه به إنما هو الحديث النبوي الكريم .
« وسئل النبي ﷺ ، عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الطر في الله
فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الطر لأحسنوا العمل . »

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

٢

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد بحى »^(١)

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفي . وهذا في الواقع استعداد نفسي لا يوجد إلا في الغرب الحديث

ولاشك في أن أسباب ذلك متعددة ولايعينا هنا البحث في مدى المشولية التي تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا . بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ؛ ذلك أنهم يسكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ؛ ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعي أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملي ذلك أن الأكثر ، وهو « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة » ،

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، إلى الشريعة ، من حيث

(١) وهو في هذه الكتاب يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لاص وجهة نظرية محسب .

عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له هذه
النظرة تتضمن ، ولو نظرياً ، تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف نفسه وفى
هذا الخطوة كل الخطوة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص
الذى عبده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفى ، ومن الحير له أن يلتزم الشريعة
التزاماً كلياً قبل يبدأ السوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا حير فيه ، بالنسبة
للجانب الصوفى .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تالى بما أنزل
الله . وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة فى طريق
السالكين .

ونجاهل الناحية العملية إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على
الخصوص ، ومن الطبيعى أن يقوم الجو الديوى الذى يعيش فيه الغربيون عقبة
فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستها له ، بيد أن مقاومتهم
لهذا الجو الديوى ، هو بالضغط العلاج لا بحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى
عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعنى التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات
العرب الحديث ، وفى الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه فى الشرق ، ذلك
أن الروح لدينية الصحيحة لا تزال مهيمنة فى بيئته

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مطهرين لشيء واحد ،
أحدهما ، الخارجى ، والآخر داخلى ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن
لذلك كان ما يروى فى العرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج
الصوفى ، وهى مع ذلك لا تركز على أية شريعة إلهية ، مجرد حذاع ، ومن

الديهي أن هذه الجماعات - ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة - ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد انقصر في الهواء إنه لا يشيده على أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة : إنما هي بناء في الهواء ، إنها بناء على غير أساس

والسوء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لا بد له من أساس مدعم . وعلى الأساس يرتكز اسناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا الخط يكون السنة بين الشريعة والنصوف ، فاشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لا بد منه بكل سائل ، وكالأساس تماماً ، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار التصوف في طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة لشريعة ، واستتار معرفته بها ، وأصبح فهمه ها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآموا بها ، دون أن يضربو بسهم في الميدان الصوفي ، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مطهرها الخارجي ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويحيها ، إذا أمكن هذا التعبير على أن هذا لدى لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلاً عن أن يطلق عليه وصف الصوفي .

على أن الغريين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومي . كما هو

شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدرا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشرعية السيطرة على قاده ، فإنه لا يقل من باب أولى من رجل التصوف أن برغم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينها إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما يتأني لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ، وقد يكون العمل واحداً في نوعه ويؤدي به شخصان يوصف عند أحدهما بأنه ديني وعند الآخر بأنه دنيوي . فإن كان القصد « الله » فالعمل ديني وإن كل القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دينا يصيب ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ^(٢) » .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه : تطبيق حزلي لفصية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك

(٢) رواه البخاري في صحيحه

بمجرد الفهم أو مجرد التحين لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة
حيثما يدهور الإنسانية والمحطت شيئاً فشيئاً ، وهانحن أولاء قد وصنا في هذه
التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ، ضرورة
سيادة الروح الدينية في مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالي لا يوحد في الحياة
السليمة .

وإنما يرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد ونحس على
يقين من الأمر هؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق اصول بأنهم لن
يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً وبالله
التوفيق .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

٣

فتوى للإمام الغزالي^(٣)

كتب له بعض الزائغين

ما قوله ، منع الله المسلمين ببقائه ، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومسحه
أفضل ما منح أفضل خاصته من أصقيائه وأوليائه ، في قلب حصه الحق بأنواع
من الطرف والهدايا ، ومسحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك في
جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات
مع كون ظاهره معموماً ، بأحكام الشرع وأدائه ، مرهاً عن مآئمه ومخالفته
ويجد في الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من لتكاليف الشرعية ،
والرياضات الدنيوية : هو الفطام عما سوى الحق ، كما قيل لـ « موسى » ﷺ :
« اخل قلبك : أريد أن أنزل فيه » .

فإذا تم الفطام ، وحصل المقصود بالوصول إلى القرية ، ودوام الترقى من
غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره ، انقطع عن حفظ

(٣) هذه الفتوى ذكرها تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ في كتابه « طبقات الشافعية » وهي
موجودة في كتاب « سيرة الغزالي » للأستاذ عبد الكريم العثاوي وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الدكتور سيد
ديب بكتاب (بصل المتبرقة) ١

البطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية ، إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا يتزل يده من التكليف الطاهر ، ولا يقصر في أحكام الشريعة ، ولكن الاعتقاد الذي كان له في الظاهر والتكاليف ، تنافس وتفاصر عما كان في الابتداء من التعظيم لوقعها عنده ، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عدة ، للأجل الخلق ، وحفظ نظرهم ومراقبة الله ، بل صارت إيماء له ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« أن المقصود من الداعي والدعوة ، حصول المعرفة والقربة وإذا حصل هذا استغنى عن الداعي ، والواسطة »

كيف معالجتها ؟

« فإن قلنا : المعرفة لا تنتهي أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعي أبداً لا محالة .

فربما قال : الداعي قد بين ما احتيج إلى بيانه ، وشرح معالم الطريق وذهب . فلو احتاج السالك إلى مراجعته في روائد وإيرادات ، لم تمكن المراحة في هذه الحالة .

فيقول :

ما هو طبيب عنتي في هذه الحالة . لأنه غاب عن إمكان المراحة ، فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شأى بيانه :

الجواب : وبالله التوفيق : ينبغي أن يتحقق هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض : الفطام عما سوى الله والتجرد له ، فهو مصيب في ظنه أن ذلك مقصود ، ومخطئ في ظنه أنه كل المقصود ، ولا مقصود سواه . بل لله تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام ، تقتصر بصاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المخدع بهذا الظن ، مثل رجل بنى له أبوه ، قصراً على رأس جبل ووصع فيه شجرة من خشب طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، ألا يجلى هذا القصر عن هذا الخشب حول عمره . وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الخشب فيه

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب في البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة .

فانعمرت رائحة الخشب لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لاشك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الخشب إلا لطيب رائحته ، والآن قد استغيب هذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلا أن يصيق على المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الخشب ، ظهر من بعض نقب القصر حية هائلة ، وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك فتنبه حيث لم يتفقه التنبه إلى أن الخشب كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالخشب عرصان .

أحدهما : انتفاع الولد برأئحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .
والثاني : اندفاع الحيات المهلكات برأئحته وذلك مما قصر عن دركه بصيرة
الولد فاعتز الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال
تعالى :

﴿ ذلك مبلعهم من العلم ﴾

وقال :

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .
والمرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو متع عن علمه ، فهو متع في
نفسه

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب آدمي : كذلك القصر ، وأنه معش
حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقينها وقيدها بطريق خاصة : المكتوبات
والمشروعات .

بقوله سبحانه :

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ .

فكما أن الكلمات المنظومة والمكتوبة في الرقية تؤثر بالخاصة في اسخروح
الحيات ، بل في استسحار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنظومة الماثورة تؤثر في استمالة الملائكة إلى السعي في إحابة
الداعي ويقصر العقل عن إدراك كلفه وخصبته ، وإنما يدرك ذلك « بقوة
البوة » إذا كوشف السر بها من اللوح المحفوظ .

مكدلت صورة الصلاة المشتعلة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير . عند طلوع الشمس وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة في تسكين التنين المستكن في قلب الآدمي الذي يشعب منه حيات كبيرة الرهوس بعدد أحلاف الآدمي ، يلدغه وينهشه في القبر ، ممكناً من جوهر الروح وذاته أشد إيلاًماً من لدغ مكر من القالب أولاً ثم يسرى أثره إلى الروح .
 وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم :

« يسلط الله على الكافر في قبره تنيناً ، له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا ... » الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين في خلق الآدمي ، ولا يقيمه إلا الفرائض المكتوبة فهي النجاة من المهلكات ، وهي أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المدمرة
 ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾

• • •

فاذن في التكليف غرضان :
 أدرك (هذا المعرور) أحدهما ، وغفل عن الآخر
 وقد وقع له « أبي حنيفة » مثل هذا الظن في الفقهيات ، فقال :
 « أوجب الله في أربعين شاة ، شاة . وقصده به إزالة الفقر ، والشاة آلة في الإزالة . فإذا حصل بحال آخر فقد حصل تمام المقصود » .
 فقال « الشافعي » رضي الله عنه :

« صدقت في قولك إن هذا مقصود ، وركب من الخطر في حكمك بأنه لا مقصود سواه . فبم تأمره . إذ يقال له يوم القيامة : كان لنا سر في إشتراك

العير الفقير ، مع نفسه في جنس ماله ؟ كما كان من يرمى سبعة أحجار في البحر يؤدي إليها خمس لآل ، أو خمس أكبر إذا لم يقبضه .

وإذا جاز أن يتمحص التقييد في الحجج ، وأن يتمحص المعنى المعقول معاملات الخلق فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً في الزكاة ، فتكون إرالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول .

وزاد « أبو حنيفة » على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ، فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان ، وبين قوله « الله أعظم » فقال « الشافعي » .

وم علمت ، أنه لا فرق في صفات الله بين « العظمة » و « الكبرياء » مع أنه تعالى يقول :

« العظمة » إراري و « الكبرياء » ردائي ، و « الرداء » أشرف من « لإرار » وهلا استنبط مقصود « الخضوع » من « الركوع » وأثبت مقامه السجود ؟ لأنه أبغ منه في الاستكانة

فإن قلت : لعل الله سرا في الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه فلم ينحيل أن يكون له سر في كلمة « السلام » ، فلا يقوم مقامه « الحديث » وكل خطاب للآدمي ، وأن يكون له سر في القرآن المعجز ، ولا يقوم مقامه غيره وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون له سر في النامحة ، وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معاني القرآن ، وتأثر القلب ، لأحرفه وأصواته فيها آلات ، فهلا قال : المقصود من حركة اللسان تأثر القلب ، عليكف عن

انقراءة للحلوس مع الله تعالى ، على هيئة الإجلال والذكر ، والسؤال بصورة الصلاة .

وجميع ما ذكر « أبو حنيفة » بطلان مظهر غير مقطوع
أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ، مع
ترك الركوع والسجود وصورة الصلاة ، فمقطوع بطلانها بالإجماع ، وهذا
ما انفجر به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ومخالفة الشرع القاطع

فإذا كان المتدني في المعرفة يجرّد عن الصور ، وي طرح الصور فيظنّ نور
معرفة نور ورعه ، فيثور عليه لتنين في قبره فيتعجب منه ، ويبسّو له من الله عالم
يكنّ يحتمس ، فإذا أصابته ضربة التنين قال : ما هذا ؟ فيقال : إنما كان تريباق
هذا التنين صور الفرائض المكتوبة ، وإليه الإشارة بما يروى :

« إن الميت يوضع في قبره : فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه ،
ميدفعها القرآن فتأتيه من جهة رجله ويدفعها الحج . . » الحديث
فإن أصر هذا المبرور على جهاته ، وقال : من سب ربة الكمال ، كما بلغت
أمن هذا التنين وطهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مبرور في أمنك :

﴿ فبإيه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾

فيم تأمن أن يكون التنين مستكنّاً في صميم القواد ، استكنان الجمر تحت
الرماد ، أو استكنان النار في الرماد ، وإن مات فيعود حياً فإن مت ومنعه هذا
القلب الذي هو مظنة الشهوات وانصافات البشرية ، وقلع الحشيش لا يؤمن
عوده مرة أخرى ما أن يتحدد نباته مها كانت الأرض معرضة لانصباب الماء إليها
من منابعها .

فكذلك القنب مادام مصا لواردت لمحات والشهوات ، لم يؤمن فيه
هود البات بعد الانقطاع والانبثات .

• • •

وننه على هذه المعرفة بالتأمل في ثلاثة أمور :
الأول بداية حال إبليس ، وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ،
ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد . اعتزراً بما عنده من العلم ،
وغفلة عن أسرار الله في الاستبعاد ، ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته ، وهبطته
وتمسكه بمعقوله ، في كونه حيراً من آدم عليه السلام
فنتبه الخلق بهذا الرمز على أن السلافة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء
وكياسة ناقصة .

الثاني : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركونه مهياً
واحداً ليعلم أن في ركوب الهوى إبطال (اعتقاد) الكمال لحالقه
الأمر الثالث : حال رسول الله ﷺ ، فإن هذا المعرور لعله يقول إنه لم
سلم له رتبة الكمال .

ثم إنه ﷺ لم يزل يلزم الحدود ، ويواظب على المكتوبات إلى آخر
أنفاسه ، بل يزيد في فرائضه وأوجب عليه التهجد . ولم يوجب على غيره ،
وقيل له .

﴿بأيها المزمع الليل إلا قليلاً ، نومه أو انقص منه قليلاً﴾
وإنما أوجبت عليه هذه الريادة ، لأن اخزانة كلما ازداد جواهرها نفاسة
وشرفاً ينبغي أن يزداد حصنها إحكاماً وعلواً ، فلذلك قيل في تعليل إيجاب
التهجد :

﴿إِنَّمَا سَنَلْنِي عَلَيْكَ نَوَافِلًا إِنَّمَا نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَنُومٌ قَلِيلًا﴾
 فتبين له أن هذه الصلوات هي حصص الكمال فلا يبقى إلا به .
 ولعل المغرور المعنوه يقول : إنه كان يواطى عليها إشفاقاً على الخلق لأجل
 الاقتداء ، لا لحاحته إليها في حفظ الكمال .
 فيقال له :

فلم زاد عليه في التهجد وجوباً ؟

هلا قال : إن مبلغ درجة البوّة ، يستغنى عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال
 لقليل منه ، كما قيل منه ، أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ماشاء ، فإنه بقوة
 البوّة يقوى على العدل مع كثرة النساء ، كما قيل من المدرس أن يأمر تلامذته
 بالتكرار والتسهد ليلاً وهو ينام .

ويقول : إني بلغت درجة استغنيت بها عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة

ولعل هذا إذا احتاره ضحك الشيطان وسحره ، وقال له أنت أكمل
 من النبي وأصديق ، وكل من واظب على الفرائض وعد هذا يقطع الصمم من
 صلاحه فهو ممن قيل فيهم :

﴿وإن تدعهم إلى الهدى قلن يهتدوا إذن أنداء﴾

مسألة :

أما ما ذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشعه دلت عن القرية التي نالها ،
 وانكار الذي يبعه بهوكذب صريح ، ومحال فاحش قبيح ، لأن التكاليف
 قسيان

أمر وهي :

فأما المسيات : مثل الزنا ، والسرقه ، والقتل ، والصرع ، والنميمة والكذب ، والقذف .

فترك ذلك كيف يشع من الكمال ؟ وكيف يحجب عن القرية ؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما الأمور : فالركاه والصوم والصلاه .

فكيف تحجبه الركاه ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء عن نفسه ؟ ولو صام جميع دهره ، فهل يفوته بذلك لا سلطنة الشهوة ؟ الذي يموت من الكمال بترك الأكل صحوة الهار ، في شهر واحد ، هو رمضان ، وأما الصلاة فتقسم إلى ،

أفعال وأذكار :

وأفعالها : قيام وركوع وسجود

ولاشك في أنه لا يخرج من القرية بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل ، فيكون إما قائماً ، أو مضطجعاً .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القرية ، ما هو سبب القرية ؟ قال الله سبحانه وتعالى .

﴿ واسجد واقترب ﴾

ومن عشق ملكاً ذا جمال ، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه ، استكانة له ، وجد في نفسه مزيج روح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال ﷺ :

« وجعلت قرة عيني في الصلاة »

فاستدامة حال القربة واستزادتها : في السجود ، أيسر منه في الاضطجاع
والقعود :

ومها ألقى في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجاً
من حال إبليس ، حيث ألقى في نفسه أن السجود يحكم الأمر ، سبب روال
قربته ، وكأله .

فكل ولي سقط من درجة القربة ، إلى درجة اللعنة ، فسيه ترك السجود
ومقتداء وإمامه إبليس .

وكل ولي أسعد بالترقى إلى درجات لقرب قيل له :

﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ومقتداء وإمامه الرسول ﷺ .

ولا يسعى أن يتوهم الولي الخاص أنه بعيد عن خداع إبليس ، مادام في
هذه الحياة ، بل لا يسجود عنه الأبناء .

غير أنهم معوزون كما قال تعالى :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في

أسميته ، فيسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ﴾

وأما أركان الصلاة تكبير ، وهاتحة وركوع وسجود ، وتشهد ، لا فريضة
إلا هذا ، لما وجه الصبر في قوله :

« الله أكبر » وفي « الحمد لله » والالتجاء إليه ، واستعاذته ، وطلب الهداية

إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الصلحة

وكل ذلك مساحة مع الله تعالى .

وإن صح ما يقوله مثلاً ، وإن كل يوم آلاف نفس ، فليصرف هذه الأنفاس المعسودة إلى الذكر والسجود ، وليتقصر هذه اللحظات من درجات كماله ، ليأمن بهذه المكتوبات عن ضرر التثنية الذي لا يعتد بشئ سواه ويتخلص من خطر الخطأ في هذا الاعتقاد .

ولاشك في أن الخطأ ممكن فيه ، إن لم يكن مقطوعاً به .

وإن قال : إن عزوف القلب ، إلى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار ، هو الذي يشغلني عن درجة القرب ، فهو دعوى محال ، لأن الهدى لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، إذا حفظ شيئاً مرة يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه وإلحاحه ، بل يجدد من نفسه في ذلك هرة وبشاطاً فكيف لا تكون قرة عين العبد في مناجاة محبوبه ، وخدمته التي رسمها وارتماها له .

مسألة .

معنى ارتفاع التكليف عن الولي .

بل معنى ارتفاع عن الولي أن العبادة تصير قرة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه (٤) .

وهو كالصبي يكلف حضور المكتب ، ويحمل على ذلك قهراً ، فإذا اكتمل بالعلم ، صار ذلك ألد الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفة . وتكليف الخائف ليتناول الطعام اللذيذ ، محال : لأنه يأكله بشهوة ويلتذ به ، فأى معنى لتكليفه ؟

(٤) وإن ذلك يقول رحمه الله : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تباعاً لاجلتي به) ويقول : (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يصمه)

فإذن تكليف الولي محال والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى ، لا معنى أنه لا يصوم ، ولا يصلي ، ويشرب ، وبزنى .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدمه والنواضع له ، لأن ذلك منتهى شهوته ولدته فكذلك عداء روح الولي ، في ملازمة ذكره ، وامتنان أمره والنواضع له بقلبه ، لا يمكنه إشراك القلب مع القلب في الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كما لا للذة الخضوع والتعظيم ، حتى يشترك في الالتذاذ قلبه ، وقائه كما قيل :

ألا فاستنى خيراً وقل لي : هي الخمر

أي يدرك سمعي لذة اسمه ، كما أدرك ذوق طعمه

بل تنتهي لذة الولي من القيام لربه قائماً مناجياً ، إلى أن لا يدرك الورم في القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

مسألة :

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه لو لم يعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وحوز أن يكون لله تعالى سرفها ، ليس بطلع عليه هو ، لعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت

خاصية سر ، هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل ، يمان بالالهية ، والسوة ، تحيل باطل ، فإنه إذا لم يجوز في كمال قدرة الله تعالى سرّاً بعباده من الأسرار ، وخاصية من اخواص في الأعمال والأدكار فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة مقصورة على قدرة عقله وهو كهر صريح وإن جور ذلك ، وإن لم يكن اعتقد أنه لم يكف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه ، صلى الله عليه وسلم ، بلغ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ .

وفهم الصحابة ، وأهل الإجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك في إيجاب الرسول ، فليتأمل القرآن والأخبار .
وإن شك في قدرة الله تعالى على نفسه في الأعمال والأدكار ، تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال ، وكالحراسة عليه من المهلكات الباطنة فليرجع إلى نفسه ، وليطالها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ، أو بظنه ، وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى في عجائب صنع الله تعالى ما هو فرع منه ؟

حقى إن هذه الشكل المشتمل كل ضلع منه

على خمسة عشر عدداً من حساب الجمل ، إذا أثبت روميه على خروف ، ولم يصبه ألم بشرط مخصوص .

ولو أعطى المرأة التي تمذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية

ب	ط	د
ز	هـ	ج
و	أ	ح

تقصر عقول الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسبه .

ويكثر مثل هذا في عجائب الخواص .

فمن أين يستحيل أن يكون لمظم الكلمات الإلهية في الفاتحة - مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود ، والقعود فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة - حاصبة في النحاة الأحرورية ، أو في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التي تلدغ في لقلب ، لدغاً ، أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثر في سعادة آدمي بوجه آخر من الوجوه ، يقصر لعقل عن إدراكه .

فمن لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً :

مسألة .

أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى . فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف وسيلة الوصول إلى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلة والمرشد ، وإن احتاج فقد توفي المرشد وتعذرت مراجعته .

فهذا أيضاً يفهم جوابه مما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن ما ليس حاصلًا في علمه ، فليس حاصلًا في نفسه ، وهو كمعجور ظنت أن ما تحلو عنه حجرتها تحلو عنه خزانة الملك ومملكته ، وأنه ليس في العالم سماء إلا سقف بينها ، ولا أرض إلا عرصة بينها .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء بالإضافة إلى مقدورات الله تعالى ، أقل من قطرة في بحر ، وإن سلم له وصوله درجة الكمال ،

فيجوز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريق الخاصة ، سبباً للترقى إلى درجات الكمال التي نالها ، أو يكون سبباً لبقاء الكمال ، أو درامه ، أو يكون لرسوخه حتى لا يتزلزل في سكرات الموت .

فإن لم يواظب عليها ، فعسره أن يودعه الكمال عند الموت ، ويقال . له إنما كان يثبت هذا ، إذا عصفت رياح الموت بالمسامير الخمس ، التي هي المكتوبات ، وكان يستحكم بها ، فلما خلا من المسامير ، ترعزع وانقطع : فقد خبت ونحسرت إذا فرحت بما عندك من العلم . وسيقال لكم يوم القيامة : معاشر أهل الإباحة .

﴿ ما سلككم في سقر ؟ ﴾

فتقولون :

﴿ لم نك من المصلين ﴾

فعلاج هذا لفرور ، الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل هذه الأمور ، ويجوز الخطأ على نفسه ، والسلام .

وحدة الوجود

١ يريد أن يبدأ مباشرة بملاحظة تزييل بصورة متوقعة - وحدة المناقشة في هذا الموضوع ، وذلك أننا بصدد وحدة الوجود ، ولنا بصدد وحدة الوجود .

والموجود متعدد : سماء ، وأرض ، جمال ، وبحار ، أشجار وأناس إلخ ، وهو مختلف صلابة وهشاشة ، لونا ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلاً وخفة إلخ .
وم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين ومنهم ابن عربي والحلاج بوحدة الوجود .

وما كان المؤمن ، ولا يتأق المؤمن ، أن يقول بوحدة الموجود وما كان للصوفية - وهم الدروية من المؤمنين - أن يقولوا - وحاشاهم - بوحدة الموحود .

وقد تتساءل من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التي يعتقدونها كثير من الناس : من أن الصوفية يقولون بوحدة الموجود ؟^١
ونفسير ذلك لا عسر فيه . إن فريقاً من الملاحقة في الأرمنة القديمة وفي الأرمنة الحديثة يقولون بوحدة الموحود ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى ص إلههم - هو والمخلوقات شيء واحد .

قال بذلك هيراقليطس في العهد اليوناني . والله عبده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وبرة وقلة ، حامد ومائل ، به على حد تعبيره كالنار المعطرة ، تسمى باسم العطر الذي يفرح بها ، تقدس سبحانه وتتره عما يقول .

والله سبحانه وتعالى ، في رأى شلى ، في العصور الحديثة ، هو هذه السمة الجميلة على شفى طفل جميل باسم ، وهو هذه اسامى العيلة التى تنمشتا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشرقة المتألقة بالنجم الهادى فى ظلمات الليل ، وهو هذه الورود الياصرة تفتتح وكأنها انسامت شفاه حميلة إنه الخيال أينما وجد ، أيضاً - سبحانه وتعالى - القبح أينما كان : وكما يكون طفلاً فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من حسد ميت ، ويكون قبراً يصم بين جدران هذه الحثة وهذا السود ، أستغفرك ربى وأتوب إليك ولوحدة الوجود - بمعنى وحدة الوجود أنصار فى كل زمان .

ولما قال الصوفية « بالوحد الواحد » شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية من وحدة الوجود بمعنى وحدة الموحود وقرق كبير بينهما ولكن الخصومة كثيراً ما ترصى عن الترييف وعن الكذب فى سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشىء آخر فى غاية الأهمية كان له أثر كبير فى الخطأ فى فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعرى رضى الله عنه ، رأى فى فلسفته الكلامية ، أن الوجود هو عين الموحود ، ولم يوافق الصوفية على هذه لفكرة الفلسفية ، ولم يوافق الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأى فسق يخطئ فيه أبو الحسن الأشعرى أويصيب ، وما مثله فى آرائه الفلسفية إلا مثل غيره فى هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه أن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموحود ، ولما قال الصوفية بالوحد الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم فى ضوء رأى الأشعرى ، دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوحد الواحد

على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا لتفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة في آراء هؤلاء الخصوم .
وأمر ثالث يجب ألا نعيره أدنى التفات ؛ لأنه أنه - في منطق البحث -
من أن نعيره التفافاً ، وهو هذه الكلمات التي تناثرت هنا وهناك ، مخترعة
ملفقة ، مزيفة ، ضالة ، في معناها ، تافهة في قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجو
الإسلامي . تتأدى بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلاً واقبياتاً .
إنما هذه الكلمات التي يعزونها إلى الخلاج ، رضوان الله عليه ، أو إلى
غيره ، لا توجد في كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه .. لقد اخترعوها اختراعاً ،
ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

وبكفي أن يتشبث بها إسان فيكون في منطق البحث غير أهل للثقة .
٢ - الوجود الواحد : وهل في الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله
المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذي أعطى ومنح الوجود لكل
كائن وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه إنه سبحانه الخالق وهو
البارئ وهو المصور : هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء .
ومن بعض معاني هذا التصوير قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين .
ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا
العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .
وصلة الله بالإنسان إذن هي أنه سبحانه ، يمسحه الوجود الذي يريد له
في كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، لتشكيل حياته في كل لحظة بصورة أمده
الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن . إنما هي على هذا المثلط : إنه سبحانه مثلاً :
﴿ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا . وَلَئِنْ رَأَيْتَا بِإِنْ أَمْسَكَهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ
عَلَمِهِ ﴾ . إنه يُمْسِكُهَا وَجُوداً ، وَيُمْسِكُهَا تَسْبِيحاً ، وَيُمْسِكُهَا تَمَاسُكاً وَتَنَاسُقاً . . إنه
يُمْسِكُ فِيهَا الْكَيْفَ وَالْكَفَّ . وإذا ما سحب إمداده عنها تلاشتا كمًّا وكيفاً
إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مُحِيطٌ بِالْكَوْنِ ، مُهَيِّمٌ عَلَيْهِ ، قَيُّومُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . وقائم على كل درة من كل حلقة ،
وعالم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث لا يعرب عن هيئته
وعن قيرميته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

هذه القيومية : أحد القرآن والسنة يتحدثان عنها في استعاضة مستعوضة ليز
الإنسان مرة عيمة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا ينع هواه ، وإنما يرتفع ببصره
ويستشرف بكيانه إلى الملائكة الأعلى مستخلصاً نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله
سبحانه وتعالى في عبودية خالصة له . وفي إخلاص لا يشويه شرك من هوى ،
أو شرك من سيطرة المادة أو العرائر .

وبريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن في هذا الصدد :
إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . يوجه نظرنا في سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها في
العادة عاطلون .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ١ .
﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ ... ١ .
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ؟ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنزِلُونَ ﴾ ١ . . .
﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَنْتُمْ أَشْأَتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ ٢ . . .

وعلى العكس من ذلك . لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ، ولجعل البرع
حطاماً ، ولما أنزل الماء من المز ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، بيده
الأمر سلباً وإيجاباً ، ويده أمر الخلق إيجاداً وإعداماً .
أرأيت إلى هذه الرمية لتي ترميها . إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله
رمى .

أرأيت إلى الانتصار في الجهاد ؟ إن هذا الانتصار من عند الله ، فأما القتلى
« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .
ورزق الإنسان هذا وصغاره :

﴿ فليظر لإنسان إلى طعامه أيا حسنا الماء صا ثم شققنا الأرض شقا ،
فأبنتا فيها حيا وعيا وقصبا ، وريتنا وبحلا وحدائق عبا وفاكهة وأيا ، متعا
لكم ولأنعامكم . . . ﴾

٣ - هذه الهيمة ، وهذه الفيومية ، يمر بها قوم فلا يعبرونها التفاناً ، إنهم
يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى ،
لا يحتل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصيحين محسين ، إنما
هو ملء البطش ، أو كثر الذهب والفضة ، أو التراع على حاه ، أو العمل لتثيت
سلطان : بهم يرون آيات الله فلا يشهدوها وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون
إليها ، وتعمرهم نماؤه وآلاؤه فلا يوحهم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن
الله سبحانه وتعالى ، لا يحتل في قلوبهم ولا في تفكيرهم ، ولا في بيئتهم ،
ولا في حياتهم ، قبلا ولا كثيراً . . .

والطرف الآخر المقابل لهذا هو هؤلاء الذين انعموا حقاً في محبط
الإلهية - سحوا في محارها ، واستشققوا ساعها اتدية . وغمرهم لآلاؤها

وضيؤها ، لقد بدعوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه انى تحيط بهم من
جميع أقطارهم ، فرادهم الله نعماء وآلاء
﴿لئن شكرتم لأزيدنكم...﴾ .
لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله :

لقد اکتفوا بالله هادياً ونصيراً ، بهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم
على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأحدوا شيئاً فشيئاً ، يحاولون تحقيق التوحيد
قولاً ، وعقيدة ، وتدوقاً ، وتحقيقاً ، أحدوا يرون في « أشهد ألا إله إلا الله ،
معاني لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معى الشرك يتضح لهم في صورة لا تحظر على بال اللاهين ، الذين
شغلنهم أمواهم وأهلواهم ، ويدعوا يحطمون الشرك . يحطمون أصنامهم وأوثانهم
من النمس ، والهوى والشيطان ، ومن انقراثر الحيوانية ، وانقراثر الإنسائية . وأهوار
الشرك حتى من همسات العقواد : لقد انهار الشرك لوضوح ، وأهوار الشرك
الحنفي ، وثبت في أذواقهم واستقر في أحوالهم ومقاماتهم أن « لا إله إلا الله ،
وأنه « أينما تولوا فثم وجه الله » وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل
الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلساتهم ومعاشرتهم . إنه يعمر كيائهم
فلا يرون غيره سبحانه . لا يرون غيره ، قيوم السموات والأرض ، ولا يرون
غيره مصرفاً لليسير من الأمور ، وللعظيم منها ، ولا يرون غيره مالكاً للملك
يؤتي الملك من يشاء ، ويترع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من
يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله في بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفي
قلوبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغبه كله فلا يدع فيه مكاناً للأغوار

٤ - وأخذ هؤلاء الصوفية بوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى ، أحدوا في محاولة جاهدة مستمرة لانتزاع الإنسان من الإحلال إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله ، عن طريق آلائه التي تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شيء خلقه ، سبحانه .

أحدوا بوجهون نظر الناس إلى الله تعالى في الزهرة تتفتح ، وفي الزرع يبت مشجها إلى السماء ، وفي الشمس تشرق ، وفي القمر بتألق ، وفي مواقع الجوم ومداراتها . . .

وفي كل هذا الإبداع الساري في الكون !

أحدوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أنكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور

الذي خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ،

فارجع البصر هل ترى من فطور ؟

ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسيرا ﴿

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الخافة لعلماء الكلام

أو الفلاسفة ، وهم - في تعبيراتهم يشرحون : أن الله سبحانه وتعالى ، المد

الوجود لكل موجود . إنه بمد القائم بالقديم ، ويمد الماشي بالمشي ، والمتحرك

بالحركة . . .

إنه - على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذي يقطع ، وليست أنسكين

هي التي تقطع ، وهو الذي يحرق ، ويسب النار هي التي تحرق ، وهو

الذى ، حياً يريد ، يقول للدر كوفى برداً وسلاماً ، فتكون برداً وسلاماً
ومها عبر الصوفية ، فى هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقلوا فى
ذلك ، ورغم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فإهم : سوف لا يسعون المدى
الذى بعته تلك الآية الكريمة التى تمثل فى روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ،
والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل التى لا نغنى وحدة متحدة ولا اتحاداً
مطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود والآية هى .

﴿ هو الأول والآخِر والظاهر والباطن ﴾

وهذه الآيات القرآنية التى ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعاً إلى الشعور
بقيومية الله سبحانه وتعالى ، مهيمنة ، وهيمته مهيمنة ، وإلى الشعور بتوحيده
سبحانه وتعالى للإنسان أن يعزى إلى الله فى كل أمر من أموره ، وأن يسمو نفسه
حقى يحقق بأن :
لا إله إلا الله .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون مهدى القرآن والسنة ،
يريسون للإنسان أن يكون ربابياً ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يحللون إلى
الأرض ، ويضطرون دائماً إلى أسفل ، فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا
واجبهم نحو التوحيد إلى الله ، خير أداء .

أما إذا لم يكتب بعض الأفراد بالإخلاص إلى الأرض والنظر إلى أسفل ،
وإنما أحدوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ، ويوجههم إلى الله ،
تعالى هؤلاء : إنما يجاريون الله ورسوله ، وحراؤهم معروف

٥ - وقد تتساءل : فم إذن حوكم الحلاج وقصى عليه بالقتل ؟

قصبة التصوف للتفرد من الضلال

إن أمر هذه القضية قضية الخلاج : معروف سرها ، وما كان سراً في يوم من الأيام

لقد كان الخلاج قوة جارفة ، كان مركزاً للحادية لا بصارع ، يلتف حوله الناس أيما حل ، ويسبون حوله أيما ارتحل .

وكان ككل صوفي - : يجب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذك يطمحون في أن تكون الدولة لهم ، وما كان هو العباس يطمحون إلى شخصية كشخصية الخلاج المحبة لآل البيت ، سئل رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

ومادم الخلاج دعابة قوية تسير في كل مكان ، وتتجه إلى كل بلد ، فيحب - حفاظاً على أمن الدولة ونحسباً لاستقرارها أن ينكل بالخلّاح . وما كان مقتل الخلاج دينياً قط كلا ، وإنما كان سياسياً بحتاً ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيّفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القصص بالمال والترقة ، وأن ينفذوا أهواءهم

فكان ما كان من قضية ومن قتل . . . والدين من كل ذلك براء والألفاظ التي يسوسها للخلّاح ليست في كتاب من كتبه ، وكتبه - وبعضها موجود - لا تستند خصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر الخلاج . ونقبت كلمة .

إن المنطق الصحيح : ألا يفنى المهندس في أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب باعتباره أديباً ، في أعمال المهندسين . . .

ومن العدالة على هذا الوضع : ألا يحكم على هذه القمم الشاخنة ابن عري ، الخلاج ، ابن الفارص ، من لم يبلغ مدهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلانا ، يستند ابن حري
في المجلات ، فقال : رضوان الله عليه ، وهل من حق الخنافس أن تحكم على
أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن
تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الشافعي - رضوان الله عليه - فإنه يقول عن خصوم سيدنا محي
الدين : « إن حكمهم حكم ناموسة نصحت على جبل تريد إزالته من مكانه
وتذهب الريح بأنهم من الناموس » وتبنى الحمال شومخ راسيات ، بها تثبت
الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » اهـ

والرأي لدى لا يتأتى غيره من المنصف ، الرأي الحق ، هو ما قاله الإمام
الشعراني عن الصوفية عامة ، وعن سيدنا محي الدين خاصة : « ولعمري » إن
عباد الأوثان لم يجرؤوا على أن يحملوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ما نعبدهم إلا
ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ،
هذا محال في حتمهم ، رضوان الله عليهم » اهـ

فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقرب المستوى ، وحينئذ سيقول كما
قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه : رضى الله عن سيدنا محي الدين ،
ورضى الله عن الخلاح ، وعن ابن القارض ، ونمنا بهم ، ونكتبهم ، هذا
وبالله التوفيق .

السجود (*)

١

يروى الإمام مسلم - رضى الله عنه - فى صحيحه ، عن أبى فراس ربيعة ابن كعب الأسقى ، - خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصفة - رضى الله عنه - قال :

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فأتته بوضوئه وحاجته ، فقال : سلى : فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة . فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال : « أعنى على نفسك بكثرة السجود » .

والسجود إذن مما يعين على ترويض النفس ، لتتزكى ، وهو بذلك من الوسائل التى توصل إلى الجنة .

ون هذا المعنى ، يروى مسلم أيضاً ، عن أبى عبد الرحمن ، ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، قال :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » .

والسجود الذى يريده رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فى هذه

(*) إن موقف الصوفى من التعاليم اللبية هو موقف الساجد ها - وبدون ذلك لا يكون صريفاً ومن أجل ذلك وصفت هذه الكلمة فى هذا الفصل

الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى العميق في النفس الذي يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته وودده ، ويتمثل فيه الخضوع ، لهذا الجلال ، وهذه العظمة ، والانقياد المطلق لرحمة الله التي تتمثل في الرسالة الإسلامية ، وأوامرها ونواهيها .
 ذلك أن الرسالة الإسلامية ، في تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هي رحمة للعالمين يقول الله تعالى ، لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه :
 ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فإذا ما كان السجود تعبيراً عن التطامن والتذلل - وذلك معناه الصحيح - كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله ، مسجاةً وعبادة ، وكان بذلك سبيلاً إلى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة وهو القرب من الله يقول الله تعالى في كتابه العزيز :
 ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه ، في هذا المعنى : « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، ولقيمة السجود الكبيرة . عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود فصلاة الضحى ، يسمونها : « سجود الضحى » .

ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يعبرون عن خضوعهم لآياته واستجابتهم لأمره ، يقول الله تعالى :
 ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون ﴾ .

والذين هداهم الله ، واجتباهم :
 ﴿ إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾

ومن صفات عباد الرحمن ، التي يذكهم الله بها أنهم : ﴿ يسبتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ .

٢

على أن حادثة من الحوادث نصها القرآن في غير ما موضع منه ، تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعاني الخاصة بالسجود ، تلك هي حادثة آدم والملائكة .

﴿ وإذا قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فسجدوا له ساجدين ﴾ .
بهذا البأ ، حدث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيبرؤه سبحانه ، وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ .

لم يشذ منهم أحد .

وكان من بينهم - مختلطاً بهم - إبليس - وهو كائن يختلف عن الملائكة ، وعن الإنسان إنه من فصيلة الجن .

وكان بعد مع الملائكة ، وبسبح معهم ، حتى كان يلقب « بطاووس العباد » لكثرة عبادته وتفايه في العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهي بالسجود ، لم يسجد ، لقد أتى ، والإباء ضد السجود واستكبر ، والاستكبار : ينفي الخضوع .

ويتحدث القرآن عن ذلك في صراحة فيقول :

﴿ إلا إبليس أتى أن يكون مع الساجدين ﴾

ويقول سبحانه أيضاً .

﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾ .

هذه قصة معروفة ، عمر عليها فلا يكاد تعبرها التفاتاً ، بيد أنها حديرة بالتأمل والاعتبار .

والقصايا التي يريد أن نذكرها عظة واعتباراً ، وهي في نفس الوقت ذات دلالة عميقة هي ما يلي :

١ - لقد صدر أمر إلهي بالسجود . فاستجاب له طائفة ، فعموا برضوان الله ، ومنذ فرد ، فطرد من رحمته سبحانه .

٢ - إنه طرد . لأنه لم يستجب للأمر الإلهي مع علمه بأنه أمر إلهي .

٣ - وكان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه . وعن تمرد في فطرته .

٤ - لم تلغ عبادته كبرياءه ، فهي إذن لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت خضوعاً ، لنفى الكبرياء وأزالته ، هي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح . لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان .

٥ - هذا الكبرياء . كما تمش في مخالفة الأمر الإلهي ، تمثل في المحاولة التي أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمعقده وعقله قائلاً .

﴿أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ .

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ومنطق الكبرياء ، فسجوده لآدم ، ليس عبادة له ، وإنما هو عبادة لله . لأنه خضوع لأمر الله . وحسب .

٦ - والموقف السليم ، إذن هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل تعبيرها من أنه عند الأمر الإلهي . يجب أن تكون الاستحانة عورية ، هذا هو ما ترشد إليه في صراحة كلمة : «إذن» في قوله تعالى :

﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾

ومن الطبيعي أن تكون هذه الفورية في كل أمر بما يناسب وضعه الرماني والمكاني .

٧ - والقضية الأخيرة التي نحتم بها هذه القصايا ، أو هذه المفاهيم المستتجة من القصة هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك ، إلا التصريح الصريح ، بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقى في مدارج السمو الروحي ، درجة فدرجة ، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن .

ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، أن يختلف علماء الإسلام في المفاضلة بين الإنسان والملك .

ذلك أن لفیوضات الإلهية على الإنسان ، لا تنتهي إلى حد :

« ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن »

فباب الفيوضات الإلهية إذن مفتوح على مصراعيه ، والقرب من الله ميسور .

وإذا ما سجد الإنسان لله ، رفعه الله إليه ، وقربه منه ، وغمره برضوانه . أما المبدأ الهام ، الذي نريد أن نجعله كل مؤمن نصب عييه ، فهو أن الإيمان ليس معرفة وحسب . ذلك أن إبليس كان يعلم علماً يقينياً أن الله مرحود ، وقد علم فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم . . . ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

إنه يصدق بأن لا إله إلا الله ، ويصدق بأن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله ، ومعرفة هذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد عن معرفة

كثير من المؤمنين . .

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة محسب ، وإنما هو خشوع واستجابة إله مسجود ، فإذا لم يتأت السجود فلا إيمان^(٦) .

لقد كان سعيد بن جبير - رضى الله عنه - يقول : « ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود » .

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السجادة » لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن - ليكون على النقيض من إبليس ونحتم هذه الكلمة بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله - معه في حال حياته وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته : ﴿ سِيَاهُمْ فِي أوجوههم من أثر السجود ﴾ : إنه النور الذي يشرق على جباههم لسجودهم لله وحده ، وهو النور التي ستكون في وجوههم يوم القيامة من أثر خشوعهم لله .

٣

ويتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره - سبحانه وتعالى أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل ، إنما هي : كبرياء ، وهي إبليسية وإذا كان لإبليس خلفاء من بني آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا

(٦) يقول الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك بما شجر بهم ثم لا يحولوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

ويقول ، ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تباعاً لغيره ﴾ ،

بدور إبليس في اجتماع الإنساني . بهم هؤلاء الذين يرفضون الوحي الإلهي
جملة ، أو يحاولون أن يزئوا الوحي بميران العقل ، فيرفضوا ويقبلوا ويؤولوا
ما شاء لهم الهوى ، ويوفقوا ويلحقوا ، ويوحداوا يعقولهم المآرق التي يرعموها
مشكلات بطريقة عقلية - ثم يحاولون الفرار منها .

وحلفاء إبليس هم أولا وبالذات : الملاحدة :

إسهم على سق التعبير الحاربي : إبيسيون أكثر من إبليس ذلك .
أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعث ولا رسالة ، ولكن هؤلاء
نكروا كل ذلك ، ففارقوا رعيهم ، ولكنهم يتفوقهم على زعيمهم قد أرسوا
عروره ، ذلك أنه حاصب الله قائلاً ﴿ لأقعدن لهم ﴾ (لبنى آدم) صراطك
استقيم ، ثم لآتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن
شمالهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴿ .

ولقد بحج إبليس نجاحاً تاماً في طائفة الملاحدة

والإلحاد درجات : وأحسن درجات الملحدين لاشك ، إنما هي درجة
هؤلاء الذين اعتقدوا - على حد تعبير الغزالي - « أن العام لم يرل موحوداً
كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يرل حيوان من النطفة ، والمطفة من
الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً » .

وإذا ما سأبت هؤلاء : « أخلقوا من غير شيء » ، أم هم الخالقون ؟ كانت
حيرتهم في الإجابة كافية في البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، وأنهم
ليسوا إذن إلا عبيدا لإبليس
وهناك الإلحاد بإنكار البعث . . .

والإيجاد بإنكار الرسالة . . .

بيد أن هؤلاء وأولئك وتلكم يصدق عليهم .

﴿أفأنت من اتخذ إلهه هواه ، وأضلله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة : فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟﴾ والطريق
الذى يتقده هؤلاء نفوسهم وقلوبهم إنما هو لبادة بالسجود لله لا للهوى
المردى ، فيتكشف الله لهم فى كل شيء وتظهر لهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم
حتى يتبين لهم أنه الحق وإن من أحدث اختراعات إبليس فى هذا الزمن
الحاضر إنما هو المذهب المسمى ، الوحدوية وهو مذهب يدعو كل إنسان أن
يحقق وجوده حسبما يرى وتبعاً لما يريد ، غير متقيد بعرف ولا عادات ولا تقاليد
ولا دين ولا أوصاف أبائهم ، وهو إذن يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقرم على
أسس ثابتة ، ولا ينتهى إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودى هو ما قاله
أحد كبار الكتاب العربيين :

« إن الوجودى مثله ، كمثل الكلب الذى يجرى دائراً حول نفسه يمسك
بدنبه ، فلا يدرك دبه وهى لعبة تنعبها الكلاب ، حينما يحدون الفراغ فيلهون
بما لا نتيجة له » .

على أن المذهب الوجودى قديم . إذ أنه المذهب السوفسطالى اليونانى ،
وهو مذهب يظهر دائماً فى عصور الانحلال ، وفى البيئات المحلة ولا وجود له
فى عصور الجدة ولا فى البيئات الجادة : ذلك أن المجتمعات الناهضة الجادة ،
لا تتيح لأفرادها أن ينشبهوا بالكلاب - حينما تلهو الكلاب - فى الجرى وراء
أذنانهم ليمسكوا بها .

فالوحدوية ، إذن اختراع إبليس ، لإخراج طائفة من البشر عن نطاق

السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

وحلفاء إبليس ثانياً هم : طائفة الفلاسفة العقليين الإلهيين
ذلك أن الفلسفة العقلية - مهما حاول المتفلسفون تزييف أهدافهم وتزيين
عماياتها - ليست إلا محاولة لتحكيم العقل بما أتى به الوحي أو بتعبير أدق هي
محاولة لإحلال العقل محل الوحي .

وهي من غير ما ريب تريد أن تختزع عقلياً ما فرغ منه الوحي في قصداً
ومصادته ، إنها تريد ابتداع دين عقلي بجوار الدين الإلهي ، وهذا للدين العقلي
يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف في هذه القضية
أوتلك مع الدين الإلهي .

فإذا كانت البيئة متشعبة بالدين الإلهي ، يغمر قلبها الإيمان ، ويعمر
وجدانها الهداية ، حاول المتفلسفون في طريقة إبليسية - أن يوفقوا بين الدين
والمسلة .

ومعنى هذا : أنهم يجعلون موقف احتراعاتهم العقلية بالنسبة للدين ، موقف
الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخطئهم التوفيق ، فيها يأتون وما يدعور ،
ذلك أنهم قلوبهم وأفتلتهم - هواء

وإذا كان الاتفاق بينهم هم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم ،
وشكوكهم وأوهامهم ، وبين لوحي والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل
لا يسير في ركابه إلا أتباع إبليس .
والفلاسفة إذن ، لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله ، إلا شكلاً فإنها ، طائفة المعتزلة من
علماء الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإدعان ، ومذهبهم قائم على

تحكيم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ومحرمون عليه إتيان بعضها ، سبحانه وتعالى ، فوضعوا أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله سبحانه يلزمونه سلباً ، ويلزمونه إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى : ﴿ أفمن ربي له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ﴾ . ثم إنهم خاصوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه ، كالدات الإلهية والصفات وكالقدر

وكان لابد وقد اتبعوا أهواءهم أن يختلفوا ويتفرقوا ، وتذهب بهم الأهواء كل مذهب : فكانوا فرقاً وأحزاباً شتى ، لا تكاد تدخل تحت حصر . وكل من نهج النهج العقل - أي تحكم العقل - في الدين في العصر الحاضر ، إنما هو تابع للمعتزلة ، وكل مدرسة من هذه القليل في العصر الحاضر إنما هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها : ذلك أنها تصع قضايا الدين . . في ميزن عقلها فتنبى وتثبت ، حسبما تقتضيه الظروف والملايسات أي حسبما تقتضيه الأهواء والتزعزعات . والمدرسة العقلية في الدين ، أيما كانت وفي أي مكان وجدت ، وفي أي زمان نشأت :

لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت لعقل وعبدت العقل فتفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق : ﴿ ومن يشع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ﴾

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين في

العلم ، إذ الراسخون في العلم هم دائماً مؤمنون ، ساجدون لأمر الله ، وإليهم
تشير الآية الكريمة :

﴿ أَمْ هُوَ قَائِمٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً ، يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ، وَيَرْجُو رَحْمَةً
رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ .

ومن البديهي أن المؤمن الحقيقي ، هو وإبليس على طرفي نقيض ويرسم الله
سجانه وتعالى ، صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الإيليسية على
تفاوتها واختلافها ، ويبين جزاءها عده فيقول سبحانه

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجْداً ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ،
وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ،
وَمَا رَرَقَنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . فَلَا تَعْمَ نَفْسٌ مَّا أُحِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾

هدا وبالله التوفيق .

فصل الثالث

التصوف والمعرفة

- البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث
- في وسيلة المعرفة .
- التصوف والشك .
- الشك ومدارج السالكين .
- الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة .
- مشكلة المعرفة الصوفية .

البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد ما يصبط تاريخ نشأة الأبحاث في المعينات ، ولكنا قد لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة الإنسان ، على ظهر السبطة .

وقد لا يعدو لصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها على مر الزمن ، قد اختلفت ، فيما يتعلق بمساح البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .

وقد انتهى الاختلاف إلى النتيجة الحتمية وهي أن يكون شاملا لكل المساتير ، فمن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق عام ، يفرق في الوهم ، ويمتد في لصلال ، حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه . وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصيها العدد فمن تشبيه مطلق ، إلى سريه مطلق ، إلى تشبيه يشوبه التنزيه ، أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول ، إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبحث اختلافها الدوار في الرأس ، وتبحث براهينها الشك في جميعها ، إلا من عصم ربي ، فوفقه إلى طريق الرشاد .

أجل إلا من عصم ربي ، ذلك أن اتساع لطريق السوى ، توفيق من الله ، وليس هو اكتساب العبد^(١) ، فالحوول مثلا - عقيدة راسخة ، آمنت

(١) قال الله تعالى (من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء)

سها البيئات المسيحية - وفيها من أساطير المفكرين ما لا يحصى - منذ ألى سنة والنشيه آمس به كثيرون

ووحدة الوجود بالمعى الفسى ، لها أنصارها المتحمسون ها ، الذين يرون أن ما عداها لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوحدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت في فترة من الزمن ، أو في بيئة من البيئات ، وكل بيئة تعتقد أن ما لديها خير ما أخرج لداس - وكل حزب بما لديهم فرحون .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة ، فهو صراع دائم ، تنهات فيه الأدلة ، مشخنة بالجراح ، ولكنها تأتي - في عطرسه - أن تعترف بالهزيمة . فتأحد في تصميم حراحها ، لتعاود النزول من جديد ، ولتنهار - أيضاً - من جديد . ولو سرنا حقيقة في المنطق إلى غايته ، لوصلنا إلى الخبرة ، والشك في كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

ومع ذلك ، فاليفين موحود ، ومها حاولت أن تنكر إشراف الشمس - .دا كانت مشرقة فسوف لا يستجيب لك شخص ما ، وسوف لا تستجيب أنت لنفسك ، وهكذا الأمر في جميع المحسات بيد أن ذلك ميدان ، والغيبيات ميدان آخر .

ربما يقال . إنه من الطبيعي . أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ، وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية ، ومادمت الغيبيات من المعقولات ، فالطريق إلى معرفتها ، إذن إنما هو العقل ، ومادما قد وثقنا بالحس في معرفة الماديات ، فلنتنزم بالعقل في معرفة المنيات .

هذا الخلط من التفكير يبدو موهماً ولكنه محض سهسه ، فالتصور - وهو

أساس المعقولات لا يقوم إلا على الحس ، وإذا جردته من المدركات الحسية ، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر ، ومنها أعرق اشعراء في الخيال ومنها أبعدوا في الوهم ، فابتداعاتهم ، وصورهم المبتكرة ، منتزعة من الواقع والاحتراع . تسبق للمحس على نمط جديد ، ولا فرق مطلقاً بين ذهن المبقرى القد ، وذهن الحاحل العي في أن كلا منها يعتمد على الواقع المحس ، في تصويره ، وفي تخيله .

والصورة المبتكرة من حيث عناصرها - أسطورة من الأساطير ، أو وهم من الأوهام التي لا وجود لها ، ومادام الأمر كذلك . فاتفكير المجرد عن المحسّات معدوم^(٢) ومادامت المسانير لا شأن لها بالحس فكل تفكير فيها لا يؤدي إلى نتيجة .

(٢) منذ سنوات كنت بحثاً عن التحيل أفتعلت منه مايلي . توصيحا لفكره ارتباط التصور والتحيل بالحساب

(١) الخيال والواقع إذا نظرنا إلى العناصر التي تكون مادة التحيل ، فإننا لا نجد شيئاً جديداً ، وكل ما للتمثيل لا يبدو أن يكون شيئاً ، بصورة أي المثل هي وحدها الجديدة لأنها تكون من معنى جسم الأسد ورأس الإنسان - فليس ذلك بجديد

وكل ما لم يصح لحواس الإنسان فإنه لا يمكن الإنسان أن تتجلبه إلا إذا شبه ما وقع تحت حواسه ، وما تصور الناس العرب والعقاء والحس والشياطين إلا على مثال ما سبق أن رأوا

وحيثما أراد المسيحيون أن يصوروا جبريل ، صوروه على صورة رجل له جناحان وتوزع جمهور المسلمين فيما يتعلق بالله فقاروا : « كل ما خطر ببالك فانه بخلاف ذلك » إذ أن كل ما حطر بالإنسان لا يمكن إلا أن يكون مادياً محساً ، وكما قال الله يقتضي تنزيهه عن المادة وعلائقها

أما هؤلاء الذين قصروا تفكيرهم فاقهم بحيلوا الله - جل وعز - على صورة رجل صحم ولعل الكثير قد قرأ حكاية ذلك الرجل الساذج الذي حصر محساً من محاسن المتزلة . فسمعهم يتحدثون عن الله ويقولون : « إنه سبحانه ليس بفوق ، ولا تحت ولا يمين ولا شمال ، ولا خلف ، ولا أمام ، وليس بمادة ولا بعرض فمخرج تائراً يعني أن هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا : إنه ليس في =

لقد أطل العلماء في بحث الآراء الموضوعية والآراء الذاتية . ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلاً : ذلك لأنها تعتمد - الاعتماد كله - على الحس . أما الآراء الذاتية - وهي قائمة على أسس أخرى - : فإنها محال للأخذ والرد ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة منها طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق ، هي الميدان المحصن للآراء الذاتية ، فإن الإلهيات - وهي حجب ومساتير - ميدان أحصص لذلك لا يعدو البحث فيها أن يكون « علماً كلامياً » ، أو « علماً جدلياً » .

ومها أشاد المعتزلة بالعقل ، ومها رفعوا من شأنه : فمن البديهي : أن

= السماء إله ، هذا الرجل الساذج لم يمكنه أن يتخيل موجوداً حالياً من الهضات ولم يمكنه أن يفهم ما لم يتجمله « فاحتقد » أن المعتزلة يكرهون الله

هذا ، وحاول أن يتخيل أنت ما في الجنة تماماً لا عين رأيت ولا أذن سمعت ، فإنه سوف لا يحطرك على قلب ، ذلك أن ما يحظر على القلب ليس شيئاً آخر غير مآثرته العين ، أو سمعته الأذن

ثم إذا كنت قد قرأت « قبل عن مدينة المستقبل ، وما كتب عن المدينة الفاضلة فقد رأيت أنه بوضع إرادة الإغراب أو التجديد . لم تخرج تلك المدينة عما رأيت ، سوى أنه مكون لكوناً جديداً

لا يخرج الخيال إذن ، في حاضره عن الواقع ، ولا يمكن الإنسان أن يتخيل إلا المحس (ب) التحيل والبيئة : إذ قرأت تشبيهاً للعالم بمرآة غير آس ، وللشعيرتين التشابهيين بأنها كخفي

بغير فلا أظن أنه من العسير عليك أن تعلم الموضع الذي نج منه هذان التشبيهان ، وربما تكون قد قرأت ما أجاب به ابن الرومي ، حيناً عاب عليه بعضهم بأنه لا يتخيل كتنخيل ابن المعتز ، ضاربين به مثلاً ،

تشبيه الخلال « برورق من عصاة أثقلت حمله من حنبر » فأجاب هذا بصعب آية بيته . وأظنك تفرمى أيضاً ، أن البيئة العلمية في العصور الوسطى لم تكن تسمح باختراع الراديوفلم بخرع

هذا ، وكثير غيره يرشدنا إلى مآل البيئة من أثر على التحيل ، وأن كل إنسان يتأثر بما في بيئته من صور طبيعية ، ومن ثروة ثقافية . الأمر لا يقتصر على ذلك ، بل يتعمق بحيل الشخص بتعمق بيئته

وكما كثرت النمل في بيئته ، وكما سمع موازيتها الأخلاقية ، كلما كثر الرشد فيها وابتعد الخيال عن دائرة الآلام .

الميدان الذي يتحبط فيه العقل تحبطاً لا نهاية له : إنما هو ميدان وراء الطبيعة .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة ، على ما فيه من روعة ، ودقة ، وجمال ، وعلى ما أداه من خدمات جليلة ، في ميدان المنطق الديني ، لا يقوم على أساس « معقول » .

قد تقول . إن العقل هو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقليين عموماً - له مقاييسه وله موازيه التي لا يتطرق إليها الخلل . إن المنطق ، القديم منه والحديث : آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير ، ولقد حاولت الإنسانية جهاداً طويلاً ، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، والتميز بين الحماية والعمياء ، والصواب والأصوب .

فالاستقراء والقياس - إذن - هما وسيلة العقل ، وهما يفصل التفرقة بين الغنى والرشاد ، فمن التجنى على المعتزلة وعلى العقليين - وقد اعتمدوا عليها - أن نصم مذاهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم

إن وجهة اسطر هذه تبدو ، وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتنهار .

أما أولاً : فلأن المعتزلة أنفسهم ، والعقليين عامة - مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس - قد اختلفوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شعبة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معينة تختلف في قليل ، أو في كثير - عن نتائج استقراء آخر وقياس مختلف .

وأما ثانياً : فلأن الفكرة - لمنطق يعصم الذهن عن الخطأ في التفكير أو لمنطق وسيلة التفكير الصحيح - فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقية وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن المقاييس هي كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء - وهو أساس المفاهيم العامة والقضايا الكلية - فإنه :

- ١ - مبنى كله على الحس إنه استقراء محسّات ، إنه تتبع جزئيات ، لا تخرج عن نطاق المادة ، أما المسانير فهو بعيد عنها كل البعد ، إنها لا تدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يحترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .
- ٢ ثم إن الاستقراء : تام^(٣) ونافص والتام - كما يعترف المناطقة لا ثمة له ، ولا فائدة فيه .

أما الناقص وهو المهم في نظرهم فإنه في رأيهم أيضاً غلبي وهو لذلك عرضة للتغيير ، في كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعدن لم تكشف ، بعد ، بأكملها ، ومن الخاطئ أن يكشف في المعدن لا يتمدد بالحرارة ، إنها إذن قضية مؤقتة ، ظنية يتبرأ منها اليقيني الفلسفي .

« والعلم لا يعرف الكمية الأخيرة في مسألة من مسائله - وإنما حقائقه كلها إضافية مؤقتة ، لها قيمتها حتى يتكثف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يعبرها »^(١)

(٣) « الاستقراء » وهو حكم على كل لوجوده في جزئيات ذلك الكل إما كلها : وهو الاستقراء التام الذي هو القياس المقسم وبما أكثرها . وهو الاستقراء المنهوي ، ومخالفته للقياس ظاهرة لأنه في القياس يحكم على جزئيات كل لوجود ذلك الحكم في الكل ، فالكل يكون وسطاً بين جزئيه ، وبين ذلك الحكم الذي هو الأكبر ، وفي الاستقراء يقلب هذا فيحكم على الكل بواسطة وجود ذلك الحكم في جزئياته ، من « البصائر الصغيرة » .

(٤) مقدمة فجر الإسلام .

وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها :

١ - خاصة بالطبيعة ولا شأن لها بما وراءها .

٢ - ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ - فإنه مبني على الاستقراء إذ هو منطوق دائماً على كلية استقرائية ،

ومادامت قضايا الاستقراء ظنية - كما رأينا - ومبدأها المحسوسات ، فتتألف القياس ظنية كذلك ، ومبدأها المحسوسات .

٢ - ثم إن المناطقة لا يشترطون في مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ،

صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب وقد تكون - كما يقول : صاحب البصائر النصيرية - « منكرة » كادبة في نفسها ، وفي هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ، ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟

ما قيمته إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط

الإنتاج ، بحيث تستنزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟

ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى الاستقلال الفردي ، وكل

ما يؤدي إلى الاستقلال الفردي مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ، وكل

ما يؤدي إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد

للمجتمع - كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً ضد المناطقة ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان ١ ١

٣ - ومع كل هذا فالقياس استدلال دوري فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة في محو قولنا : محمد إنسان وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق متوقف على العلم بالكبرى والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقة على جميع أفراد النوع الإنساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت لناطقة لمحمد ، ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقة على جميع أفراد الإنسان إذن تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس استدلالاً دورياً فاسداً فلا يعول عليه .

٤ - وأخيراً ، فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الحدة ، إنها استنتاج مجهول هو النتيجة ، من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمنة في المقدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس لا يؤدي إذن إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم . إنه إذا أردت الدقة - استنتاج معلوم من ... معلوم .

تلك هي موازين العقل ومستريد الأمر أمر قصور العقل - إيضاحاً في فصل ثال وهي موارد لا غناء فيها ، ولا جدوى منها .
العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت في التشريع ، فإن التشريع داخل في نطاق الأخلاق .

بيد أن الأدبان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً فيما يتعلق بتحديد الخير والشر ، فإنها ، في المغييات لم ترهق الإنسان من أمره عسراً ، فتوضح له ما ليس في مقدوره إدراكه ، أو تبين له ما يسمو عن التبيين .

أما هذا الذي يسمو عن التبيان ، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذي لا يدخل في نطاق المحسّات ، وبالتالي لا يدخل في نطاق العقليات : أعني : المساتير .

وإنه ليعجبني في هذا المقام قول ابن عبد البر : المتوفى في سنة ٤٦٣ هـ :
إن الله ليس كمثله شيء : فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر .

لذلك رسمت الأدبان في هذا المحيط إطاراً عاماً فقط ، وهذا الإطار العام نفسه مبني بعضه على الحس ، وهو داخل في نطاق الآيات المحكمات التي هي :
أم الكتاب : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾

والعامى يقول عن المشاهدة « المركب التي فيها رئيسان ترقى » .
أما بعضه الآخر فهو المتشابه ﴿ فأما الدين في قلوبهم زيع فيشبعون ما تشاه منه ، استغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقة إذ تقول .
« محال على من يهني ، أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يهني » .
رسمت الأدبان إطاراً عاماً ، ولكن هذا الإطار لا يرضى النفوس الطلعة ، التي أمت خطأ - أن نعترف بحدود للعقل ، أو بقصور فيه ، فبحثت داخل هذا الإطار ونخارجه ، فكان ما كان من شعب ، وفرقة واختلاف

إننا لا نشك في أن رؤساء الفرق الإسلامية - معتزلة كانوا أو أشاعرة ،
وشيعية كانوا أم سلفيين قد تشبعوا بإيمان راسخ ، وحرارة دينية فائقة ،
وعقيدة لا ترعزها الأعاصير .

وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة ، كتاب الله ، وحديث رسوله .
فلم كان الاختلاف ؟ ولم هذا الشعب الذي لا ينتهي ؟
لسنا - في تحليل ذلك - أمام مشكلة لا تحل ، إذ الشأن في ذلك إنما هو
الشأن في كل الآراء الذاتية ، التي لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصي وحده .
ولو استقامت أمور المسلمين الدينية ، لما حادوا عن موقف الإمام مالك :
التسليم المطلق :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

* * *

آراء ذاتية داخل الإطار العام ، آراء هي من صنع البشر ، آراء تتحد في
سببها - من حيث القرب والبعد - إلى النصوص المقدسة بها « آراء »
يبد أن النزعة التي صدرت عنها هذه الآراء - وهي الاستعداد الشخصي :
نزعة مفرقة .

ثم إنها آراء غير مفهومة ، وكل من عالج في إخلاص تصور صفات
خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هي الذات . فإنه يقر معنا : أن ذلك
إنما : علمه عند ربي .

إن الطريق الأقوم - إذن - هو التسليم المطلق .

وهذا هو الإيمان بمعناه لصحيح .

يقول الإمام العراقي :

« والتحقق بالبرهان علم ، .. »

وانقروا مع التسامح والتجربة بحسن الظن : إيمان .

ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .

لا شيء إذن مما سبق من وسائل المعرفة - يصل بنا إلى المعرفة المباشرة في

محيط ما وراء الطبيعة .

وتلك هي التبيحة التي نريد من كل ما سبق الوصول إليها .

وإذا أردنا تلخيص ما نريد أن ينتهي إليه قلنا .

١ - احسن عاقل عن الوصول بنا إلى المغيبات ، فإنتنا لا نحسها

٢ - العقل - وهو مبني على الحس قاصر كذلك .

وإذن فعلم الكلام الذي لا يسير على نهج سفي - وهو آراء من صنع

البشر - ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة . وهو عث ، وهو انحراف عن

سواء السبيل

قال الإمام مالك . لكلام في الدين أكرهه ، وم يزل أهل بلدنا

بكرهونه ، وينهون عنه : نحو الكلام في رأى جهنم ، والقدر ، وما أشبه

ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .

وقال الإمام أحمد . لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا يكاد ترى أحداً ينظر

في الكلام إلا وفي قلبه دغل .

وقال الإمام مالك . أرايت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل

يوم يدين جليده ؟

هل معنى ذلك . أن المعرفة فيما يتعلق بالإلهيات غير ممكنة ؟

هل معنى ذلك : أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن المحجب ؟ وأنه

لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟
ذلك ما لا نقول به .
ما السبيل إذن إلى المعرفة ... ؟

في وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، معجزة التاريخ ، وهو
المباركة التي يهتدى بها الإنسان كلما انبهت الأمور ، أو ضللت الآراء
وحياته قبل البعثة كحياته بعدها - : عظة وعبرة ، وهداية ومثل أعلى لمن
أراد الصريق الأنوم .

إن من يتدبر حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، قبل البعثة ، ولا يكون
عنده فكرة صحيحة عن النبوة ، من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً ، وإنما
توهب من الله تعالى . يكاد يعتقد أنه اقتنص اقتناصاً ، واصطره إلى التزول
اضطراباً ، وأنه أنى إلا أن يظفر بما يريد ، فكان له ما أراد .

بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله على العالمين ، عندما حان
الموعد الذي حددته العناية الإلهية لتتحلى ، عن طريق اختياره رسولا .
يقول الإمام المراغي رحمه الله :

السورة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح
للمستعد لها ، القادر على حملها : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .
ومحمد ، ﷺ : أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ،
إنسه وجته .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .
ولأن يختم به الأنبياء والرسل وليكون شمس الهداية وحده ، إلى أن تنفطر

السماء ، وتكدر المجوم ، وتندر الأرض غير الأرض والسموات (٥) .
أما هذا الإعداد ، فقد حاظه الله بعنايته التامة ، إنه أعده من ناحية
أسرته أعنى من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية مظهره . أعنى طبيعته
الشخصية

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده عبد المطلب كان « سمح الطبع رضى
النفس » سحى اليد ، نحو العشرة ، عبد الحديث وكان عبد المطلب أيضاً
قوى الإيمان تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه ، بزعة دينية حادة عفيفة ، ولكنها
غامضة ، يحسها ، ويحصر لها ، ولكنه لا يتسببها ، ولا يستطيع لها بها
ولا تفسيراً (٦) . . .

« كان فتى من هيبان قريش ، ولكنه يمتار من بقية فتيا قريش » :
فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إناؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ، لم تكن
مألوفة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، قلما كانوا يرضونها ، أو ينسمون بها
على أن حصة أخرى ميزته مهم أشد العييز : فلم يكن يصدر في حياته كما
كانوا يصدرون - عن الروية والتحكير ، وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى
العمل ، والاضطراب في الحياة ، قوة خفية ، يحسها ، ويأق عليها ويغلو في
الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ، ويصدر بأمرها (٧)

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل
حياً وكأماً إرادته الخاصة ، فد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع

(٥) من مقدمة « حياة محمد » للدكتور هيكل

(٦) انظر كتاب « على هامش السيرة »

(٧) انظر كتاب « على هامش السيرة »

عنها بصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حياً آخر شخصاً ، واضح المحاليل ، بين الصوت ، يلم به إذا اشتمله اليوم ، فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمور .

وكان في هذا الصوت عموص ، وكان في هذا الصوت إبهام .

وكان في هذا الصوت حلال مصدره هذا العموص والإبهام ، وكان الفتى ينكره ، ويرتاع له ، وكان الصوت يسمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا لصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجيب الفتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الإبهام وم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بألفاظ كالتي تقع في أذان لناس ، إنما كان بصطنع ألفاظاً خاصة ، عرصة الخرس ، غريبة للمعنى ^(٨) هـ .

أما والده - عبد الله - فقد كان صوره طين الأصل من حده ، وكان شعاره : «أما الحرام فاللمات دونه» .

وتقول له فاطمة الخشيمية : إني لأعرف منك منك أهلك

قبيلته : قريش : وأسرته : بنو هاشم ، وجمده . عبد المطلب ، سيد قريش إذ ذاك ، ووالده عبد الله : فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه ، تعالى : اصطبعه لنفسه ، قبل أن يختاره أجل ١ وهذه الفترة من حياته التي سقت البعثة . كانت فترة جهاد وصراع روحي هادئ بكل معنى الهدوء ، عيب أشد العيب ، مستمر لا يقطع ، فيه الخوف ، وفيه الرجاء ، وفيه الكثير من الأمل الوائب . الذي يشهد العريضة ، ويسد على اليأس القانط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت - على حد

(٨) انظر كتاب «على هامش السيرة»

تعبير لحيد في تعريف التصوف - عنوة لا صلح فيها

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتوح كل عام ، جهاده الروحي المتصل ،
شهر يقصيه في عار حراء : حيث الخطوة التامة ، وحيث التجرد المطلق أو شبه
المطلق . عن كل ما سوى الله ، وهماك في سحرة الليل ، أو في رابعة النهار :
يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يحترق المستير ، وأن ينفذ بصيرته إلى عام
الغيب فيصل إلى سدره المستهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، حتى يشاهد الخيال
في سنائه ، والحلال في عظمته وكبريائه وحلاله .

ها هو ذا الرسول ﷺ ، يبذل مجهوداً حاراً ، لا يكاد الإنسان
يتصوره ، فضلاً عن أن يأتي بمثله
وها هو ذا ، يرى الهدف بعيداً لا يكاد الإنسان يفهمه ، فضلاً عن أن
يصل إليه .

ها هو ذا ، يرى الطريق وعثاء ، صعبة المرتقى يد أن ذلك كله لم يكن إلا
ليريد عزمًا على عزم ، وإرادة على إرادة . ونشاطاً مضاعفاً
إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور ، عن جهاد النفس
لتركى .

وتخصى السون ، بطيئة سريعة في آن واحد ، وجهاد الرسول ﷺ ،
لا يفتر حتى أصبح ، أو كاد ، روحاً خالصة ، أو قسماً من نور الله ، وانتهى به
الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام العراقي إنه :

« أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام : حين أقبل على جبل حراء
حيث تتل ، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً
عشق ربه ! »

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعزة التي غيرت مجرى التاريخ :
﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك
الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .
ويقول الدكتور هبكل :

« واحد محمد مه (في التحنث) خير ما يمكنه : من الإمعان فيما شغلت به
نفسه ، من تفكير ، وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه ، وشفاء شغفه بالوحدة .
يلتصم أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه ، من بشدان المعرفة ،
واستلهاهم ما في الكون من أسرارها .

وكان بأعلى جبل حراء على فوسحين من شمال مكة - غار ، هو خير
ما يصلح للانقطاع والحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان ، من كل
سنة ، يقيم به مكثياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ، بمعنا في التأمل ، والعبادة ،
بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتصماً الحق ، والحق وحده .
ولقد كان يشتد به التأمل انتفاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى طعامه ونسئ
كل ما في الحياة ، لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حو به : ليس
حماً

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى غار حراء يتحنث ، وقد امتلأت
نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه وقد أدبه ربه ،
فأحسن تأديبه ، وقد انجبه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة وقد
انجبه إلى الله بكل روحه ، أن يهدي قومه ، بعد أن ضربوا في نيهاء الضلال ،
وهو في نوحه هذا يقوم الليل ، ويرهف دهنه وقبه ، ويطيل لصوم ، وتثور
به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ، ليعود
قضية الصوف المنفذ من الضلال

فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له في رؤاه .

ولقد طالبت به الحال ستة أشهر ، حتى خشيت على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوجة المخلصه الوية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر مخاطرها ، ولا يخاطره : أن الله يهيئ مصطفاً بهذه الرياضة الروحية ، إلى اليوم العظيم ، وإلى الساعة العظيمة ، يوم الوحي الأول ، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة :

وفيما هو نائم بالغاريماً جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال له : « اقرأ » (٩) .

* * *

هذه الحياة التي هداه الله لها - لا علم الكلام ولا انفسفة العقلية - هي التي رسمت لنا الطريق إلى الله : طريق الكشف ، طريق الإلهام ، طريق البصيرة بل طريق المشاهدة . على ما يرى الصوفية .

وهذه الحياة التي علمناها عن الرسول ﷺ إجمالاً : قد فصلها الصوفية أدق تفصيل ، وبينوها بياناً « سيكولوجياً » عاية في الاحكام . يتدرج مع الإنسان خطوة خطوة ، حتى يصل به إلى درجة - لا نقول . إنها النهاية ، إذ ليس لمعرفة الله نهاية - يكون ما بعدها بعيداً كل البعد عن إدراك الصبائع الشرية العادية ، فلا يمكن التمييز عنه بلسان المقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية - معارج القدس ، وسموه : مدارج السالكين ، ومدارج انسالكيين ومنازل الأرواح ، وهو عبارة عن المقامات والأحوال التي يسلم كل مقام منها إلى ما بعده ، وكل حال منها إلى الذي يليه ، حتى يصل

(٩) من حيلة محمد (للكثير مهكل)

الإنسان إلى القرب ، والمشهدة ويستغرق في مكوث يسمو على الوصف
يقول الإمام الغزالي : « ومن أول الطريق تبتدى المكاشفات والمجاهدات
حتى إسم في يقظتهم بشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم
أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال : من مشاهدة الصور والأمثال
إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق »

التصوف والشك

يعرف كثير من الناس التصوف - بأنه المذهب القائل بالإلهام ، ولبصرة ، أو إذا شئت قبل العلم اللدني . أي هذا النوع من المعرفة البقيية ، الذي لا يتصور فيه الشك ، ولا تعث به السعسة .

وإذا كان هذا التعريف غير جامع مانع فإنه - لا ريب - يرينا ما للمعرفة اليقينية من أهمية

تصفية الروح ليس غرضاً من أغراض الصوفية إلا أنها تمهد للاتصال بالله ، ولتنقي المعرفة عنه . ولا ريب أن معرفة تأتي عن طريق الإلهام ، هي معرفة لا يتطرق إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج المنطق ، وأنت تحاول عبثاً ، إذا أردت أن تبحث الشك في نفس لصوفى ، أو أن تحول عن رأيه ، إذ كيف يحيد عن فكرة ، يعتقد أنه تلقاها عن الملائكة الأعلى ، في فترة صفت فيها روحه ، وتطهرت ؟ وكيف يكون على باطل وهو يعمل وفق إرادة وتعاليم عليا سامية ؟ على العكس من ذلك تماماً نرى الشاك . فهو شخص لا يعترف بحقيقة ، ولا يعترف بأن هناك طريقاً يوصلنا إلى معرفتها ، على فرض وجودها ، وعبثاً نحاول أن نقعه بعقيدة ما ، إذ هو لا يقتنع إلا بالشك ولا يرضى عن رأيه بديلاً وإن يدهش لشيء فإما يدهش لعدم اقتناعك بمكرته في الشك يعطيك على صحتها البرهان ، تلو البرهان ، والحجة تلو الحجة حتى تعترف « في النهاية ، بأن رأيه له منطقته .

يقين مطلق من جانب ، وشك عميق من جانب آخر ، اختلاف شاسع ،
بل معارص وبضاد .

ومع ذلك فإن الصوفى ، واشاك ، قد يتفقد فى المبدأ الذى بنى عليه كل
منها اتجاهه . أريد أن أقول ، إن الحالات التى تؤدي بالصوفى إلى التصوف ،
هى - فى بعض الأحيان - نفس الحالات التى تؤدي بالشاك إلى رأيه . هذا من
جهة

ومن جهة أخرى فإن الشك نفسه ربما أدى إلى التصوف .

* * *

كلنا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة . هما الحواس ، والعقل فمعرفة
الشيء نتج عن أنى أراه ، وأحسه ، أو أى أستتجه ، بدليل عقلى .
كثير من الناس ، بل الأغلبية الساحقة منهم يأخذون بمعرفة الناشئة عن
هذين الطريقين قضية مسلمة ، لا تقبل جدلاً ، ولا يحيط بها شك .
ولكن فى العالم أيضاً ذلك الشخص ، الذى يرى أنه ما دامت الحواس
تغطىء هى ليس أهلاً للثقة إلى أن يرى السراب فأحسبه ماء ، وتسيطر على
فكرى صورة من الصور ، وتقوى هذه السيطرة ، فأرى الصورة ممثلة أمامى
والمريض يرى حيالات ، لا حقيقة لها ، والخائف يرى أشباحاً ، ويسمع أصواتاً
لا وجود لها . إن الأمثلة لا تحصى ، وكل يوم ، بل وكل فترة ، تعطى دليلاً
على خطأ الحواس فهل بعد هذا نتق معرفة تأتى عن طريقها ؟ كلا .
بنى العقل ولكن ما قيمته ؟ كل يتسب إليه ، ومع ذلك فلا نجد اثنين على
اتفاق تام .

إن هذه المذاهب الفلسفية التى لا تكاد تعد كلها مبنية على العقل ، وكلها

مؤسسة عليه ، وقائمة به وكلها جدانة أحادة تعرى بقوة أدلتها . وستوى عليك بصرامة مطلقها ، ومع ذلك فلا تكاد تنفق في شيء ما ثم ماذا ؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقلي ، مطلق على أن الأرب لا يلحق بالسلحفة - مهما أسرع في العدو - إذا بدأت السلحفاة قبله وسبقته عنز ، أو مترين ؟

ألم يبرهن أحدهم على أن السهم في سيره لا يتحرك ؟ وأنت نفسك : أليست آراؤك في حالة التشاؤم ، غيرها في حالة أخرى ؟ وفي حالة السرور ، غيرها في حالة الحزن ؟ ثم البراهين ، التي ترى قوتها ، وتعتقد فيها حالة الحلم ليست أقل من أن يقال عنها : إنها براهين عقلية . هكذا إذا أخذت في تعداد الأمثلة على أخطاء العقل ، فأبك لا تكاد تقف عند حد .

* * *

أخطأ الخواص فلا ثقة فيها ، وأخطأ العقل فلا ثقة به ، بهن معنى ذلك أن لا مسيل إلى المعرفة الحقيقية ؟ يجيبنا الشاك نعم ، وسنمكث إلى الأبد محكوما عبنا ، بالجهل ، أو إذا شئت ، بعدم المعرفة الصحيحة . ولكن الصوفي بعد أن سار هذه الخطوات ، ووصل إلى الشك في قيمة الخواص والعقل . وفي قيمة المعرفة الناشئة عنها - يعود فيثبت المعرفة عن طريق آخر : هو الإلهام ، أو البصيرة ، أو العلم اللدني ، كما يقولون . إذن : قطع الصوفي ، والشاك المرحلة الأولى معا ، فوصلا إلى الشك ،

مرضى به أحدهما ، واقتنع بأن لا مطمح وراءه ، وخطا الآخر خطرة أخرى ،
خطاها لا ليصع لنفسه منطقاً ، أو مبهجاً يسير عليه ليعتصم من الرلل الذى توقعه
فيه حواسه ، ويوقعه فيه عقله - كما يفعل الملاسفة - وإنما ليصل إلى معرفة من
طريق آخر ؛ لا يشرب إلى نتائج شك .

للق الآن نظرة على النفس الإنسانية ، فرى أنها لا تحب الإقامة على
الشك . ولا ترغب فى اتخاذ الإلكار مذهباً ، وقاعدة ، وأنها على كثرة حبها
للمعرفة ، وشغفها بالاستطلاع تريد دائماً أن تجعل اليقين قاعدة آرائها ،
وأعمالها .

ونرى أيضاً - أن من أشق أوقات الإنسان ، تلك الفترات التى تصطب
فيها نفسه ، وتتذبذب آراؤه ، ويختلط عليه الأمر .

هذه الحالة تبعث فى النفس الضيق ، والكآبة ، فإذا اشتدت واستمرت
سست أحياناً الانتحار . وأحياناً الحنون ؛ ولكنها أيضاً فى بعض الأحيان ،
تؤدى إلى التصوف .

نعم ! تؤدى إلى التصوف . حيث يجد الشخص ملجأ تستقر فيه نفسه ،
وتهدأ ، وتسكن ، وحيث يجد اليقين ، والإيمان والعلم الثابت
لقد كان « الحارث بن أسد الحاسى » متعطشاً إلى المعرفة ، والبحث
والاطلاع ، وإلى الوصول لرأى لا يعتوره الشك ، إلى رأى يقينى ، ثابت
لا يتزلزل .

ولكنه بعد أن بحث ، راد حيرة - بدل أن يزيد إيماناً - واصطربت نفسه
وخشى أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم : فكذ وجد ، ثم
يش من أن يصل إلى النتيجة .

ولكن الله وعفه في النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين سكن إليهم وأخذ ،
سكن إليهم وأخذ ، لا لأن مطبقهم أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم
بعثت في نفسه الاطمئنان ، وإنما لأن سيماهم على وجوههم تبعث الثقة ،
وتهدى إلى الرشاد .

لندع المحاسبي نفسه بصور حالته - والنص الذي نثبته الآن من مخطوط له
بدار الكتب المصرية ، اسمه : « النصائح » ^(١٠) - وقد تعددت إثبات هذا
النص كاملاً ، لما بينه وبين كلام لغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » من
شبه ، بهم كل باحث في التصوف معرفته :
قال المحاسبي بعد مقدمة موحزة .

« أما بعد فقد انتهى إليا أن هذه الأمة تفرق على بضع وسبعين فرقة ، منها
فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهم ، فلم أرل - برهة من عمرى - أنظر في اختلاف
الأمة ، وألمس المساح الواضح والسييل القاصد وأطلب من العلم والعمل
وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد لعلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل
بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة وبطرت في مداها ، وأقاولها ، فعقلت من ذلك
ما قدر ، ورأيت اختلافهم عمراً عميقاً ، عرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصاية
قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم أن النجاة في اتباعهم ، وأن الهالك من
حالفهم .

ثم رأيت أساس أصنافاً فهم العالم بأمر الآخرة ، لقائهم عسير ووجوده
محزن .

(١٠) طبع الكتاب أخيراً بعنوان « الوصايا » في القاهرة ، (مكنة صيح)

ومنها اجدهل : فالبعد عنه غنيمة .
ومنها المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها .
ومنها حامل منسوب إلى الدين ملتزم بعلمه التعظيم والعلو ، يبال بالدين
من عرض الدنيا
ومنها حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل .
ومنها متشبه بالسالك متجر باخيز لا عناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ولا معتمد
على ربه .
ومنها منسوب إلى العقل والدهاء مفقود الورع والتقوى
ومنها متوادون ، على الهوى يتفقون ، ولدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون
ومنها شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى
جمعها يهرعون ، وإلى الاستكثار منها يرعون ، فهم في الدنيا أحياء ، وعن
العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف
تفقدت في الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذراعاً ، فقصدت إلى هدى
المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم . وأعملت العكر ،
وأطلت النظر .
فتبين لي في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى
يعمى عن الرشد . ويضل عن الحق ويظيل المكث في العمى .
هدأت بإسقاط الهوى عن قلبى .
ووقفت عند اختلاف الأمة مرئاداً لطيب العرقه الباجية ، حذراً من الأهواء
المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذراً من الاقتحام قبل البيان ، والخمس سبيل
النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة في التحسك
بتقوى الله ، وأداء فرائضه والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده
والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسي برسول الله ﷺ .
فطليت معرفة الفرائض والسنة عند العلماء في الآثار ، ورأيت اجتماعاً
واختلافاً ، ووجدت جميعهم محمدين على أن الفرائض والسنة عند العلماء
بالله . وأن الفقهاء عن الله العاملين برصوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين
برسوله ﷺ المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر الله ، وسنة
المرسلين .

فالتفت من بين الأمة هذا الصنف المجمع عليهم والمرصوفين ، أقنوا
آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، ورأيتهم أقل من لقييل ، ورأيت عدمهم
مندرساً كما قال رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ،
فطوى للغريب » وهم المتفردون بعلمهم .

فعمدت مصيبي بفقد الأدلاء الأتقياء ، ونخشيت بغتة الموت أن بهجأني
على اضطراب من عمري لاختلاف الأمة .

فانكشيت في طلبي عالماً لم أجد لي من معرفته بدءاً ، لم أقصر في الاحتياط ولم
أن (١١) في النصيح .

فقيص لي الرؤوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام
الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة
لأفاعيل أئمة الهدى : مجتمعين على بصح الأمة ، لا يرجون أحداً في معصيته ،
ولا يقنطون أحداً من رحمته ويوصون كل واحد بالصبر على الأساء والصراء ،

(١١) أفتر ولم أثبت

والرصد بالفصاء والشكر على العناء ، يحبون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم
أيديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإجابة إلى الله تعالى ، علماء بعظمة الله
تعالى وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابته وسنته فقهاء في دينه ، علماء بما يحب
ويكره ، ورعين في الدع والأهواء ، تاركين التعمق والإعلاء مبغضين للجدال
والمرء ، متورعين عن الاعتياى والطلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين
لأنفسهم ، مابكين لجوارحهم ورعين في مطاعهم وملابسهم وجميع
أحوالهم ، محابنين للشهات ، تاركين للشهوت ، مجتريين بالبلعة من الأقوات ،
متقللين من المباح زهدين في الحلال مشفقين من الحساب ، وجدين من انعاد
مشغولين بئهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن
يعنيه .

عناء بأمر الآخرة وأهوايل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب ، ذلك
أورثهم الحزن الدائم والهم المظنى ، فمشغلوا ، عن سرور الدنيا ونعيمها .
ولقد وصفوا للآداب صفات وحددوا للورع حدوداً ، صاق لها صدرى
وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع ، بحر لا يتجو من الغرق فيه شبيهى ،
ولا يقوم بحدوده مثلى .

فتبين لى فضلهم ، واتضح لى نصحتهم ، وأيقنت أنهم العالمون بطريق
الآخرة ، والمتأسون بالمرسدين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والمهادون لمن
استرشد بهم .

فأصحت راعياً فى مذهبهم مقتبسا من فوائدهم ، قالوا لآدابهم ، محباً
للدعاتهم لا أعدى بهم شيئاً ، ولا أوتر عليهم أحداً .

ففتح الله لى علماً افتتح لى برهانه ، وأنار لى فضله ورجوت النجاة لمن أقر

به أرائته له ، وأيقنت بالغرث لم عمل به ؛ ورأيت الاعوجاج فيس نحله ؛
ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحدته ؛ ورأيت الحججة البالغة لمن
هممه ورأيت انتحاله ؛ والعمل بحدوده ؛ واجباً على واعتقدته في سريري
وانظريت عليه بصميري وجعلته أساس ديني وبنيت عليه أعمالى وتقلبت فيه
مأحوالى

وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على
القيام بحدود ما عرفنى به معرفتى بتقصيرى في ذلك . وإني لا أدرك شكره أبداً ،
انتهى كلام المحاسبى

وليس المحاسبى بدعاً في ذلك وإنما يفتق معه الإمام الغزالى ، بل الإمام
الغزالى أوضح وأدق :

حاول أن تتصور معى حالة الإمام الغزالى النفسية فستجده متلهفا على المعرفة
بحيا للاطلاع والدرس والبحث ، عارفاً في محيط الفلسفة والعلم ، ولكنه مع
كثرة اطلاعه وتنقيبه لم يجد في المذاهب الفلسفية ما يرضيه ولم يجد في الأدلة
العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب ما يقنعه .

ورأى أن من العث أن يبدأ في تأليف مذهب فلسفى جديد ، إذ مصير
ذلك - حتماً - مصير ما سبق من المذاهب التى وإن أخذت بألباب كثير من
الناس ، فإنها لا تثبت أمام النقد الصارم . والتى تبعث التفرقة
إذ ليس فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع .

ليس هناك إلا الشك إذن :

وإى الواقع . لقد شك الإمام الغزالى : شك في الحواس وشك في العقل ،
وشك فيما يتبع عنها :

ولكن نفسه اضطربت ونحل جسمه ، وصاق بالحياة ذرعاً ولم يجد ملجأً
ولا عاصماً من هذه الحيرة وهذا الاضطراب إلا التصوف ، فولج به واطمأن
إليه .

وكتابه « المقتد من الضلال » الذي يقص فيه تطوره الفكري ، يصور
هذا حير بصوير .

وكما يبدأ المحاسبي الحديث : « ستمترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها
واحدة » كذلك يبدأ الغزالي هذا الحديث ، وتكاد بعض حملته تكون مأخوذة
من كلام المحاسبي نصاً : مما دعا بعض المستشرقين إلى أن يذكر : أن الغزالي
في كتابته لكتابه هذا - تأثر بالمحاسبي في كتابته لمقدمة كتاب « الصائغ »
وسواء كان صحيحاً أم غير صحيح فما لا شك فيه أن الإمام الغزالي قرأ هذا
الكتاب ، إذ أنه استشهد ببعضه في « الإحياء » .

والذي يعيننا الآن . هو أن الإمام الغزالي - كما يصور في كتابه - بدأ يشعر
بعدم الاطمئنان حينما فكر في هذا الحديث الشريف ، وحيما رأى أن اختلاف
الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق ،
وتباين الطرق - بحر عميق : عرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ،
وكل هريق يرغم أنه الناحي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

لهذا أخذ الإمام الغزالي في البحث جهد طاقته ، ليصل إلى اليقين « الذي
ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم
ولا يتسع القلب لتقدير ذلك » ثم يقول :
« وعلمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من

اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقيني .

« ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسيات والضروريات » ولكن :

« انتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسلم الأمان فى الحسيات أيضا » .

ثم أخذ الإمام العزالى يذكر أسباب شكه فى الحسات وفى الضروريات وفى العقليات ، وقد ذكرنا طرفاً منه آنفاً

واستمر الإمام على تلك الحانة حتى شئ الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورحمت الضروريات العينية مفصلة موثقاً بها على أمن وبقين

ولم يكن ذلك بنظم دليل أو ترتيب كلام ، بل بورد قدسه الله تعالى فى الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن طرأ أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد صبق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قال :

« هو نور يقده الله تعالى فى القلب » .

فصلى : وما علامته ؟ فقال :

« التجاوى عن دار الغرور ، والإبانة إلى دار الخلود » ، وهو الذى قال عليه

عليه الصلاة والسلام فيه :

« إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره »

فمن ذلك الور : يسعى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الخود
الإلهي في بعض الأحيان ، وبحسب التردد له كما قال عليه السلام :
« إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .
هذا الشك الذي حدا بالغزالي إلى التصوف ، كما حدا بالمحاسبي قلبه ، هو
شك أتى من البحث وراء الحقيقة .

* * *

ولكننا لا نريد أن نقول : إن هذا الخط من الشك هو وحده : أساس
التصوف ، وإنما نريد أن نقول : إن أساس التصوف في بعض الحالات ،
هو شك على نحو ما ؛ سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية ، أو
بالناحية الاجتماعية ، أو بالناحية الوجدانية
فهذا الشخص الذي صدم في عاطفة من عواطفه ، وكثيراً ما تكون عاطفة
الحب ، تلك العاطفة القوية ، الحسنة ، التي تهز النفس هراً ، والتي تؤدي
كثيراً إلى الانتحار . .

هذا الشخص الذي صدم في تلك الناحية ، قد تصل به الصدمة إلى الشك
في كل شخص ، أو إلى الشك في أن يجد مثاله الأعلى في هذه الحياة ، فينتجه
إلى حياة العزلة والافتراق ، أو يعتكف في مسجد ، أو في بيته عابداً مصلياً طالباً
من الله أن يكون عماده ، وأن يكون ملجأه ؛ وأن يصرف عنه السوء .
وهذا الشخص الرفيق المزاج ، الذي يرى في كل آفة ظلم الناس ، وفساد
الحياة ، والذي لا يجد في نفسه القوة على الخلاص والصراع ، والذي يصل به
الأمر في النهاية إلى لشك في المجتمع ، وفي أهله ، يصيق بالحياة درعاً : لا يجد

مفراً من أن يعتكف متأملاً مفكراً في مثل عليا ، أو في حياة أخرى ، أو في ملا
أعلى ، صمت فيه النفوس ونظهرت ، وسمت عن كل دنس .
وهكذا إذا بحثنا في حياة الذين أطلق عليهم اسم الصوفية ، فإننا نجد عدد
البعض نقطة الارتكاز : الشك .

الشك ومدارج السالكين

ولكن تلك الحياة التي يترحمون إليها تلك الحياة الجديدة التي أخذت من
النفس كل مأخذ . والتي اتجهوا إليها في تحمس وحرارة . لا تزال من أنفسهم
الشك بجميع ألوانه .

حقيقة إنها تزال من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية : الشك
في تلك الناحية . وتنسى الآخرين . الشك الذي دفعهم إلى حياة التصوف
دعماً .

ولكن النفس التي تتجه إلى الحياة الدينية في حرارة وتحمس ، إنما تتجه نحو
الكمال من الناحية الدينية ، وهذا الكمال أول ما يبدأ ، يبدأ بالتوبة .
ومن المنقول ، ومن المنطق : أن ذلك الشخص الذي اتجه في تحمس إلى الناحية
الدينية ، يرى في ماضيه كثيراً من الأخطاء ، فلا يهدأ نفسه ، ولا يستقر ،
إلا إذا خضع لله ساجداً ، مستغفراً لنفسه ، طالباً من الله الصفح والرضا .
ولكنه لا يكاد ينحطى تلك الفترة ، إلا ويعرض له الشك في كثير مما يتصل
بعبادته العادية اليومية ، ويكاد يتساءل في كل لحظة أهذا حلال أم حرام ؟
طيب أم خبيث ؟ حسن أم قبيح ؟ يرضى الله أم لا يرضيه ؟ ويتحرج في المأكل
والمشرب والملبس ، وهذا هو « الورع » .

ولكنه مهما تحرج في مأكله ومشربه وملبسه ، ومهما تحمض واحتاط ، فإنه
سيجد دائماً أن ذلك لا يكفي ويشك في كل لحظة ، وآونة ويتدم على ما فات
وتفوى في نفسه الحرارة الدينية ، فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا إن هو

إلا هو ، ولعب وضلال وباطل ، وأن خير طريق - إن أراد الهداية أو الرشد - هو « الزهد » في تلك الحياة ، التي لا تساوى عند الله جناح بعوضة .
« توبة » . ثم « ورع » . ثم « زهد » ، تلك هي - بالتتابع - بعض ما يسميه « الصوفية » : مقاماتهم .

ولكن الكمال - كما قلنا ، ليس له من غاية ، أو من حد . نعم وصل صاحبنا إلى الزهد في تلك الحياة ، ولكن أهذا هو المطلوب ؟ إنه إنسان ، وطبيعته الحيوانية - مهما قويت إرادته - تجذبه إلى الحياة الدنيا ، وترغمه فيها ونبعث فيه السخط على حياته ، ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح ، الذي صور - « المحاسبي » في كتابه : « بدء من أناب إلى الله » ، وفي كتاب « الرعاية » ، تصويراً دقيقاً إلى أقصى حد من الدقة .

هذا الصراع . يبعث في نفس الصوفي اضطراباً لا مزيد عليه ، بل يبدأ الصوفي يشك في نفسه ، وفي قيمته الذاتية ، ويكاد يصل به الأمر إلى أن يعتقد في تحلي المعونة ، أو التوفيق الإلهي عنه ، لأنه ليس أهلاً لها . ونجده في تلك الآونة يبكي ويتألم ويتصرع إلى الله أن يمنحه معونته ، وأن يصفح عنه ، إذا كان قد أخطأ بدون علم منه . ويعترف بأن لا قيمة له في الواقع ، أمام تلك القدرة العظيمة وكل ما يرجوه . أو يأمله إنما هو . أن يكون عبداً وأن يمنحه السيد شيئاً من عنايته أو توفيقه أو رضاه .

يستمر صاحبنا كذلك فترة طويلة أو قصيرة ، وتثور روحه آونة بعد أخرى على الناحية المادية تكبح من جماحها ، وتهدي من ثورتها حتى تصل إلى الرضا .

ولكن أذلك هو الكمال ؟

لم يقل الصوفي ، ولا يمكن أن يقول : إن معنى الرضا هنا انقطاع كل
الرغبات والشهوات ، أو روال الآمال والطموح . كلا ! إنما معناه أن تلك
الشورة التي كانت تودي بصاحبنا . وتعمله يعود إلى حياته الأولى هدأت ،
وانتصرت عليها الناحية الروحية .

وليس السبب في هذا - حسب رأيه - قوة إرادة أو داتية ، وإنما ذلك
توبيخ من الله ، تلك معونة منه أراد به خيراً : أراد به الهداية والرشد .
فماذا يستحق ذلك الخالق الذي أعانه من غير أن يكون ، سخطه ، في
حاجة إليه . والذي هداه من غير أن يكون في تلك الهداية نفع للخالق ، حل
وعلا ؟

إبه إذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كلياً وجزئياً كان مقصراً .
وليس كل التقصير في مرتبة واحدة : لذلك تقصير في حق الإله الذي
منح الحياة . والذي أفاض النعم والذي غمره طمثنان النفس ، وانتشله من
الضلال ، ورفعه إلى مكانة منحه فيها معونته وتوبيخه
ويبدأ اشك في حلجات نفسه ، وهما يلدو . من دقائق الرياء ، ثم ينتهي
إلى الانصراف المطلق - في حدود الإمكان - إلى الدات العليا الكاملة .
ولكن هذه الدات ، مها فكر فيها ، وتأمل ، يجحد دائماً في نفسه الرهبة مها
هيريده ذلك انصرافاً إليها ، ويجحد في نفسه الانصراف إلى الله راحة ، حتى إذا
استمر في ذلك ، محبه الله من فيصه . ونحو لت الرهبة شيئاً فشيئاً إلى حب
عميق ، ثم إلى رؤية الله في كل ناحية ، وفي كل جانب ، أو في كل مكان ، ثم
إلى العناء في تلك القوة ، التي أحدثت عليه سمعه وبصره ، فأعلن أو أسر
الأكل شيء ما خلا الله باطل .

أما بعد : فإنى أعتقد أنى ابتعدت كثيراً فى كل ما سبق . فى موضوع :
التصوف والشك ، عن النص الآتى ، بل أعتقد أن كثيراً مما سبق ، م يكن
إلا شرحاً له .

والنص : للسهروردي ، ذكره فى كتابه - « عوارف المعارف » فى نهاية
الفصل المعنون : « ماهية التصوف » .

قال السهروردي :

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف . تريد على ألف ، ويطول نقلها .
رنذكر ضابطاً يجمع حل معانيها فإن الألفاظ - وإن احتلت متقاربة
المعاني ، فنقول :

« الصوفى . هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يوصل الأوقات عن
شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس .

وبعينه على هذه التصفية ، دوام اعتقاره إلى مولاه ، فبدوام الاعتقار ينقى
من الكدر ، وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته
الناقدة وفر منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جمعيته ، ويحركه نفسه تفرقه وكدره
فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ للهَ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ وهذه القوامية لله على النفس هى

التحقق بالتصوف :

قال بعضهم « التصوف كل اضطرب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف » .
والسرفيه : أن الروح مجذوبة إلى الحصرة الإلهية ، يعنى أن روح الصوفى
منطقة مسجدة إلى مواطن لقرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب
على عقبها .

ولا بد للصوفي من دوام الحركة ، بدوام الاقتدار ، ودوام الفرار وحسن
التفقد لمواقع إصابات النفس .
ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى : « الصوفي » جمع المنصرف في
« الإشارات » .

الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة

١ إن البحث العقلي في الإلهيات أمر طبيعي بالنسبة للمعكرين الدين نشئوا في أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس ، إنه من الطبيعي أن يوحد في هذه الأقاليم رجال يحاولون انتدع مذهب فيما وراء الطبيعة . ذلك أن الإنسان بفطرته طلعة ، وهو يحاول دائماً معرفة العلل والأسباب ، ويتشوف إلى رؤية المجهول ، إلى الكف عن عالم العيب .

أما في البيئات التي فيها نص مقدس ، يحتفظ بنصه ولا يشك إنسان في صحته ، فإنه من غير الطبيعي أن يشأ بحوار هذا النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب ذلك أن ثمرة التفكير الإنساني عرضة للخطأ ، والخطأ في الذات الإلهية أو في الصفات الإلهية ، الخطأ في عالم العيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

الطريق المستقيم إذن هو ألا يشأ بحوار النص المقدس اختراع عقلي يتصل بعالم الغيب تلافياً لما عساه أن يكون في نتائج البحث العقلي من أخطاء . التسليم للنص المقدس إذن هو المبدأ السليم عند دوى العقول الحكيمة ، وقد حدث مرة أن أخذ سقراط ورفقاؤه يتحدثون عن نخود النفس ، ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ، فلا يكاد يستقيم لهم الأمر في يقين جارم ، ثم « يسكت سقراط ، ويسكت الجميع وبعد هنيهة يقول « سيمياس » : إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الحزن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيحب إما الاستيثاق من الحق ،

وإما - إن امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى والتدرع به في اجتياز الحياة ، كما يحاطر المرء بقطع البحر على لوح من خشب ما دام لا سبيل لما إلى مركب آمن وآمن ، أعنى إلى وحي إلهي (١٢) »

المركب الآمن والأمين في رأي « سيمياس » هو الوحي الإلهي ومعنى ذلك في وصوح لا لس فيه : أنه لو كان لدى سيمياس ، أو لو كان في العهد اليوناني نص مقدس صحيح لاستسلم إليه الجميع دون نقاش أو جدل . أما استعمال العقل في عالم الغيب فإنه في أعين الأحياء مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب ، وهيات أن ينجو من يفعل ذلك !

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس متعين في ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للإسلام دون جدال في لعقيدة ودون محاولة عقلية للاختراع فيما وراء الطبيعة ، أو بتعبير آخر ، دون محاولة عقلية لتحديد ما لا يحدد وتقييد ما لا يقيد

٢ - وكان أول انحراف منظم قوى عن هذا المبدأ السليم هو الطريق الذي سلكه واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ومدرستهما . إنهم لم يتعمدوا انحرافاً ، ولا خروجاً عن الطريق السوي ، وإنما خيل إليهم أن عملهم إنما هو خدمة للإسلام وخدمة للمسلمين ، ولكنهم بعملهم هذا حكموا العقل القابل للمخصص في الدين المعصوم ، بل لقد أخذوا في وضع قانون تشريعي يفرض على الله سبحانه وتعالى القروض . لقد أخذوا يوحون عليه ، ويمعنون عليه ، فهو سبحانه على رأيهم يجب عليه أن يفعل كذا . . . ويجب عليه ألا يفعل كذا ، وحكموا ، هكذا عقولهم في الدين وفي الله وما دام عقل كل إنسان يختلف عن

(١٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية .

عقل الآخر فقد انقسمت المدرسة الاعتزالية إلى مدارس ومذاهب لا تكاد
نحصر.

وكانت النتيجة لتحكيم العقل في الدين أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدي
في البيئة الإسلامية .

م يستسلم المعتزلة استسلام المؤمنين المعترف بمعجزه وقصوره تجاه الذات
الإلهية ، كما فعل الصدر الأول ، إنما وثقوا بمقولهم الثقة المطلقة ، فكان من
نتيجة ذلك الشقاق والتفرق .

وحينما بدأ المسلمون في أوائل العصر العباسي يترجمون الثقافات الأجنبية
فإنهم لم يستسيغوا ترجمة الإلهيات والأخلاق ، ذلك أن بقيهم المطلق في نصهم
المقدس جعلهم يستنبطون بكل ما عداه مما يتصل بما وراء الطبيعة أو بالأخلاق ،
وكان موقفهم ذلك سديماً كل السلامة ، ذلك أن كل فكرة أو كل رأى متصل
بما وراء الطبيعة يخالف ما أتى به الوحي ، ما أن يكون خرافة أو يكون ضلالاً
عقلياً ، والحياة الجادة لا تستسيغ إيقاع الزمن في دراسة خرافات أو أوصاليل
عقلية .

ولكن « المأمون » ومن ورائه المعتزلة ، فعوا ما امتنع جمهرة المسلمين عن
عمله ، فترجموا إلهيات اليونان وأخلاق الزناد ، فأصبح بذلك الاختراع العقلي
أو البحث العقلي أو الابتداع العقلي في الدين ، أرسطراطية عقلية يجري وراءه
الكثيرون .

٣ - ونشأ الفلاسفة ، وأخصص الفلاسفة كل شيء لمقومهم ، وأخذوا
يرسمون القواعد ويقيمون الأدلة ، ويتعدون كثيراً أو قليلاً عما فهمه المسلمون
عن رسولهم ، وعما استشعروه من الروح العامة للإسلام على وجه العموم .

والواقع أن إقامة ما وراء المادة على العقل ، بما هو شهوة أو هوى ، ذلك أنه منذ ابتداء العهد اليوناني وهذا النهج من البحث في حقائق متتابع ، وفي فشل مستمر وفي تناقص ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم بعضاً ، ويهدم كل ما بناه الآخرون ، وعلى توالى الزمن تنهار الآراء وتنشأ آراء أخرى لا تليث أن تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلى لهذه النتائج المنهارة باستمرار ، فإن ذلك لم يقم عظة واعتباراً في نظرهم ، واستمروا على الطريقة العقلية رغم رؤيتهم في وضوح مآل محوث سابقهم المتهافة .

٤ - ونشأ الإمام الغزالي ، وكان من توفيق الله أن الإمام الغزالي منح طبيعة طلعة ، ودهناً ثاقباً ، وتفكيراً حكيماً ، وأتيحت له تربية دينية سليمة منذ شبابه الأولى ، وأخذ تفكيره يحول في جميع المناحى الدينية . فلاحظ أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق : بحر صميق عرق فيه الأكثرون ، وما يجامه إلا الأقلون فاقترح لجنة هذا البحر العميق ، وخاص عمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الخدور ، وتوغل في كل مظلمة ، وتهجم على كل مشككة ، وتقحم كل ورطة ، وتفحص عن عقيدة كل فرقة . وكان نتيجة ذلك كله أن فقد ثقته في العلم ، ووجد نفسه عاطلاً عن علم يقيني ، فأراد أن يبدأ من البساطت وأن يجعل أساسه قوياً مثبتاً حتى ينتهي إلى اليقين المطلق بما يعلم .

ولكنه احتبر الثقة في المحسّات فلم تسمح نفسه بالتسليم باليقين فيها وامتنحن الثقة بالعقليات فانهارت العقليات^(١٣) .

(١٣) لنقد من الضلال

ومر إدى الإمام العزالى شجرة قاسية ، هى شجرة الشك فى الحسيات
ولعقليات ، فاستمر على ذلك شهرين هو فيها على مذهب السفسطة « محكم
الحا ، لا يحكم النطق والمقال »^(١٤) .

ثم شفاء الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة
ولا اعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن و يقين .
ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قدوه الله تعالى فى
الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف^(١٥) .

خرج الإمام العزالى من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى بصيرة من
أمره فحاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشفوقين بالمعرفة ، والمتعلمين
إلى الهداية والمستشرقين إلى العلم بالملأ الأعلى .

لقد أراد أن يسلط لطريق الذى برضى اتبعه الله ورسوله ، أراد أن يرسمه
لسحارى والمتعلمين إلى الهدى والشاكنين الآملين فى ايقين . وللمسئرشدين الذين
يريدون أن يتصصوا بحبل الله المتين .

أراد أن يرسم هذا الطريق بعد تجربة مر بها ، رسمه فى ثقة المحرب وفى
إحكام الخبر .

إن الأساس الخادع الذى لا يعدو أن يكون هوة عميقة يتردى فيها الكثيرون
إنما هو إرادة تشييد ما وراء الطبيعة على العقل ، ففى العقل بالنسبة إلى ما وراء
الطبيعة إلا السراب الخادع لذى عرر بكثير من النظامين إلى معرفة العيب .
ثم إن هذا الاتجاه سطر على الدين نفسه :

إنه من جانب انصراف عن النص الإلهى إلى العقل .

(١٤) للنقد من الضلال

(١٥) النقد من الضلال .

ومن جانب آخر إقامة مصدر لمعرفة العيب غير النبوة .
 وفي ذلك لاشك صرح للناس عن التأمل في النص المقدس كمصدر لمعرفة
 لإطيات ، وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة .
 وحكم الإمام الغزالي بكل ما يستطيع على هذا المنهج ، ولم يفتقر قط عن
 مهاجمته مد أن ألف كتابه القيم : « نهات الفلاسفة » إلى أن انتهت به الحياة .
 ولقد كان كتابه هذا محاولة جريئة كل الجراءة ، موقفه كل التوفيق ،
 وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي هجمته هو هدم الآراء في نفسها ،
 إذ أن بعضها صحيح موافق للدين ، وإنما كان هدف الإمام هدم المسح العقلي
 الذي استندت إليه هذه الآراء ، فخلود النفس مثلاً رأى يقول به الإمام
 الغزالي ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معوله وأخذ يهدم بيد قوية
 المسلك العقلي الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس : فاهارت أدلتهم
 وتهاقت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود .
 وهو لم يلتزم في هذا الكتاب « إلا تكدير مذهبهم ، والتعبير في رجوه
 دلتهم ، مما يبين تهاقتهم »^(١٦) ومقصوده « تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة
 وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهاقتهم »^(١٧)
 ويقول : « أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ،
 لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزمامات مختلفة ،
 فالزمهم نارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب

(١٦) نهات الفلاسفة

(١٧) المصدر نفسه .

الواقعية ولا أُنْهَضُ ذَاباً عن مذهب مخصوص^(١٨) .

ويقول الأستاذ « بلاسييس » بحق : « إن الغزالي حيناً سمى كتابه » .
« تهافت الملاسفة » كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنساني يبحث عن الحقيقة
ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أصر شعاعاً
بشبه نور الحقيقة انخدع به فرمى نفسه عليه ، وتهاوت فيه ، ولكنه يخطئ ،
مخدوعاً بأقيسة منطقية حاطنة يهلك كما يهلك البعوض .

فكأن الغزالي يريد أن يقول : إن للملاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها
بلا إعمال روية فتهاقتوا وهكوا الهلاك الأبدى^(١٩) .

• والمعرفة عند الملاسفة العقليين مصدرها إدن العقل ، والعقل وحده .
يبد أن الإمام الغزالي يرى عن تجربة أن وراء العقل صوراً آخر تفتح فيه عين
أخرى يبصر بها الغيب وما يكون في المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها
كعزل قوة التغيير^(٢٠) ، عن إدراك العقولات وكعزل قوة الحس عن إدراكات
التهييز وهناك إدن البصيرة ، وموضوعها الذي ينكشف لها إنما هو الغيب .
وإذا تساءلنا مع الإمام الغزالي عن مراتب المعرفة بالغيب التي هي الإيمان
فإننا نجده يحدد ثلاث مراتب :

١ - المرتبة الأولى : إيمان العوام : وهو إيمان التقليد المخض .

٢ - المرتبة الثانية : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ودرحة

حسماً يرى الإمام - قريبة من درجة إيمان العوام .

(١٨) المصائر نفسه

(١٩) تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة الدكتور أبو ريعة

(٢٠) المنقذ من الضلال

٣- المرتبة الثالثة : إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين .

ولا شأن لنا في حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية ، وهي مرتبة المتكلمين ، وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر ، أو آرياء البحث والاستدلال فإنهم شاركوا الفلاسفة بهذا الاعتناء في مباح البحث ، والإمام الغزالي يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر لا يرى في منهج المتكلمين ما يؤدي إلى كشف الحقائق ، إنه يقول حرفيا عن علم الكلام : « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه ، وههنا ، فلس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخطيط والتصيل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قل له بعد حقيقة الحيرة وبعد التعلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاور ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه المسدود (٢١) . وبرى في موضع آخر أن المتكلم لا يريد على العمى إلا في صفة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاماً (٢٢) .

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى ، وهي مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقين ، إنها مشاهدة روحية ، إنها يقين مطلق ، إنها مشاهدة بنور اليقين ٦ ولكن مشاهدته ماذا ؟ ويقين في ماذا ؟ ما هو موضوع هذه المرتبة ؟ إنه - إذا أردنا الإجمال - الغيب .

(٢١) الإحياء ص ١٩٨

(٢٢) الإحياء ص ٨٧

أما إذا أردنا شيئاً من التفصيل فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع العارف من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، ونحصل المعرفة بالله سبحانه وبصفاته الباقيات الثمات وبأفعاله ، وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه الآخرة على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . ومعرفة الآخرة ، واللجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط والميزان ، والحساب ومعنى قوله تعالى :

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ومعنى قوله تعالى :
﴿ وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ .

ومعنى لقاء الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه والتزول في جواره ، ومعنى حصول أسعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ، ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى في السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفسيره^(٢٣) .
ذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته ، دون جدوى ، المتكلمون والفلاسفة .

ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح فقد اختلفوا فيه .

(٢٣) الإجماع ص ٢٤ ، ٣٥

لقد اختصوا في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها بوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم أن منهي معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن المعرفة .

وبعضهم يدعى أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل .
وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم .

اختلف الناس هذا الاختلاف . لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح في معرفة العيب ، وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة .

ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع العناء حتى تتضح للإنسان حلية الحق في هذه الأمور انصاحاً يجري مجرى البيان الذي لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الإنسان^(٢٤)

أهذا ممكن حقاً في جوهر الإنسان ؟

إنها دعوى من الإمام الغزالي تحتاج إلى إثبات ، وهي دعوى يسكرها الكثيرون .

ولكن الإمام الغزالي يرى أن الدليل انقاطع ، الذي لا يقدر أحد على

(٢٤) الإحياء ص ٣٤ ، ٣٥

ججده أمران :

أحدهما . عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في البقطة فلم يفارق النوم البقطة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها باحساسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لا اشتغاله بنفسه .

والثاني : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل وإذا جاز للنبي ﷺ ، جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق . وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة أو بتعبير آخر أن يفر باب للقلب يفتح على عالم الملكوت هو باب الإلهام والنهت في الروح والوحي (٢٥) .

والإمام العزالي ينشئ بالرؤيا ، كبرهان ودليل ، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك في كثير من كتبه ، إنه يتحدث في المقذ عن السورة فيقول : « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاه نموذجاً من خاصية السورة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عن التعبير ، وهذا ولو لم يحربه الإنسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كاليت ويرول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب ، لأنكره وأقام البرهان على استحالة وقال القوى الحساسة من أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها

فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والملاحظة^(٢٦) .

ولكن اغترالى لا بكنفى يهدين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتى شواهد الشرع ، ويدكر التجارب والحكايات ، أما الشواهد - فيما يرى - فهي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾^(٢٧) وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾^(٢٨) . قيل بوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ؛ وقوله ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ أَفَسَوْفَ يَكْفُرُ الْإِسْلَامُ بِمَا هُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ . . . ﴾^(٢٩) ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة في النور إذا قذف به إلى القلب اتسع له الصدر وانشرح .
وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن عبر منهم » .

والمحدث هو المنهم ، والمعلم هو الذي يكشف له الحق في باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجية .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾^(٣٠) ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ، يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ ﴾^(٣١) ﴿ أَفَسَوْفَ يَكْفُرُ الْإِسْلَامُ بِمَا هُوَ

(٢٦) سورة الزمر آية ٢٢ .

(٢٧) المنقذ ص ١٣٤ .

(٢٨) سورة النجم آية ١١ .

(٢٩) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٣٠) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

(٣١) سورة الأنفال آية : ٢٩ .

من نور من ربه ﴿ ٢٣٢ 》 ؟

ولم يكن علم الخضر عليه السلام علماً حسيّاً ، أو عقليّاً ، وإنما هو العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلَماً ^(٢٣٢) 》 .

كيف تتجلى البصيرة ؟ كيف يتأقّى الكشف والإلهام والنفث في الروح ؟ كيف تتأقّى معرفة الغيب معرفة مباشرة ؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المصادقة ، ومحو الصفات المدمومة ، وفطم العلائق كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى .

ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتسييره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر المنكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب العرة بلطف الرحمة ، وتلاّأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا 》

فليس على العبد الاستعداد بالتصمية المجردة وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة . وهو بفعله يصير متعرضاً لنفحات رحمة الله ، وليس له اختيار في استجلاب هذه النفحات ، وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همة ، وحسنت مواظبته تجمع لوازم الحق

(٢٣٢) الإحياء ص ٤١ ، ٤٣ .

في قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فينكشف له العيب ويحصل له اليقين (٣٣) .

٧ - هذا النهج الذي رسمه الإمام الغزالي لمعرفة الغيب له آثار عميقة بالنسبة للفرد في خاصة نفسه ، وبالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدين .
ولتوضيح ذلك بعض الإيضاح ، ولذكر بعض الآثار التي كانت لهذا النهج نذكر ما كتبه الدكتور محمد إقبال في كتابه « تجديد التفكير الديني في الإسلام » عن الإمام الغزالي .

يقول الدكتور إقبال : « على أنه لا مسيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض بها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كاست » في ألمانيا في القرن الثامن عشر . ففي ألمانيا ظهر المذهب العقلي لأول عهده حقيقاً للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسيًا ، فكان الطريق الوحيد إذن أن تسمح العقيدة الدينية من سجل المقدمات وقد جاء مع محور العقيدة مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق ، وبذلك مكن المذهب العقل من سيادة الإلحاد .
تلك كانت الحال في ألمانيا عندما ظهر « كاست » وكشف كتابه المذهب العقلي من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أحل نعم الله على وطنه ، وإن التشكك الفلسفي الذي اصططعه الغزالي - على تطرفه بعض الشيء - قد انتهى إلى النتيجة نفسها في العالم الإسلامي ، إذ قضى ذلك المذهب العقلي الذي كان موضع الزهو على الرغم من ضحائته ، وهو المذهب الذي سار في نفس الاتجاه الذي اتجه إليه المذهب العقلي في ألمانيا قبل « كاست » .

(٣٣) الإحياء من ١٣٧٧ ، ١٣٧٨

غير أن هناك فارقاً هاماً بين الغزالي و«كانت». فإن «كانت» تمتشى مع مبادئه تمشياً لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة. أما الغزالي فعندما خاب رجاؤه في الفكر التحليلي ولى وجهه شطر الرياض الصوفية وألقى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه، وهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم، وعن الفلسفة الميتافيزيقية^(٣٤).

(٣٤) تجسيد الفكر الديني في الإسلام ١٠، ١١

مشكلة المعرفة والصوفية (٣٥)

١

يشتم التاريخ - سياسياً كان أو فكرياً - بفترات ، تبدو فيها ، الحياة الحارقة ، وهذه الحياة ، تتركز في شخص ، أو أشخاص ناديين يلقون بأنفسهم في مجرى الحياة الهادئ الوديع ، فتضطرب الحياة وتموج ، ويعتو موجها وينحفض ، وتضطرب القوات - قوة الشعب الذي يتبع التعاليد - وقوة المصلحين الذين - فترة تطول أو تقصر ، ثم تنحصر الأمواج وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، في قليل أو كثير . ومهما يكن من شيء ، فإن عظماء الرجال على أى وضع قضوا نحبهم لا يتركوا هذا العالم ، إلا وقد تركوا أثراً لا يسحى أبداً الدهر . وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه في ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطراً ، وتشرع نحوه الأمة ، وتفتح إليه السيوف المهنددة ، فيداهم ويهاجم ، ويغلب أو يغلب ، ويترك حل كل حال أثراً مؤثراً .

٢

ونشأ المحاسنى ، وفي العالم الإسلامى قوتان هائلتان تضطرعان :
١ - أهل السنة ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل .

(٣٥) هذه الكلمة كتبت ، بمناسبة طبع كتاب الرعاية للمحاسنى وهى ، وإن كانت قد كتبت في مناسبة خاصة إلا أنها من حيث الفكرة عامة بما ينطق بالمعنى الصوفية

٢ - المعتزلة ولهم مذهبهم في البصرة ، والكوفة ، وبعداد .
وهذا الصراع بين المعتزلة ، وأهل السنة صراع طبيعي لا يحلو من مثله
دين من الأديان :

إنه الصراع الحاد بين النصيين ولعقلين .
إنه النزاع الأبدى بين الذين يقولون :
إن الدين نص تفسره أسباب النزول ، واللغة ، والرواية ، والدين
يقولون :

إن الدين نص : يفسره العقل ويوضحه .
ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف
ثالث في هذه الخصومة .
فالإنسان إما : نصي ، وإما عقلي : ولا يحتمل الأمر حلاً ثالثاً .

٣

ونشأ المحاسبي ليعن هذا الحل الثالث ، أو تعبّر أدق ، يذكر بهذا الحل
الثالث :

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عيباً ، وألف كتاباً خاصاً في الرد عليهم ، سماه :
« فهم القرآن » .

لقد رأى في نوعهم العقلية طغياناً ، لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى أن
نوعهم : تحكم العقل في القرآن ، وتجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر
كذلك لكان العائد في الحقيقة وواقع الأمر هو : العقل ، لا الكتب المقدسة
وإذا كان المعتزلة قد خسموا الدين خدمات جبيلة ، تمثل في دواعهم الحميد

عه ، ورد هجمات أعدائه ، وتأيدته مطلقاً وعقلياً ، فإنه مما لا شك فيه . أن العقل لو ترك شأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » فيفسرنا غامضه ، ويوضح لنا من أمره ما انهم .
لا بد إذن أن يخصص العقل للنص .
ومذهب المعتزلة ، إذن لا يسير في عالم : « ما وراء الطبيعة » على السج الصواب .

٤

هناك ، إذن إفراط ونفريط .
والعبودية الحقة - فيما يرى المحاسبي - : هي السج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة .
ودخل المحاسبي المعركة ، وسلاحه فيها : عبودية حقة ، وإخلاص لا حد له ، وتقوى بممر كل الحورح ، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته ، جزئياته وكتباته .
التقوى والعلم ، إذن : كانا سلاحه في المعركة .
واحتدم النزاع ، وكان لابد من أن يحتدم ، وثار الفقهاء على المحاسبي ، وكان لابد أن يثوروا ، فقد كان المحاسبي يسج في درسه نهجاً آخر غير الطريق العادي التقليدي .
كان يتحدث في الإخلاص ، وفي الورع ، وفي الزهد ، وفي الخشوع الخاص لله .
وكان يتحدث في محبة الله ، والأس به ، والقرب منه .

وكان يتحدث في هيئته وجلاله وعظمته .

وكان حديثه عذبا ، طلعا ، ساميا ، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما الله من فضل ، فترق قلوبهم ويعاهدون على الاستقامة .

٥

وملأت سمعة المحاسن أرجاء بغداد ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته في الازدياد كلما كثر خصومه وشائوه !!

وبكده كان يسير في طريقه ، ثابت الخطى لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيا عنه !

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير ووصل إلى المعرفة الحقة فأعلن طريقها .

وطريقها ليس حسا يحطى ، وليس عقلا يفضل ، وإنما هو : بصيرة وضاعة وروح صاف .

٦

واستمرت الخصومة بين :
النصيين ، ويمثلهم الإمام أحمد .
والمصيريين ، ويمثلهم الإمام المحاسني .
والمقلين ، ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم نجر صريعة بل بقيت قوية ، واستمرت في كفاح وبضال ، حتى يومنا هذا .

تسلسلت فكرة المحاسبي ، وتمثلت خير تمثيل في الإمام العزالي ، ثم في بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها في أسلوب جديد وتعبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد لواحد يحيى » الذي توفي منذ سنوات .

وسلسلت فكرة الإمام أحمد ، فتمثلت في الإمام . « ابن تيمية » الذي وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول وانحرف بها إلى الشكل أكثر من الحوهر ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلاً قوياً .

وتسلسلت فكره المعتزلة ، راكمه حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى كان جمال الدين الأصفهاني ، فدفعها قوياً إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل في نشرها ملطفة خفيفة تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية الأولى الأصيلة التي كانت قبل ابن تيمية والتي لا يمثلها ابن نعيمية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المراغي » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرازق » .

وفكرة « الإمام محمد عبده » تتسلل فيها حقيقة ، لا في الشيخ رشيد رضا كما يعطن كثير من الناس .

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها
ستستمر ، ذلك أنها تحمل نزعات مطرية في بني الإنسان :
فبعضهم ، واقعي يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى
أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لا تلين ، فهو عقلي أو اعتزالي
وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكي النزعة ، فهو بصري
أو صوفي

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر ستستمر في بني البشر
ما دام على وجه الأرض ، أفراد من النوع الإنساني ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء
الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين على أمل أن يقضوا على
هذه الاتجاهات قضاء تاماً .

وبالله التوفيق .

افضل التراجع

قضية التصوف

- إنكار التصوف .
- تحديد موطن النزاع .
- المشاكل التي يراد حلها .
- الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- الطريق إلى المعرفة .
- طريق البصيرة طريق الصواب .
- التصوف أرمستقراطية .
- تفاوت الناس في فهم الدين .
- التصوف قوة .
- التصوف ليس دخيلا على الإسلام .
- التصوف في العصر الحديث .

إنكار التصوف

إن الذين يكرّون « التصوف » ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب .
ذلك أن النزاع بين « الفقهاء » و « الصوفية » قديم قدم « التصوف » نفسه ،
ورجال « الظاهر » على وجه العموم ينهرون من « الصوفية » ويحاربونهم أينما كانوا
حرباً لا هوادة فيها .

والحرب قائمة أيضاً بين « الصوفية » ومن يتحدون العقل مقياساً للآراء ،
ويرون أنه وحده المهادى إلى الرشاد .

ولم يهدأ الصراع بين « الصوفية » وغيرهم فقهاء كانوا أو عقليين على مر
الزمن :

ما هي مآخذهم على « التصوف » ؟

أولاً : يرى « الفقهاء » ويشاركهم في هذا الرأي كثير من الباحثين : أن
« التصوف » دخيل على الإسلام : إذ ليس في الإسلام إلا التقوى ، والورع ،
وبوع من الزهد شبه أن يكون عمه أو قناعة .

ثانياً : الأدلة على وجود الله ووحديته ، وقدرته وإرادته ، موجودة في
القرآن الكريم ، في وصوح لا لبس فيه فإذا ما تركناه ، وذهبنا نلتمسها في
مناهات « التصوف » فإننا لا نأمن أن نضل في محامل الطريق .

ثالثاً : « التصوف » ليس في متناول الجميع ، فهو إذن « أرستقراطية »
تتناهى مع روح الإسلام « الديمقراطية » . . .

ولأن « التصوف » ليس في متناول الناس جميعاً ، فهو إذن تكليف بما

لا يطاق والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف ، والإسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ، والجهاد باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .
أما العمليون : فإنهم يرون أن الله - سبحانه وتعالى - مسحنا العقل لتهتدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه - كما يفعل « الصوفية » - فقد احتقرنا أجل نعمة وهبها الله لنا .

ويرى « الحقيون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين في محيط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله - عقلياً - ويرون في براهينهم غناء ودقة ، ويقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .
وقد حث الله في القرآن على استعمال العقل ، والآيات التي تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هي أهم ما يأخذه منكرو التصوف على « التصوف » و « الصوفية »
وأما ما عداها مما يتكلمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التي يلصقونها بـ « التصوف » وليست منه ، فإننا نضرب عنها صمخاً ، ذلك أننا نتحدث عن « التصوف » و « الصوفية » الحقيين .

تحديد موطن النزاع

ونريد الآن أن نبين - في إيجاز - بعض ما يراه « الصوفية » في هذه الاعتراضات ، لتبين الحق في هذا الغموض والاضطراب ، والخلط الذي يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج في نظر الصوفية إلى كد الذهن وإعمال الفكر.

كيف يتأتى أن ينقى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهلنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة في نظر الصوفى ، وإذن فإنه لا يؤخذ على الصوفى أنه يذهب إلى طرق خفية لىتهى من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله . إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هى انتقاص من جلاله سبحانه ، فمتى خفى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده ، إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية - شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة - لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب فى إلحاح ، وفى قلق ، وفى تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله ، النفس الإنسانية هكذا خلقت : فكلما منح الله الإنسان عقلاً كبيراً ، ودكاء جاداً ، ونفساً طمعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل فى البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله روحانيته ، وكونه عالماً ، مريداً ، قادراً ، كل هذه مسائل هامة .

لو وقعت عندها النفوس لما كانت هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

وبكن النعوس م تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ولن
يتأنى لها عن رغبة أو رهبة - أن تقتصر على ذلك !

المشاكل التي يراود حلها

كيف خلق الله العالم ! أن خلقه من العدم المطلق ، فكيف إذن يتج شيء من
لا شيء ؟

إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته .
أم خلقه من مادة كانت موحودة : فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ،
وهناك إذن قديمان : الله والمادة .

والله لا سهالى لدات : ومقتضى هذا ألا يخرج عن ذاته مثقال ذرة في
الأرض ولا في السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو على كل
شيء وفي كل شيء . وهذه النظرة مخاطب « شلى » الله - سبحانه وتعالى -
بقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التي يلاعبها النسيم ليست إلا بصعة
ملك : (جزءاً من جرائك) كلاً ، ولا أحقر دودة تسكن القبور ، وتسمن من
لحوم الموتى أقل مشاركة لك في حياتك السرمدية » .
« ويقولون - إن هذه الروح التي توحد في كل مكان ، بها يحيا كل موجود ،
وهي هو » ^(١) .

أحق هذا ؟ أم أن دات الله لا تنصص أرضاً ولا سمء ، ولا برا ولا بحراً ،
فهى ، إذن ، محدودة ، لأنها ما عدا هذا الكون .

(١) من مبادئ الفلسفة ترجمة الدكتور أحمد أمين

ثم إن الله زيادة على ذلك لا يمكن أن يوجد في كل مكان . والله
عالم .

أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون على أنه سيكون ؟ وبما هو كائن
على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما كان وبما هو كائن على أنه سيكون ؟

أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟

أيسطر الزمن على علم الله ؟

أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه في حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقا أن نفهم أن الله في حاضر لا يزول ؟ مع نداهة

شعورنا بالماضي والحاضر والمستقبل .

والله عالم كما قلنا أهو عالم بذاته بحسب لأن علمه في شرفه وسموه

وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسموه ، وليس ذلك إلا ذاته ،

سبحانه وتعالى

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن به بالجزيئات . لأنها

نافهة لا قيمة لها ، والله منزّه عن أن يتعلق علمه بآتائه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، والجزيئات ، على الرغم مما في

الجزيئات من نقص وتفاهة ، ومن مظاهر تشتتتها النقص ويعافها النظر .

والله قادر . أهو قادر على كل شيء ؟ أقادر هو على الجمع بين الضدين

مثلا ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم

أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك استحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟ أم أن

قدرته تتعلق بالمستحيل - كما يقول علماء الكلام معتقدين أنهم بذلك قد
حلوا الإشكال ؟

والله يريد :

أيريد الخير والشر ؟ فلم الحساب ، والعقاب أو المثوبة إذن ؟
وكيف يريد الشر ؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة
الشر في بني البشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر في هذا العالم بالرغم عنه ؟
أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريداً ؟
أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟
إن رضاه بالشر يتناقض مع كماله .

وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟
أحب الله أن يعصى ؟ أم أنه يعصى بالرغم عنه ؟
وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لا نهائية ، إنه رحمن رحمة مطلقة
لا نهائية ورحمه وسعت كل شيء ، وهو جبار ذو حيوت لا هائي ولطيف
لاحد للطفه :

فكيف تسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البداة تقضى
بأن تنفي كل صفة منها وجود الأخرى ؟ وإنه لم الرائع حقاً ، أن ما يريد أن يراه
الشاعر « إسماعيل صبرى » حينما خاطب الله قائلاً .

ومر الوجود يشف عنك لكي أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
أمكننا أن نرى حقاً غضب اللطيف الذي لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار
الذي لا نهاية لجبروته ؟

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ أن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل
إسماعيل صبرى حتى إذن حينما يقول :

يا رب أين نرى تقم جهنم للطالمير غداً وبلاشرار
لم يبق عفوك في السماوات العلا والأرض شراً خالياً للنار
وكيف يلقي الله بالمعرفة إلى رسله ، بأي لغة يحاط بهم ، وكيف ينزل « الملك »
على رسول الله ، فيراه ويسمعه في حين أن من كانوا معه لا يرونه
ولا يسمعونه ؟

ومن أين يأتي « الملك » ؟ ، أم السماء ؟ ولم ؟ مع أن الله في كل مكان !
إن مشكلة الوحي ، هي الأخرى ، من المشكل التي استهدت الكثير من
المدد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ أحياء أخرى جسمانية ، نأكل فيها ، ونلهو ،
ونلعب ونسرح ونمرح ، وتأخذ بذلك ثمن ما أديناه في حياتنا الدنيا العابرة ، من
عبادة وطاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة ؟
أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح
اتلاقاً مسجماً مساعماً ؟

إن الداهيين الأوفين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة في دقة دقيقة ، و
تحديد محدد .

والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسي
وروحاني ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحاني بحت .

وما هدف الله في إيجاد هذا العالم ! أحلقه ليعبده : ﴿ وما خلقت الجن

والإنس إلا ليعبدون ﴿١﴾ ، أم خلقه ليعرف كما قيل : «كست كترًا عظميًا فخلقت الخلق ، فبني عرفوني ؟» .

إن كمال الله عفى عن أن يكون في حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون في حاجة إلى أن يعرف . ﴿٢﴾ يأبى الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو العلي الحميد ﴿٣﴾ .

أخلق الله العالم اعتباطاً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباطاً ﴿٤﴾ أمحسن أمأ خفصاكم عبثاً ؟ ﴿٥﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

والحكمة : إما هي تعير عن العرص أو الهدف أو النعاية ، وذلك ينبئ عن الحاجة والله تعالى منزّه عن الحاجة .

نعود فتساءل : لم أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التي أثارت العقل ، وجعلته يشط إلى البحث والنظر ، ويعلها من المشاهة . قال رحمه الله في رسالته التوحيد : « جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الأحياء السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم ، أو في الحس كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر .

وعرأ إليه أموراً يوحد ما يشبهها في الإنسان . كالاستواء على العرش ، وكالوجه ، واليدين

ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد ، والوعيد ، على الحسنة والسيئات ، ووكل الأمر في

الثوب والعقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك .
ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة لما خفى فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخدة عليه .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة

هذه المشاكل لم اخترعها اختراعاً ، ولم أبتدعها ابتداءً ، وإنما هي موجودة تصادفك في الفلسفة ، وتصادفك في علم الكلام . وهي موجودة قديماً ، وموجودة حديثاً ، وهي بعض من كل :
كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عنها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الخدس والملاحظة ، والتجربة ، والعلم الحديث ، وما فيه من طبيعة وكيمياء ، أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة

هل مرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقاً عن ذلك ؟ أيصل العقل إلى كشف مساتير ما وراء الطبيعة ، واحتراق حجب ما وراء المادة والصعود إلى الملائ الأعلى ؟
وعقل من ؟ أعقل أنا ؟ أحتكم إلى عقلي وهو - فيما أرى - ناصح ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيراً هوى ، أو بعصية ، أيرضى بعقلي حكماً ؟ أم أحتكم إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز ؟ وهو فيما ترى ناصح ؟
وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بعصية .
ولكن إمام « الشيعة » بحسب نظرهم معصوم ، وهم يلجئون إليه فيما

ادلهم من الأمور ، وسوف لا يرضون بغير حكمه بديلا ، وهم ملايين عدة ،
أنستلهمهم الرشد في هذه المسائل ؟

إن الكاثوليك يرون أن البابا معصوم ، إنه على الأقل . فما يرون معصوم
في الأمور الدينية ، ورأيه هو العيصل في كل ما يتعلق بمسائل الدين ، أترضى
آراؤه البوديين ، أو المسلمين ، أو اليهود ؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص أصحاب القبعات ، أم من اختصاص
أصحاب العمام ؟

أحلها محصور في اسوريون ؟ أم هو من اختصاص الأزهر .

إن هذه المسائل « شغلت الرؤوس على اختلاف أنواعها : من ذوات
القلانس من قدماء المصريين ، إلى حملة العمام ، إلى لابسى القبعات السود ،
إلى أرباب الضفائر ، إلى ألوف تصبب عرقاً من البحث » (٢) .
إلى أى هؤلاء تلجأ في حلها ؟ لقد :

تجبرت البلو ماذا تكون وضلت بوادى الظنون الحضر
قد تقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ، ويجب أن تلجأ إذن إلى أهل
الاختصاص .

أتلجأ إلى عقل « أملاطون » أم إلى عقل « أرسطو » .

وهل تلجأ إلى عقل « بيكون » أو إلى عقل « ديكارت »

هل تلجأ إلى عقل « فيلسوف » حتى ؟ أو إلى عقل « فيلسوف » مثالى . . ؟

أتلجأ إلى علماء الكلام ؟ وأيهم ؟ . أالنظام ، وقد كان حاد الذكاء متوقد

الذهن . صاحب منطق وحيد ؟ . . إن « ابن نيسية » لا يرضى لنا ذلك

(٢) من مبادئ الفلسفة . ترجمة الدكتور أحمد أمين .

« وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع ، حاد الذكاء ، متوقد الذهن فهل نشعه ؟
أم تتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ فهل تتبع « الشيخ محمد
عبد » ، أو « الشيخ عيش » ؟ إن كلا منهما رجل فاضل ، واسع الاطلاع
ولكهما لا يكادان يلتقيان في شيء من آرائهما سواء في ذلك الوسائل
والأهداف ، فإلى حق أيهما نحتكم ؟ ..

وبعد كل ذلك أليس رأى « كاس » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول .
« إن عقل الإنسان مركب تركيباً يوسف له فإنه مع شغفه بالبحث في مسائل
لا تدركها حواسنا ، ثم يستطيع أن يكشف عن معانيها » .
أما الإمام « الرازي » فإنه يقول في عجز العقل .

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعى العالمين صلال
ولم يستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
ومن كلامه الحكيم : « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما
رأيتها تشفى غيلاً ، ولا تروى غليلاً » .

ويقول في وصيته التي أملاها على تلميذه « إبراهيم بن أبي بكر
الأصمهانى » : « ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت
فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتتها في لقرآن العظيم » .

والإمام « الرازي » هذا ، هو الذي يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » :
فاق أهل زمانه في علم « الكلام » و « المعقولات » وعلم « الأوائل » .
وليس « كانت » وليس الرازي إلا مثليين من أمثلة عديدة تتلاقى في النهاية
مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فترجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلاً :
يا رب أهلى لفضلك واكهنى شطط العقول وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقص مصاحم كثيرين من دوى الإحساس الدينى
المرهف ، وتورق أعينهم ، وشغلهم - مصححين محسين - ومثلهم فى ذلك مثل
إبراهيم - عليه السلام - إذ قال :

﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟﴾

قال : أولم تؤمن ؟

هـ : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . . . ﴿

هـ هى الوسيلة التى يروون عن طريقها عنهم ، وتشقى صدورهم ، وتطمئن
قلوبهم .

إن الذين لم يحرص لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل
بحواريه ومقاييسه وقواعده عاحر كل العحر كما رأينا سابقاً عن الوصول إلى
حجها ، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل دى عيين إن
الفلسفة منذ عهد سقراط تتحبط وتتعثر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ،
ولا تصل التة إلى نتيجة حاسمة فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة
الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يجارب بعصه بعضاً ، بل ويكفر رجاله
بعضهم البعض :

إلام -تجده إذن ؟

إننا إذ نفحصنا أيدينا من الحس ، فذلك لأننا لم نجد فيه عاء فيما وراء
الطبيعة ، وإذا أعرضنا عن لعقل ، فليس ذلك احتقاراً به ، لأننا نستعمله
معترفين بفضل به فى ميدانه الخاص به ، وإما كان إعراساً عنه فيما وراء الطبيعة
لأننا لا نريد أن نقحمه فى غير دائرة اختصاصه

نعود فنقول : إلام توجه ؟ إن الأمر ليس بهن ! ! وتكشف الطريق
الصواب ليس من السهولة مكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة

ولكننا إذا ما لحأنا إلى الله ستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد .
وإذا ما توجهننا إلى القرآن سترشده هم ادھم وحفی ، فإدا نجد ؟
نجد أن لقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يرشد في
مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه
العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع في أبسط صورة
وأعمها وأشملها هو الرؤيا فالقرآن يحدثنا في سورة يوسف عن عدة رؤى :
﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس
والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾

ويعتقد والده في رؤياه ، ويؤمن بها . ويسدى إليه الصبيحة .
﴿ يا بني ، لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ﴾ .
وحينما سجن العرير يوسف ﴿ ودخل معه السجن فتيان .
قال أحدهما : إني أراي أعصر خمرا
وقال الآخر إني أراي أحسن فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه ﴾ .
ودھم إلى يوسف واستبأه الأمر ، وطلبا إليه مستعصمين .
﴿ بثت تأويله لما ترك من المحسنين ﴾ وبأهاها يوسف تأويل الرؤى
ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك :

﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع

مبالاً يدرکها مع رکودها ، أولى وأحق

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة^(٣) .

والنبوة ، هي الأخرى ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ، وليست استقراء ناقصاً أو تاماً . وليست قياساً من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحى من الله والقرآن غاصر بهذا النمط من المعرفة الإلهية . إنه غاصر بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم أعني الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضاً في أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدنا « موسى » فى البحث عنه جهده ، حتى وجده وأبدى رغبته فى اصطحابه ومراقبته ، فقال له العبد الصالح :

﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

وألح « موسى »

وقبل العبد الصالح - فى النهاية - على شروط اشتراطها .

ولم يكن فيها رفيقاً « موسى » أو عطوفاً عليه . .

وساراً فأخذ العبد الصالح يأتى بأعمال لا تنسجم مع العاطفة ، ولا مع المنطق ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعبيل .

وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شيء ، ولم يجد

موسى إلى الصبر سبيلاً ، ولم يجد العبد الصالح وقد أنخل موسى بالشرط -

(٣) الغزالي فى انتقد من الصلال

مصاصاً من أن يعلنها صريحة واضحة ﴿ هذا عرق بيني وبينك ﴾ والقصة كلها
حرة بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق

﴿ ورد قال موسى لفتهاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي
حقبا ، فبه بلغا مجمع بينهما سبا حوتها ، فالتحد سبيه في البحر سريا فلما حاورا
قال لفتهاه .

آتنا عذابنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .
قال . أرأيت إذا أوينا إلى الصحرة ، فإني سئيت الحوت ، وما أسأيه
لا الشيطان أن أذكره ، وتحد سبيه في البحر عجبا
قال : ذلك ما كنا نبع ، فارتدا على آثارهما قصصا هوجدا عبدا من
عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما .

قال له موسى : هل أتعتك على أن تعلمني مما علمت رشدا .
قل إنك لست تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا
قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا
قال فإن اتعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا
فاطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ،

قل أحرقتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا .
قال ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبرا
قال لا تواخذي بما سئيت ولا ترهقي من أمري عمرا .
فانظرا حتى إذا لقيا علاما فقتله .

قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا
قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا

قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحني ، قد بلغت من لدني عذرا .

فاطبقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعا أهلها فأبو أن يصيهوهما فوجدا فيها حدارا يريد أن ينقض فأقامه

قال : لو شئت لتحدثت عليه أحرا .

قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأبثلك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا .
أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعجبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا .

وأما العلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغيانا وكهرا ، فأردنا أن يسلط رهبها خيرا منه زكاة وأقرب رحما .

وأما الحداد فكان لعلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كرهما رحمة من ربك .
وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴿١﴾

هناك إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل .

ما السبيل إليه ؟

الطريق إلى المعرفة

إن محارب الصالحين ، مند عصور متطورة ، دلت على أن تركيبة النفس ، وتطهيرها والالتحاء إلى الله ، ولتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحية نستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ،

(٤) سورة الكهف آيات ٦٠ - ٨٢

والهامات ، ومعرفة لا تتأتى لدوى النعوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق صواب

ولكن الكثيرين يشكون في هذا الطريق طريق البصيرة الذى سبيله التزكى والتطهر - الموصول إلى المعرفة ، ويروى أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويطلبون في إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة ، والرسالة ، والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة لعادة ، أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة ؟

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من المعترضين ، قاله في ساحة « السريون » لأساتذة الجامعة . وعلماء باريس ، حينما دعوه ليحاضرهم في « ما وراء الطبيعة » :

« سيتساءل قوم : أمن الممكن أن نتخطى طبيعة فصل إلى ما وراءها ؟ إننا لا نتردد في أن نجيبهم في وضوح واضح : ليس ذلك ممكنا فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود

سيقولون : تلك قضية تقتقر إلى برهان :

ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده ؟ إنه لم الغريب حقا أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن

يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته اشخصية ، سالكا إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذي وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه - في قليل أو كثير - ما يثير حولها من جدل ونقاش .

وإنه لم يلبس الموضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة » نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة هـ .

وهذا الرأي نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين ، في كل عصر إنه رأي الفارابي ، ورأي ابن سينا ، ورأي الشيخ محمد عبده .

يقول الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد :

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء . وعلى شرعهم ودعوتهم أمانة ، فكثير منهم نال حظا من الأئس بما يقارب تلك الحال : حال الاتصال في النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم - ومن ذاق عرف . ومن حرم انحراف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر لصالحهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمججه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من لحق الناطق في سرائرهم . المتألم في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة .

ولا يحلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما يكشف حالهم ، ويسوء
 مآلهم ، ومآل من عرروا به ، ولا يكون هم إلا سوء الأثر في تصليل العقول ،
 وفساد الأخلاق ، والنحطط شأن القوم الذين رزئوا هم ، إلا أن يتداركهم الله
 بلطفه ، فتكون كلمتهم الحبيثة كشجرة حسنة اجتثت من فوق الأرض ما لها
 من قرار؛ (٥) .

التصوف أرسقراطية

١ - مما سبق نتبين : أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ، له

ميدانه .

وأن العقل وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضا .

والبصيرة - اننى سبيلها تركبة النفس وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها
 ولا صلة لتركبة النفس بالعاطفة و « الصوفية » أقل الناس ، تأثر
 بالعواطف ، على خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحيانا كلمة
 القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .
 وتركبة النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه في الله - وهو المقصود
 - « الذكر » - وعمر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصاً
 لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التي يجب
 توافرها في السالك ، علمنا أن النفوس الحديرة بسلوك هذا الطريق من النادرة
 نكاد .

ومن هنا يعترض خصوم « التصوف » قائلين :

(٥) رسالة الشيخ محمد عبده في التوحيد ط صبيح ص ٦٩ - ٧٠

« التصوف » إذن : « أرستقراطية » .

وهذا اعراض لا قيمة له : « التصوف » حقاً « أرستقراطية » .

وطبيعة الأمور تأتي إلا أن يكون « أرستقراطية » ، إنه نظام الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الدين وهبهم الله حساً مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وقطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء « الملائكة » ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور .

٢ - وإذا كانت « الديمقراطية » معناها التساوى في كل شيء ، فهي أسطورة من الأساطير : فالتساوى لا يوجد في عالم الطبيعة بحال من الأحوال : إنه لا يوجد بين الحيوانات في الغاب ، ولا يوجد بين بني آدم في المدن أو في القرى .

إن الله لم يسو بين الناس في ألوانهم ، ولا في قوتهم الجسمية ، ولا في ذكائهم ، ولا في دعاتهم ومكرهم ، ولا في أرزاقهم وحفظوهم . . . ونظام « الطبقات » الذي يسود في « الهند » ، والذي نستفده ونشتع عليه إنما هو النظام الواقع فعلاً في جميع أقطار الأرض .

و « الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد لفوضى فيهم الرئيس والمرءوس ، والسائد بذكائه وقوته . والمسود بغبائه وضعفه .

و « الإنجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » ، وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » ، وهو « فيلسوف » ناب ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف : ففى « جمهوريته » : طائفة « الإنتاج » وهى الطائفة ذات « المعدة » الشرعة ،
قبة التصوف المقعد من الفلال

والشهوات الغلاة .

وطائفة « الحند » ذات العاطفة القوية .

وطائفة « القادة » معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والإشراق .

٣ - « التصوف أرسنقراطية » وهو ذلك مسجم مع طبيعة الأمور . وعلى

هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذي يقول .

لوشمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم : ذلك أن الناس جميعا

لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ، وأئمة « التصوف »

يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج - طائفة المعدن

والشهوة ، أن يهجروا نهج السادة المختارين . معدن الصفاء والحكمة

الناس معادن : على حد تعبير الرسول ﷺ - ومعادهم ثابته لا تتغير

فهـ « خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » إن فيهم المعدن

الذهبي وفيهم المعدن الفضي ، وفيهم غير ذلك

وبصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول في رسالة الوحيد .

« لما شهدت به المدينة ، أن درجات العقول متفاوتة ، يعو بعضها بعضا ،

وأن الأدنى منها لا يدرك ما عبه الأعلى ، إلا عبي وحه من الإجمال ، وأن ذلك

ليس لتفاوت المراتب في لتعليم فقط ، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي

لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ولا شبهة في أن من المطريات - عدد

بعض العقلاء ، هو بديهي عند من هو أرق منه ، ولا تزال المراتب ترتقي في

ذلك إلى ما لا يحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكنار النفوس من يرى البعيد

عن صغارها قريبا ، فسعى إليه ، ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته

ويعجبون لهائته ، ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذي لا يتنازع ،

والظاهر الذي لا يجاحد ، فإذا أنكره مكرثوا عليه ثورنهم بادئ الأمر عن
من دعاهم إليه ولا يزن هذا الصف من الناس على قلبه ، ظاهراً في كل أمة
إلى اليوم» (٦) .

والله سبحانه يذكر نماير الناس فيما يعم عليهم به ، ويبين أن منهم الأنبياء ،
ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء إلح . قال تعالى :
﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم : من النبيين ،
والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من
الله وكفى بالله عليماً ﴾ (٧) .

لا يدعوه الصوفية « إلى أن يكون الناس جميعاً منصوبين . و « جل جناب
الحق عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطع عليه إلا الواحد بعد
الواحد » .

إن أهل الحق نادرون . وهذه فكرة بديعية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة ، بيد
أن « الصوفية » : إذا كانوا لا يدعون الناس جميعاً إلى « التصوف » فإهم
يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إهم يريدون أن يسود بين جنابات
المجتمع حو من الروحانية والرحمة والمحبة يجمع الناس إخواناً متعاونين ،
متكاتفين .

(٦) رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده) ط صبيح ص ٦٧

(٧) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

تفاوت الناس في فهم الدين

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصوف » فالإسلام إذن دين طائفة محدودة ، لا يتيسر لكل إنسان فهو اعتراض لا ينسجم مع التزعة العامة عند « الصوفية » .

إن « الصوفية » لا يكفرون من عداهم ، إهم يرون أن طائفة « الإنتاج » ناجية

ونحن جميعاً نعلم أن المحقق الإسلامي ليس بدرجة واحدة عند جميع الناس : إن إيمان « أبي بكر » - رضوان الله عليه - ليس كإيمان غيره ، والرسول - ﷺ - يمثل تفاوت الطبائع في الاسترشاد فيقول :
« إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأبقت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسك الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان : لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً .
فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونعمه ما بعثني الله تعالى به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »

التصوف قوة

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة : عدهم في مسيل الله ، يدلونها عن رضا لإعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشموا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التي لم تفتحها الجيوش الإسلامية وقد كان لهم الفضل الأكبر في نشر الإسلام في (أنغوليسيا) وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقسوة العلية ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التي قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذي يعيش على الحنود الإسلامية : مكرسا حياته لصد عارة الأعداء . والعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك يس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة .

يقول « ابن سينا » عن الصوف « العارف الشجاع » وكيف لا وهو يعمل عن تقية الموت .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يتبارى في ذلك اثنان .

التصوف ليس دخيلا على الإسلام

أما أن « التصوف » دخیل على الإسلام ، فيكفينا في الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء .

أولها : للشيخ « عبد الواحد يحيى » . وهو فيلسوف مسلم صوفي
والثاني : للمسنشرق الشهير لأستاذ « مسينيون » الذي يعتبر أعظم باحث
في « التصوف » بين المستشرقين في العصر الحاضر .
والثالث لصاحب كتاب « التصريف الديني » وهو معنى أشد عناية بالرد على
كل من يخالف مذهب أهل السنة :

ومؤلفه هو : « الإمام الكامل » ، الفقيه الأصولي فخر « الإسراييلي »
ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن « التصوف » يكون حراً جوهرياً من الدين
الإسلامي ، إذ أن الدين يكون ناقصاً بدوره ، بل يكون ناقصاً من جهته
السامية ، أعني جهة المركز الأساسي ، لذلك كانت فروصاً رحيمة ، تلك التي
تذهب « الصوفية » إلى أصل أحيي ، « يوناني » أو « هدي »
أو « فارسي » ، وهي معارضة بالمصطلحات « الصوفية » نفسها ، تلك
المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها في الينيات الأخرى
فتفسير هذا طبيعي ، لا يحتاج إلى عرض « الاستعارة » ، ذلك أنه مادامت
الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها ، وإن اختلفت فيما
نفسه من صور^(٨) .

ويقول الأستاذ « مسينيون » : وقد بين « نيكولسون » أن إطلاق الحكم
بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التي احصر بها
« متصوفة » المسلمين « نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف

(٨) انظر كتاب الفيلسوف لمسلم ، مكتبة الأنجلو المصرية

المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئها ونأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يثار به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الإشارات » وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمي » من مشايخهم قريباً من ألف وجمع إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع « القدرية » ، و « الروافض » ، و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتعويض ، والتبري من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير إلى أنفسهم ، وذلك بمنزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد^(٩) .

تعليل الإقبال على دراسة التصوف في العصر الحاضر

(٩) التبصير في الدين . (لأبي المظفر الإسماعيلي) المتوفى سنة ٤١٧ هـ ط السيد عرب العطار

التصوف في العصر الحديث

لقد كان أتباع « فولتير » في القرن لثامن عشر ، وأنصار « ريتان » في القرن التاسع عشر يسخرون مما يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس - شرقيون وغربيون - منصرفين عن هذا الميدان ، مهملين على العلم الحديث ، معتقدين أنه سيحل كل مشكلة في الطبيعة وفيها وراءها ، ولكن الناس الآن معنيون بالدراسة لصوفية ، فما الذي غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين :

« ما الذي غير اتجاه العقل الإنساني في القرن التاسع عشر ؟

الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيراً في دعواه : يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد . لا نريد أن نقول : إن العلم أتحق في تعرية الإنسان وتعمير قلبه وضميره . كلا بل نريد أكثر من ذلك . . نريد أنه أتحق في دعواه الوحيدة التي كان حليفاً أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة ، في فضاء مجهول

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنطلق فتصبح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة في « الأثير » . . وما « الأثير » ؟ . شيء كالأشياء ، وليس له حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا في هذه الحدود ، ومن الأدب إذن أن يتواضع كثيراً ، فلا يفتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولها حيث

استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شيء ، لأنه مقيد
بالحواس . وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟
كلا . أيضا - لأن الفكر محدود ككل شيء في الإنسان .
فلابد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير .
لابد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الإلهام
وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هي المعرفة التي يتعاون
عليها الحس ، والفكر ، والإلهام^(١٠) .

• • •

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق قد استبان غيا بين الصوفية وغيرهم من
تزعاع ، وإني لعلّ يقي من أن نظرة الإصاف ستريل ، في نفوس حصومهم من
حدة : فيتلاقى الجميع في رحاب المودة التي يدعو إليها الصوفية - إخواناً في
الله متحابين .

(١٠) حديث للأستاذ العقاد في الإداعة المصرية .

الفضل الخامس الإمام الغزالي

- حياته
- نبذة عنه بقلم أحد معاصريه
- كتبه
- نصوص تبيين منهجه

حياته

هو : « أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي » . ولد « بطوس » : من إقليم « خراسان » عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨ م .
وكان والده - كما يقون « السبكي » في طبقاته - يغلز الصرف ، ويبيعه في دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى به وبأخيه - « أحمد » ، إلى صديق له متصوف ، وأعطاه ما ادخره من مال يسير ، قائلا :
« إن لي لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط . وأشتهى استدراك ما فاتني ، في ولدي هذين » .

وأشرف عليها انوصي الصالح ، وعلمها الخط ، إلى أن فنى ذلك التزير اليسير ، الذي كان قد خلفه لها أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتها ، فقال لها :

اعلمي أنني قد أنفقت عليك ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل التجريد ، بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة ، فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت ، يعيكما على وقتكما ، ففعلاً ذلك ، وكان هو السبب في سعادتهما ، وعلو درجتها .

وكان « الغزالي » يحكي هذا ، ويقول :

طلبنا العلم لغير الله ، فإني أن يكون إلا لله ^(١) .

(١) من كتاب « إتحاف السادة للثمين » بشرح « أسرار إحياء علوم الدين » ، للسلامة « محمد بن

محمد الحسيني الزبيدي » .

وفي عهد الصبا في « طوس » أخذ طرفاً من الفقه ، على « أحمد
الردكاني » ، ثم سافر إلى « جرجان » ، ليأخذ عن الإمام « أبي نصر
الإسماعيل » فسمع منه ، وكتب عنه ، ثم عاد إلى « طوس » ، فكتب بها ثلاث
سنين ، يتأمل ويتدبر ، ويحفظ ما حصله « بجرجان » .

وبعد ذلك ، قدم « نيسابور » ولارم إمام الحرمين ، حتى برع في
المذهب .^(٢)

والخلاف والجدل ، والأصول^(٣) ، والمنطق ، وقرأ الحكمة ، والفلسفة ،
وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، ونصدي لرد على مبطلهم
وإبطال دعاواهم^(٤)

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه : « بحر معرق » .

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ - ١٠٠٥ م) خرج
« العزالي » إلى العسكر ، قاصداً الوريث . « نظام الملك » ، « إذ كان مجلسه
مجلس أهل العلم ، ومحط رحلتهم ، فماظر الأئمة العلماء في مجلسه ، وقهر
الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله ، فتلقاه الصاحب بالتعظيم ،
وصار اسمه في الآفاق ، واشتهر في الأقطار .

ولما أصبح بهذه المثابة ، احتاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد ، وذلك
للتدريس بالمدرسة النظامية بها ، فقدمها في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقد
بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك واستقل في بغداد ، استقبالا حافلا فقد
عقبته شهرته إليها .

(٤) شرح إحياء علوم الدين للزبيدي

(٢) منسوب الشافعي رضي الله عنه

(٣) يعني أصول الدين وأصول الفقه

وفي بغداد نال من الاحترام ، ما يشبه التقديس . لقد غلبت حشمته
الأمراء والملوك والوزراء ، على حد تعبير « السبكي » وصار - على حد تعبير أحد
معاصريه ، وهو « عبد الغافر الهارسي » - بعد إمامة خراسان ، إمام العراق .

* * *

ثم ماذا ؟

ها هو ذا ، قد بلغ قمة المجد ، وأنته الدنيا خاصصه دليلاً : أنته من جانبها
المالي .

وأنته من جانبها الذي يتصل بالشهرة ، وديوع الاسم .
وأنته من جانبها الذي يتصل بالجاه والنفوذ ، حتى إنه ليذكر أن من قرب
من الولاة :

« كان يشاهد إلحاحهم في التعق في والانكباب على ، وإعراض عنهم
وعن الالتفات إلى قرطهم »^(٥) .

واستمع الإمام بكل ذلك فترة ، لعلها لم تكن طويلة الأمد . . .

ثم ماذا ؟

ثم كانت انتفاصته العارمة التي انتزعته قسراً وفي عصف ، من وسط النعم
والأبهة والمجد إلى حيث الانزواء والعزلة . لقد كان يعم في الترف
الديني ، وها هو ذا الآن ذاهب إلى الله . لقد كان يرغل في رياض من النعم
المادي ، وها هو ذا الآن فار إلى ربه ، ومهاجر إليه .

ماذا حدث ؟

هل حدث هذا الانقلاب الكلي فجأة ودون مقدمات ؟

(٥) المنقذ من الضلال .

لا شك أن ذلك لم يكن تنفاضة فجائية ، كانتفاضة سيديا « عمر
ابن الخطاب » التي اقبلت - في دقائق - جذور الشرك من أعماقه ، وغرست -
في دقائق - أصول التوحيد في سويداء قواده ، فأمن في لحظة وأتاب :

لقد كان الإمام « الغزالي » ، طيلة حياته طليعة ، يجرى وراء المجهول ، وكان
كما يقول عن نفسه :

« ولم أرل في عنوان شبابي مد راقت البلوع ، قبل بلوع العشرين إلى
الآن ، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق ^(٦) ،
وأخوض غمرته خوض الجور ، لاخوض الجبان الخنور ، وأتوغل في كل
مظلمة ، وأتهجم عن كل مشكلة ، وأتفحص على كل ورطة ، وأتفحص عن
عقيدة ، كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأمير بين حق
ومبطل ، ومسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنه .
ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .
ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف عن كنه فلسفته .
ولا متكلماً إلا وأجهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .
ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .
ولا متعدياً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .
ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتب ، لأسباب جرأته في تعطيله
وزيدته » .

(٦) يقصد بحر المعرفة .

ويقول أيضاً :

« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى ودبدنى - من أوب أمرى
وريعان عمرى - عريضة ، وهطرة من الله ، وصعنا في جنتى ، لا باختبارى
وحيلتى ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ،
على قرب عهد من الصبا »

ومن أحل ذلك يقول عنه « دى بور » .

« وقد وهب هذا الفنى عقلاً متوثلاً ، قوى الخيال ، لا يرضى بأى قيد
يغله » .

ولكن هذا انهم في البحث ، وهذا الاستقصاء في الدراسة ، وهذه العقيدة
الجرئة النافذة ، كل ذلك - انتهى به إلى الشك ، في ما يرى ، ويسمع ،
ويقرأ وفي ما يقول ويعتقد .

وكان هذا الشك عيباً ، حاداً ، شاملاً ، عاماً ، طيلة شهربين هو فيها .
« على مذهب السفسطة ، بحكم الحان ، لا بحكم النطق والمقال »
ولكن هذا الشك انطلق الشامل العام تبخر وراى ، لا بيطم دليل ،
وترتيب كلام ، « بل بنور قدفه الله تعالى في الصدر » .

* * *

راى ذلك الشك ، ليحل محله شك آخر ، هين سهل . وهذا الشك الثانى
إنما هو شك في طريق السجاة ، إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث ولكن
ما هى الكيفية التى يتكيف بها الإيمان ، فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة ؟
هذه الكيفية ، إذا وضحت تحدد النهج الذى يجب أن يسير عليه .
ودراسته المستفيضة : بيت له أن كل فريق من الباحثين - على أكثرهم

واختلافهم « يزعم أنه المأجى ، وكل حرب بما لديهم فرحون »
أي هذه الأحزاب بحق ، وأيها سطل ؟

ذلك هو : ما أحد الإمام « الغزالي » نفسه باستكشافه
ورأى أن أوضح طريق وأسهله ، أن يمحصر أصناف الطالبين للحق ،
ويدرسهم صنفاً ، صنفاً ، أو فرقة ، فرقة ،
وانحصرت الفرق عندة في أربع :

١ - « المتكلمون » : وهم يدعون أنهم أهل لرأى والنظر .

٢ - « الباطنية » : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعيم ، والمخصوصون
بالاقتباس من الإمام المعصوم

٣ - « الفلاسفة » وهم يرفعون ، أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - « الصوفية » : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة
والمكاشفة « اهـ .

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، والحق يد ، لا يعلمو هذه
الأصناف الأربعة .

وشمر الإمام « الغزالي » عن مساعد الخلد ، لدراستها ، وابتدأ يعلم الكلام ،
فوحده لا يشقى غلته ، ذلك أن أكثر حوص المتكلمين إنما هو :

« في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا
قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً .

وثنى بدراسة الفلسفة ، وأطلع الله على منتهى علوم الفلاسفة في أقل من
ستين ، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سه ، يعاوده ، ويردده ، ويتفقد
عوائله ، وأعواره ، حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحيل

فراى أن مجموع ما صح ينحصر فى ثلاثة أقسام .

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - وقسم يجب التبديع به .

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً .

أما هذا الذى لا يجب إنكاره فمثل :

١ - العلوم الرياضية

٢ - المنطقيات .

٣ - العلوم السياسية .

٤ - العلوم الخنقية .

٥ - « أما الطبيعيات ، فلا إنكار فيها إلا فى مسائل معينة ، ذكرتها فى

كتاب « تهاوت العلاسفة » وأكثر أحوالهم إنما هى فى :

٦ - الإلهيات .

ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، ليُحْكَم تكفيرهم فى ثلاثة

منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .

وانصرف للإمام الغزالى عن الفلسفة ، لأن العقل :

« ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المصائب ، ولا كاشفاً للعطاء عن جميع

المحصلات » .

فأخذ يدرس مذهب التعليم ، وهو مذهب يقوم على القول بـ « الحاجة

إلى التعليم والمعلم » وأنه : « لا يصبح كل معلم ، بل لأبد من معلم معصوم »

وقد بعد الإمام « الغزالى » مذاهبهم فى قوة ، وفى عصف ، وألف كثيراً من

الكتب فى الرد عليهم .

ولما انتهى من كل ذلك ، أقبل جهده على طريق الصوفية .

وطريق الصوفية : علم وعمل ، وابتدأ بتحصيل علمهم : من مطالعة كتب أئمتهم ، مثل « قوت القلوب » ، « لآلئ طالب المكي » ، رحمه الله ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمفرقات المأثورة عن « الجيد » ، « والشبل » ، « وأبي يزيد البسطامي » ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم .

ولكن طريق الصوفية : لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أكل جانب من جوانبه ، أما الجانب الذي يصل بالإنسان إلى النور ، والإشراق ، واليقين ، إنما هو الجانب العمى ، وهذا النوع يحتاج إلى الإقبال بكنه مهمة على الله تعالى ، وذلك يقتضى الإعراض عن المال والجاه ، والشهرة وذبوع الصيت ، ويقتضى الخلوة فترة تطول ، أو تقصر ، يتفرغ فيها الإنسان تفرغاً كاملاً إلى الله فاراً مهاجراً إليه .

وكان الإمام « الغزالي » إذ دأب منغمساً في المال ، والجاه ، والشهرة . وبدأ الصراع في نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب ، وبين التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود من جانب آخر .

ولم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، ستة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وانتهى الأمر في هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه عن التدريس ، وغمر قلبه حزن أثر على صحته ، فضضعت قواه ، ثم يحدثنا هو عما فعل حينئذ :

« ثم أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري فالتجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حية له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ،

وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب ،
اهـ .

• • •

تلف الإمام « النزالى » بطوائف الحيل فى الخروج من بغداد ، مظهرًا عزم
الخروج إلى مكة ، وهو يدبر فى نفسه السر إلى الشام . . وسار يحدوه الأمل
العذب فى المعرفة ، ويغمر قلبه الرجاء القوى فى الفتح ، يتفضل الله به عليه ،
كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين .

حتى إذا ما وصل إلى الشام ، أقام به قريباً من ستين ، لا شغل له إلا
العزلة ، والخلوة ، والرياسة ، والمجاهدة : اشتعالاً بتزكية النفس ، ونهذيب
الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، وكان يعتكف فى منارة مسجد
دمشق ، طول النهار ، ويفلق بابها على نفسه

ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس ، فكان يدخل كل يوم الصخرة ويعلق
بابها على نفسه ، ثم سار إلى الحجار لأداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول ،
صلوات الله وسلامه عليه .

ثم عاد إلى وطنه ملأماً بيبته ، مشغلاً بالتفكير .

ولقد كان ، فى حله وتراحاله مؤثراً العزلة ، حريصاً على الخلوة ، وتصفية
القلب للذكر . . ودام ذلك كل ما يقرب من عشر سنوات ، انكشف له فى
خلواته فى أثنائها ، أمور لا يمكن إحصائها : وأفاض الله عليه من النور
الإلهى ، وغمرته ألطاف الله ، وترقى به الحال إلى درجات يضيق عنها نطاق
النطق ، وكان كتاب الإحياء من ثمار هذه الفترة .

نبذة عن الإمام الغزالي

بقلم أحمد معاصريه^(٧)

« محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي » ، حجة الإسلام والمسلمين ،
إمام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ، ومصقاً وخاطراً وذكاء وطبعاً ،
أخذ طرماً في صباه بطوس ، من المقة على الإمام « أحمد الرادكاني » ، ثم قدم
نيسابور مختلماً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس ، وحده ،
واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة ، وبز الأقران وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل
زمانه ، وأوحد أقرانه ، في أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستعبدون منه ،
ويدرس هم ، ويرشد هم ويجهد في نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في
التصنيف ، وكان الإمام - مع عود درجته ، وسمو عبارته ، وسرعه جريه في
النطق والكلام - لا يصغي نظره إلى « الغزالي » ، سراً لإبائه عليه في سرعة العبارة
وقوة الطبع ، ولا يطيب له نصيبه للتصانيف ، وإن كان متخرجاً به منتسباً
إليه ، وهذا لا يحى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التسجيع به ، والاعتداد
بمكانه ، مطهراً خلافاً ما يصمره ، ثم بقى كذلك إلى انقضاء أيام الإمام .
فخرج من نيسابور ، وصار إلى العسكر ، واحتل من نظام الملك محل
القبول وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن متاخرته ،

(٧) هو عبد القاهر بن إسحاق الفارسي الذي توفي سنة ٥٢٩ هـ ، وكان متصلاً بالإمام الغزالي ومصاحباً له .

وجرىء عبارته . وكانت تلك الحضرة محطّ رجال العلماء ، ومقصد الأئمة
 والمصحاء ، فوُعت للغزالي إلهامات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملافة
 الخصوم اللد ، ومناظرة المحول ومائدة الكبار ، وظهر اسمه في الآفاق وارتفق
 بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد ،
 للقيام بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار إليها : وأعجب الكل
 بتدريسه ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد إمامة حراسان إمام العراق .
 ثم طر في علم الأصول - وكان قد أحكمه - فصنف فيه تصانيف ، وجدد
 المذهب في العقيدة ، فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضاً
 تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تلب حشمة الأكابر
 والأمراء ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر ظهر عليه بعد مطالعة العلوم
 الدقيقة وممارسة الكتب المصنعة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك
 الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ،
 فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام ، وأقام في تلك الديار
 قريباً من عشر سنين . يطوف ويرور المشاهد المعظمة ، وأحد في التصانيف
 المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل : إحياء علوم الدين ، والكتب المختصرة منه ،
 مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التي من تأملها عم بحس الرجل من فنون العلم .
 وأخذ في مجاهدة النفس ، وتدبير الأخلاق ، وتحسين الشرائع ، وتهذيب
 المعاش فانقلب شيطان الرعوية ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق
 الدميمة ، إلى سكوت النفس ، وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم ولذاتيات ،
 وتزيّاً بزي الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقاف على هداية الخلق
 ودعائهم إلى ما يعينهم من أمر الآخرة ، وتبعض الدنيا والاشتغال بها على

السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أويشم منه رائحة المعونة أو النيقظ بشيء من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشغلاً بالتعكير ، ملازماً لوقت ، مقصوداً تقياً ، وذخراً للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لأحد على أمره . حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل فخر الملك جهل الشهداء تغمدته الله برحمته ، وترينت خراسان بحشمته ودولته ، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي إلى ودرجته . وكال فضله وحائته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته . فتبرك به وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه ألا يبقى نعائسه وفرائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح وشدد في الاقتراح ، إلى أن أحاب إلى الخروج ، وحمل إلى نيسابور ، وكان الليث غائماً عن عرته ، والأمر خافياً في مستور قضاء الله ومكنونه ، فأشير عليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية ، عمرها الله ، فلم يجد بداً من الإذعان لمولاه ونوى بإظهار ما اشتغل به : هداية الشداة وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انتزع عنه وتحرر عن رقه ، من طلب الجاه وممارسة الأقران ومكابرة المعاندين وكم قرع عصاه بالخلاف والرقوع فيه ، والطمع فيما يدره ويأتيه . والسعاية به والتشجيع عليه ! لما تأثر به ، ولا اشتغل بجواب الطاعين ، ولا أظهر استيحاشاً بغميزة المخلصين . ولقد ررته مراراً وما كنت أحدث نفسي ما عهدته في سالف الزمان عيه من الزعارة . وإيجاش الناس ، والنظر إليهم بعين الازدراء ، والاستخفاف بهم كبيراً وخيلاء ، واغتراراً بما رزق من البسطة

في النطق والخاطر والعبادة ، وطلب الجاه والعلو في المترلة ، إنه صار على الصد ، وتصفى عن تلك الكدورات وكنت أظن أنه متلفع يجلباب التكلف ، متمسك بما صار إليه . فتحققت ، بعد التروى والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون ، وأن الرجل أفاق بعد الحنون ، وحكى لنا في ليال كيفية أحواله ، من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله ، وغلبة الحال عليه ، بعد تبحره في العلوم واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذي خصه الله به في تحصيل أنواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغربية عن المعاملة وتفكر في العاقبة ، وما يجدى وما ينفع له في الآخرة فانتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وأمثل ما كان يشر به عليه من القيام بوظائف العبادات والإيمان في النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد ، وطلباً للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات . وتكلف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم ، وخاض في القون وعاود الحد والاجتهاد ، وكتب العلوم لدقيقة وقتى تأويلها حتى انفتح له أبوابها ، وبقي مدة في لوائح وتكافؤ الأدلة ، وأطراف المسائل ، ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراس عما سواه ، حتى سهل ذلك ، وهكذا إلى أن ارتاح كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق ، وصار ما كنا نظن به عمراً وتعلّقاً . طبعاً وتحققاً ، وإن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله ثم سألنا عن كيفية رغبته في الخروج من بيته ، والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر نيسابور ، فقال معتذراً عنه :

ما كنت أحوز في ديني إلى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة ،

وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأطلق به ، وأدعوا إليه . وكان صادقاً في ذلك .
 ثم ترك قبل أن يترك وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم ،
 وخانقاه للصوفية ، وكان قد ورع أوقاته على وظائف الحاضرين من حتم
 القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والعمود للتدريس ، بحيث لا تنجو لحظة من
 لحظاته ، ولخطاب من معه عن فائدة إلى أن أصابته عين الزمان ، وضمت به
 الأيام على أهل عصره فنقله إلى كرم حوار به بعد مقاساة أنواع من التقصد
 والمتأوة من اخصوم ، والسعى به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه ، وصانه من
 أن تنوشه أبدى المكيات ، أو ينتهك سترديه شيء من الزلات ، وكانت خاتمة
 أمره : إقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة
 الصحيحين : البخاري ومسلم ، اللذين هما حجة الإسلام . ولوعاش لسبق
 الكل في ذلك الفن اليسير من الأيام يستمرغه في تحصيله . ولا شك أنه سمع
 الأحاديث في الأيام الماضية ، واشتغل بآخر عمره سماعها ولم يفتق له الرواية
 ولا صرر فيها خلع من الكتب المصنعة في الأصول والفروع ، وسائر الأنواع التي
 تحدد ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها ، أنه لم يخلف مثله بعده .
 مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس
 وخمسمائة ، ودفن بظاهر قسبة طابران ، والله تعالى يخلصه بأنواع الكرامة في
 آخرته ، كما حصه الله بفضله العظم في دياره بمنه .
 ولم يعقب إلا السات ، وكان له من الأسباب إراثاً وكسباً ما يقوم بكفايته ،
 نفقة أهله وأولاده . فما كان ساسط أحد في الأمور الدنيوية ، وقد عرضت
 عليه أموال فقبلها وأعرض عنها ، واكتفى بالقدر الذي يصون به دينه
 ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومثال من غيره

ومما كان يعترض به عليه : وقوع خلل من وجهة التحرييق في أثناء كلامه ورجع فيه فانصف من نفسه ، واعترف بأنه مارس ذلك الفن ، واكتفى بما يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعاراب التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للدين يطالعون كتبه يبعثون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعدروه ، لما كان قصده إلا المعاني وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

ومما نقم عليه : ما ذكر من الألفاظ المستبشرة بالفارسية في كتاب كيمياء السعادة والعلوم ، وشرح بعض الصور والمسائل ، بحيث لا يوافق مراسم الشرع ، وظاهر ما عليه قواعد الإسلام ، وكان الأولى به والحق أنق ما يقال : ترك ذلك التصنيف وإعراض عن الشرع به فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين واحتجج فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم ، وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل ، على أن المصنف السيب إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره ، مما رمر إليه إشارة الشرع . وإن لم يبح به ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرمورة ومصرح بها متفرقة وليس لفظ منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم فإنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة . فلا يجب إذن حمله إلا على موافق ، ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد متعلق إذا أمكنه أن يبين له وجهاً في الصحة يوافق الأصول ، على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره ، ويقوم به وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك كما تقدم ذكره ، وليس كل ما يتعبد وينمشی لأحد تقديره يسعى أن يظهره بل أكثر الأشياء فيها يدرى يطوى ولا يحكى فعلى ذلك درج الأولون من السلف الصالح إبقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعين . وعبرة

المارقين الحاحدين والله الموفق للصواب .

وقد ثبت أنه سمع من أبي داود السجستاني . عن الحاكم أبي الفتح
الحاكمي الطوسي . وما عثرت على سماعه . وسمع من الأحاديث المتفرقة آلافاً
من الفقهاء . فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب ، مولد النبي ﷺ ، من تأليف
أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني . رواية الشيخ أبي بكر أحمد
ابن الحارث الأصبهاني الإمام عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان
ابن المصنف ، وقد سمعه الإمام الغزالي من الشيخ : أبي عبد الله محمد بن أحمد
الخواري : خوار طابران ، مع ابنه : الشيخين عبد الحبار ، وعبد الحميد ،
وجماعة من الفقهاء .

ومن ذلك ما قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخواري ،
أخبرنا أبو بكر بن الحارث لأصبهاني ، أخبرنا أبو محمد بن حيان ، أخبرنا
أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمي ، حدثنا
عبد العزيز بن أبي ثابت ، حدثني الزبير بن موسى ، عن ابن الحويرث قال :
سمعت عبد الملك بن مروان . سأل قتات بن أشيم الكنتاني : أنت أكبر أم رسول
الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ : أكبر مني . وأنا أسن منه . ولد رسول الله
ﷺ عام الفيل . وتمام الكتاب في جزء مسموع له « نقله الأستاذ عبد الكريم
عثمان ، عن الطلقات الكبرى للسكي ، وفي كتابه النفيس « سيرة الغزالي » .

كتبه

ولقد ألف الإمام الغزالي عشرات الكتب ، عد منها صاحب طبقات الشافعية ما يقرب من مئتين كتاباً .

وعد منها شارح الإحياء الإمام الزبيدي ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة : منها في الفقه : الوجيز ، والوسيط ، والسيط ، ومنها في علم الكلام : الاقتصاد في الاعتقاد .

ومنها في الفلسفة : مقاصد الفلاسفة ، وتهاافت الفلاسفة ، ومنها في التصوف : بداية الهداية ، ومنهاج العابدين ، وكتاب الإحياء . بيد أننا ، إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالي سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف في أثنائها ، فإننا نجد أن أهمها في نظر الباحث الذي يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة :

وهي فضلاً عن ذلك - تعتبر في نظرنا أهم كتبه على الإطلاق . ولو لم يؤلف الإمام الغزالي غيرها ، لبقى هو الغزالي العملاق ، الصوفي الفيسوف بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئاً . ولكنه لو لم يؤلفها ، لما كان هو الإمام الغزالي صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ أما أحدها ، فإنه : كتاب المنقذ من الضلال .

وهو كتاب لا غنى للباحث في تطور حياة الغزالي الفكرية عنه ، ففيه يقص الإمام حياته الفكرية ، فيطورها من الدراسة المستفيضنة إلى الشك ، ثم إلى اليقين .

ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن مذهب التعليمية ، ومن الفلسفة والفلاسفة ثم من التصوف

وفيه يبين موقفه من مسألة السوء ، ومن الشكوك التي ترد عليها ، ويبين الطريق الصواب ، لإحياء الشعور الديني ، حيثما يفتقر عند بعض الناس وهو من الكتب التي يندر ما يماثلها في ثقافتنا الشرقية ، إذ أن كبار المفكرين عندنا ، لم يتجهوا إلى تسجيل تدرجهم الفكري ، وانتفاصاتهم الذهنية ولم يسبق « الغزالي » فيما نعلم في هذا السج سوى « الحارث بن أسد المحاسبي » في مقدمة كتاب الوصايا : فإنه قص فيه طرفاً من خبرته ، وشككه المميز السهل ، ثم يقبضه الذي انتهى إليه ، وقد قرأ الإمام « الغزالي » كتب « الحارث » وانتفع بها ، وربما كانت مقدمة كتاب « الوصايا » من العوامل التي دعت الإمام « الغزالي » إلى كتابة « المتقّد » .

وقد كتبه الإمام « الغزالي » بعد أن أناف ستة على الحسين ، كما يذكر هو

٢ - وأما ثانيها فإنه : « تهافت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الإمام « الغزالي » ، حينما سمي كتابه تهافت الفلاسفة كما يقول « بلاسيوس » - كان يريد أن يمثل لنا : أن العقل الإنساني ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الرصود إليها ، كما يبحث العوص عن صوء النهار ، فإذا أصر شعاعاً ، يشبه نور الحقيقة ، ائحدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يحطئ ، مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فهلك ، كما يهلك البعض .

فكان الغزالي يريد أن يقول :

« إن الفلاسفة حدعوا بأشياء ، أسرعوا إليها بلا إعمال روية ، فهتفتوا ،

وهلكوا الهلاك الأبدى » .

وقد حاول « بلاسيوس » ، أن يجد في عبارات كتاب : « التهافت » و استعمال « ابن رشد » ، لهذه الكلمة ، ما يؤيد اعتراضه ^(٨) .
ومما لا شك فيه ، أن كتابه هذا : محاولة جريئة كل الجراءة ، موفقة كل التوفيق .

وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي ، هجومه ، هو هدم الآراء في نفسها ، إذ أن بعضها صحيح ، موافق للدين .
وإنما كان هدف الإمام « الغزالي » هدم المنهج العقل ، الذي استندت إليه هذه الآراء .

فخلود النفس مثلا : رأى يقول به الإمام « الغزالي » ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معوله ، وأخذ يهدم بيد قوية ، المسك العقلي ، الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس ، فاسهت أدلتهم ، وتهاقت
لقد فعل ذلك مع إيمانه بخلود النفس .

وهو لم يلتزم في الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير في وحوه أدلتهم ، بما يبين تهاقتهم ^(٩) .

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهاقتهم .
ويقول :

« أما لا أدخل في الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب مبكر ، لا دخول

(٨) من كتاب « تاريخ الفلسفة في الإسلام » ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة .

(٩) من كتاب « التهافت » .

مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزمامات مختلفة ، فأنزلهم تارة ، مذهب المعتزلة ، وأخرى ، مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقعية ، ولا أنتهض ذائماً عن مذهب مخصوص .

ولقد وفق الإمام « العزالي » توفيقاً تاماً ، فيما انتدب نفسه إليه في هذا الكتاب ، وهو : إثبات أن العقل إذا لم يتخذ الوحي هادياً ومرشداً - عاجز كل العجز ، عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، فيما وراء الطبيعة .

٣- أما ثالث الكتب فإنه : « الإحياء » .

وهو أهمها ، وأهم كتب الإمام « العزالي » عامة ، ولقد قال فيه الإمام « النووي » : « كاد الإحياء يكون قرآناً » .

وقد أنهه للإمام « العزالي » ، في أوائل الفترة التي اصطحب فيها مع العزلة ، ومما يؤيد ذلك ، ما رواه الإمام « أبو بكر بن العربي » في كتابه : « القواصم والعواصم » من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام ، في جمادى الآخرة ، سنة تسعين وأربعمائة : وكان قد راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ست وثمانين ، إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام . فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذي سماه : « الإحياء لعلوم الدين . . . » .

أما فيما يتعلق بالبواعث التي من أجلها ألف الإمام « كتاب الإحياء » . وما فيها يتعلق بالمهدف الذي من أجله ألف كتاب « الإحياء » .

وأما فيما يتعلق بمجهر موضوعه فإن ذلك كله يتلخص في كلمة واحدة هي الإخلاص .

ولقد روى « ابن الجوزي » أن بعض أصحاب « أبي حامد » . سأله قبيل الموت قائلاً : أوصني . فقال له : « عليك بالإخلاص » ولم يزل يكررها حتى الموت

عليك بالإخلاص !! لقد تلفت « أبو حامد » يوماً إلى نفسه ، هوجد أنه متحرد من الإخلاص ، وأن كل همه ، إنما هو الشهرة ، والصيت ، ولحاه ، والمزلة عند الناس ، وعند الحكام . وانتعص « أبو حامد » انتعاضته ، التي وصع بها نفسه في محيط الإخلاص .

وتلفت « أبو حامد » بعد ذلك - في حوله ، هوجد أن الناس صم ، كهم ، صمى ، صس قوله تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾

وعس قوله تعالى - ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ، مخلصين له الدين ﴾ .

وقوه تعالى ﴿ فادعوا لله ، مخلصين له الدين ﴾

وغير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي تدعو إلى الإخلاص في الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهي في دعوتها إلى الإخلاص ، إنما تدعو إلى التوحيد .

هوجد أن الشيطان : قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين في نظر علمائه ، فصلاً عن غيرهم فتوى حكومية ، أوجدلاً للمهااة والغلبة والإفحام ، أوسجماً مرحرفاً ، يتوسل به لواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى « أبو حامد » ذلك ، ألف كتابه اسفيس .

وألفه ليسعيد الإخلاص إلى القيوب ، لبستعيد ما درح عليه السلف الصايح من اتخاذ الإخلاص أساساً ، وشعاراً ، وما من شك في أن إخلاص الدين لله وحده ، هو التوحيد ، وما من شك في أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامي ، وهو طابعه ، وهو هدفه ، وغايته

قضية التصوف المنقلد من الضلال

وألف الإمام كتابه إذن ، ليبين فيه الإخلاص أسساً ، ونتائج ، وأسباباً ،
وغايات .

ورتب الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب
فقرات . . . كل ذلك ليسهل تناوله
فأما أقسام الكتاب فهي أربعة :

١ - قسم العبادات يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق مسنها ، وأسرار
معانيها ، كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته : من وجوه الإخلاص فيها ،
 وإقامتها على الأسس التي يحها الله ، سبحانه ، ورسوله ، ﷺ .

٢ - قسم السموات : يذكر فيه أسرار المعاملات الحارية بين الخلق ،
 وأحوارها ودقائق مسنها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه
متدين

٣ - قسم المهلكات . وهي الأخلاق المدمومة ، التي ورد القرآن بتطهير
القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها ، وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر
طرق العلاج بها .

٤ - قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ، ويشرح الوسائل التي بها
يكتسب ، والخار التي تجنى من التخلق به .

وهو في كل هذه الأقسام : يتدنى كل موضوع يعالجه بذكر الآيات
القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والآثار عن أصحابه والتابعين ، وأخبار
الصالحين .

تحليل كتاب « الإحياء »

ويفتح كتابه : « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة :
« شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار » « وشواهد الشرع والعقل » .
لقد ﴿ شهد الله ، أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائماً ﴾
بالقسط ﴿ فأنظر كيف بدأ سبحانه وتعالى نفسه ، ونهى بالملائكة ، وثلاث بأهل العلم . وناهيت بهذا شرفاً ، وفضلاً ، وجلالاً ونبلاً ﴾
ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة
وقال الأحب رحمه الله « كاد العلماء يكونون أرباباً » .
والعلم الذي يريده الإمام « الغزالي » ، أوسع دائرة وأعم موضوعاً ، مما نسميه العلم الآن : إذ أن العلم الذي يريده الإمام « الغزالي » إنما هو : علم الدين والدينا ، ولا يحرم الإمام « الغزالي » منه إلا ما يصراحت به ، كعلم السحر مثلاً فإذا أدى العلم إلى ضرر ما ، إما لصاحبه ، أو لغيره كان مذموماً .
والهدف من العلم ، على كل حال : زيادة الهداية ، وغرس الإخلاص .
فإن من ارداد علماً ولم يردد هدى ، لم يزد من الله إلا بعداً .
ولابد للإخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ، ولذلك يثنى الإمام « الغزالي » بكتاب : « قواعد العقائد » وقواعد العقائد تدور حول ثلاث مسائل :

١ - الله وصفاته والأساس فيه ، أنه ليس كمثله شيء ، وأنه متصف بكل

صفات الكمال كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والإرادة الكاملة ، وغير ذلك من صفات الجلال والجلال

٢ - وأنه ، سبحانه . بعث محمداً ، ﷺ ، برسالته إلى كافة العرب والعجم ، ففسح بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، ومنع كمال الإيمان شهادة التوحيد - وهي قولك : لا إله إلا الله ما لم تقترن بشهادة الرسول ﷺ وهي قولك : محمد رسول الله ، وألزمه الحق تصديقه في جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٣ - والمسألة الثالثة هي الإيمان بالآخرة : البعث ، والحساب ، والعقوب أو العذاب .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه فإن أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار : ما أرشد إليه القرآن في ذلك : فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، وفي القرآن إرشاد ، واستدلال واضح على كل ذلك

ويتبين الإنسان للإخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية ، وباطنية ، وقد أطل الإمام « الغزالي » في الطهارة الباطنية ، وستحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما الطهارة الظاهرية ، فبها الوضوء فإن : « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيها شيء من الدنيا ، خرج من دونه ، كيوم ولدته أمه » .

« والوضوء على الوضوء : نور على نور » بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل

الصلوة ، والصلوة ، فما هي الباب الذي يدخل منه الإنسان إلى الله ، سبحانه وتعالى ، يسبحه ويعظمه في رحانه ، ويستشير بروره ، وهي من أجل ذلك عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربان ، وعرة الطاعات . ﴿ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ ، وفيها لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي كذلك بشرط إخصوع وحضور القلب ، وهذا هو معنى الإقامة في قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة ﴾

أما من لم يكن كذلك في صلاته . فإنه يدخل تحت قوله صلوات الله وسلامه عليه « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » وما أراد ، صلوات الله وسلامه عليه ، بذلك إلا العاقل ، أما إذا خشع في صلاته ، فإنه يدخل في دائرة قوله تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، لذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾
ويقول الله ، سبحانه ، الركاة بالصلوة في غير ما موضح : ﴿ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وقد جعلها الله تركية ، وبفضلها تركى من عباد الله من تركى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿ والذين يكتزون الذهب والنفضة ، ولا ينفقوها في سبيل الله ، فشرهم بعداب أليم ﴾ ، ومعنى الإنفاق في سبيل الله . إخراج حق الركاة ، والزكاة نوع من تحرير الإنسان عن حزن من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله .

والصوم باب العبادة وباب الإخلاص ، فإذا ما صام الإنسان إيماناً واحتساباً ، ناهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركانه عباده حتى يومه . والصوم ثلاث درجات . صوم العيوم وهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص وهو : كف الخوارج عن الآثام ، وصوم

خصوص الخصوص وهو : صوم القلب عن اهتمم الدنية ، والأفكار
الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل ، بإمكانه . وكفى في فصل الحج
ما رواه الشيخان : البخاري ومسلم « من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، حرج
من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والقرآن : كتاب الإسلام المنزل ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ، من تمسك به هدى ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال صلوات الله
وسلامه عليه :

أهل القرآن أهل الله وخاصته » ولقرآن . رسائل أئمتنا ، من قبل ربنا ،
بعموده تتلبرها في الصلوات ، ونقف عليها في الحركات ، ونفقدتها في
الصاعات ، والسنين المتعاقبات ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وتلاوته إذن
مطلوبة . حلاء للقلوب ، وشفاء لما في الصدور ، وعرس للإخلاص ، وتشيتاً
للتوحيد .

والقرآن نوع من الذكر والدعاء ، وقد حث الله على الذكر في قوله تعالى :
﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾
واختص يذكر الله على الدوام ، مع حضور القلب ، فأما لذكر بالناس ،
والقلب لا وهو قليل الجدوى .

ولقد فصل رسول الله ﷺ قول « لا إله إلا الله » على سائر الأذكار ،
لأنها عنوان الإخلاص ، ودليل التوحيد .

ومن الذكر : الصلاة على سيد المرسلين : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على
النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ .

ومن الذكر : الدعاء ، والدعاء مع العبادة ، يقول الله تعالى

﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ .
ويكن لابد بالإجابة من التوبة ، ورد المطالم ، والإقبال بكمه الله ، على
الله عز وجل ، فذلك هو السبب القريب في الإجابة
وبعد أن ينتهي الإمام « القرالى » بذلك عن ربيع العبادات ، يبدأ في ربيع
العبادات ، فيبين فيه آداب الأكل ، وآداب السكاح ، ثم يبين آداب الكسب
والمعاش ، ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية في
فضل العمل ، وفي استقامة العمال ، والتجار : فمن الدنوب ديوب ، لا يكفرها
إلا الله في طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين
والشهداء .

ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل نفيس هو : « كتاب الحلال والحرام »
والحلال : كله طيب ، ويكن بعضه أطيب من بعض ، والحرام كله حيث ،
ولكن بعضه أنجس من بعض

وبمفصل الإمام كل ذلك ، ليشي إلى « كتاب آداب الأئمة والأحرة
والصحة » وأسامة حسن الخلق ، والتأسي فيه بالرسول الذي يقول الله له :
﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقد بعث ، صلوات الله عليه وسلامه ، ليتم
مكارم الأخلاق .

فإذا ما كان حسن الخلق كانت الأحوة ، وفائدة الأحوة ، كما يريد لها الدين
عظيمة

ولقد قال صلوات الله عليه وسلامه في الثناء على الأخوة في الدين . « من
أراد الله به خيراً رزقه خيلاً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه »
ومن أروع ما قاله صلوات الله عليه وسلامه في ذلك . « مثل الأخوين ،

إذا التقيا مثل البدين : تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط ، إلا أقاد الله أحدهما من صاحبه خيراً .

ثم يتحدث عن العرلة والاحتلاط . مبيناً الآراء في كل منها ليستهي إلى أن كلام الشافعي ، رحمه الله ، في هذا الموضوع - وهو فصل الخطاب - إذ قال : « يا يونس ، الانقاض عن الناس مكسبة للعداوة ، ولا تبسط إليهم . محله لفرءاء السوء ، فكن بين المنقبض والمسط » فلذلك يجب الاعتدال في مخالطة والعرلة . ويختلف ذلك بالأحوال . وملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل ، هذا هو الحق الصراح ، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو بخيار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم على غير المخالف له في الحال .

والسفر للعة والاعتبار من أعظم ما يفيد الإنسان في حائبه الروحي ، ولكن السفر قد يكون يسيراً انقلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ، ويجمع السمرين ويبحث عبيهما قوله تعالى . ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

ويستهي الإمام في كتاب « السماع والوحد » بالحكم الرزين المطلق ، وهو أن سماع الغناء قد يكون حراماً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحباً .

أما الحرام فهو لأكثر الناس من لسان ، ومن علبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم ، إلا ما هو العالب على قريتهم من الصفات المدمومة وأما المكروه : فهو لمن لا يبرله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتحدث عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح . فهو من لاحظ له من التلدد بالصوت الحسن
وأما المستحب : فهو لمن علب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرم السماع منه إلا
الصفات المحمودة .

ولابد - لاستمرار ابدن حيا في النفوس - من القيام بالأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .
وبعد أن بين الإمام مواقف العلماء الرائعة ، وجهادهم في سبيل الله ، حتم
الفصل بقوله .

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر
وقلة مساكنهم سطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى ، أن
يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى ، أن يرقهم الشهادة ، فلما أخصوا الله
الثبة ، أثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها ، وأزال قسوتها ، وأما الآن فقد
قيدت لأطماع أسن العلماء فكتموا . وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم ،
فهم ينجحوا ، وو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفدحوا ، ففساد برعايا بفساد
الملوك . وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال
والحماة

ويحتم الإمام « العراقي » ربيع العادات بكتاب آداب المعيشة وأخلاق
النبوة ، فيبين ما كان عليه الرسول ﷺ ، من خلق هو كما في القرآن ،
ويشرح في استفاضة ما يوضح قول الله تعالى لرسوله :
﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ .

ويستدئ ربيع المهذبات . بكتاب من امس الكتب ، لا غنى عنه قط لمن

يريد أن يعالج التصوف عمليا ، أو أن يقتنع بحقيقته نظرياً ، ذلك هو كتاب « شرح عجائب القلب » وأهميته يرجع إلى أن القلب : هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل فيه ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه .

إذا تساءلت : ما معنى القلب الذي له هذه المنزلة ؟ يأتيك الجواب أنه : « هو لصيقة ربابية ، روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك ، العالم ، العارف ، وهو المحاطب ، والمعانف والمطالب » .

وفي النصوص التي ذكرناها فيما بعد ما ينبغي عن تلخيص هذا الكتاب ويتلو ذلك : كتاب « رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق » ومن هذا العنوان وحده نفهم أن « الغزالي » مرجع بين رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق ، أو بتعبير آخر ، جعل رياضة لنفس تهديباً للأخلاق . والخلق الحس إنما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة محاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين . ولقد كان صدوات الله وسلامه عليه يقول « يا أحكمكم إلى ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً » وأعظم المهلكات لابن آدم ، شهوة البطن .

فلابد من كسر هذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الإنسان إلا حلالاً ، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية ، والأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس ثقل المعدة ، ولا يحس تأم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة والقوة على

العادة ، وثقل المعدة يمنع من العادة . وأم الجوع أيضاً يشل القلب ، ويمنع منها .

ثم يبحث الإمام عن « آفات اللسان » .

وما من شك في أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه العربية . ولكن الناس تساهلوا في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهي كثيرة ، وما من شك في أن من أسباب الحجة : « نصيح به الرسول ﷺ في قوله : « أمسك عليك لسانك » .

والكذب ، والعيبة ، والتبعية ، والاستهراء ، والسحرية ، كل ذلك : من آفات اللسان . والمثل العربي يقول : « مقتل الرجل بين حكيه » .
والطريقة المثل : ألا يتحدث الرجل عما يغضب الله

ومن الآفات التي تفسد على الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقلل ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : « لا تعصب » فأعاد الرجل السؤال . فقال له : « لا تعصب » .
فما يزيل العصب ، الخلو من إذا كان الإنسان قائماً ، ولا اضطجاع إذا كان حالاً .

ومما يزيل العصب الوضوء ، والاعتسال .

ومما يزيه السجود .

« ألا إن الغضب حمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فمن وحد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض » وهذه إشارة إلى السجود .

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ولا يزال ابن آدم يحرق وراءها في جشع

وفي تكالب فتستعبده إلى أن يهلك ، والمؤمن يستعبد الدنيا فتدبر له ،
فتجدها مصيبة للأخرة

ومحب الدنيا بخيل ، لأنه متكالب عليها ، وقد روى بسند صحيح عن
رسول الله ﷺ .

« إن الله ، عروجل ، يقول ، إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وبو
كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثانی ،
لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله
على من تاب » .

أما المقياس الصحيح فهو قوله تعالى

﴿ ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾

وحب الجاه ، والرياء والكبر ، ولعجب ، والغرور كلها من الآفات
التي يجب أن يتحلى بها المؤمن ، إذا أراد أن يحصل لله نيته وقصده
أما إذا وصلنا إلى ريع المنجيات ، فقد وصنا إلى درة التاج ، وإن المور
المهادي ، وإلى صفاء الصفاء ! !

ويتبدى هذا القسم ، أول ما يتبدى به التوبة ، فإن التوبة عن الذنوب
والرجوع إلى ستر العيوب ، وعلام العيوب ، مدأ طريق السالكين ، ورأس
مال القائرين ، وأول أقدام المرئيين ، ومفتاح استقامة المائتين ، ومطعم
الاستصفاء والاجتهاد للمقربين .

ووجوب التوبة ، ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بوز البصيرة عند
من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بوز الإيمان صدره
﴿ بأيتها الدين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يسراب فيه .
ومها يكن من شيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ ، وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .
ونقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رحل نزل في أرض دوية ، مهلكة ومعه
راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت
راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى
مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده لموت ،
فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالتفت تعالى ، أشد مرحاً بتوبة
العبد المؤمن من هذا براحلته » .

والإيمان « نصفان » نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار
وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين ، وأضاف أكثر الدرجات
والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى :
﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وقال صلوات الله وسلامه
عليه :

« الصبر نصف الإيمان » وقال :

« اصبر أكثر من كنوز الجنة » .

وسم الله على المرء لا نحصى ، وواحب الإنسان نحو المنعم بهذه النعم هو
الشكر ، والشكر نفسه : سبب في زيادة النعم ، يقول تعالى :
﴿ لَأَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

والرجاء والخوف : جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ،
ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كنود

ويقرن الإمام « الغرالى » المقر بالزهد . والزهد فى الدنيا ، مقام شريف من مقامات السالكين ، وهو تحقيق لقوله تعالى .
﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ، وَأَمْوَالَهُمْ ، بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا ، فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ؟ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

والزهد إذن قوة ، لأنه بيع النفس والمال لله ، وتجرد فى سبيله والموكل ، مبرر من منارل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معالى درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد ، فمن وجد الله حق توحيده توكل عليه :

﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ .

أما محبة الله ، فإنها العاية القصوى من المقامات ، ولدروة العيا من الدرجات ، ومن ثمارها . الشوق ، والأسى ، ولرضا ، وليس قتل المحبة مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها : « كالتوبة ، والصبر ، والزهد ، وغيرها » . فهى واسطة العقد ، ودرة القلادة :

« والدين آمنتوا أشد حبا لله » .

لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ، أحب إليه مما سواهما .
وقد اكشف لأرباب القلوب ، بصيرة الإيحاد ، وأنوار انقرآن : أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

« فالناس كلهم : هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا العاملين ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

فالحمل بعير نية عناء ، والنية بغير إخلاص ، رياء ، وهو للمعاق كفاء ،
ومع العصيان سوء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق ، هباء . وقد قال الله
تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوياً مضموراً ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾
ويقول صلوات الله وسلامه عليه .

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » فمن كانت هجرته إلى
الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة
ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه ، .

ومن راقب الله فار ، ومن حاسب نفسه نجاً .
وقد وردت السنة : بأن تفكر ساعة خير من عبادة ستة . وكثر الحديث في
كتاب الله تعالى ، على التدبر والاعتبار ، والنظر والاهتكار ، ولا يخفى أن الفكر
هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ، ومصيدة المعارف
والفهوم

وقد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى ،
وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى :

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى
الالباب ، الذين يدكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق
السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فمنا عذاب النار﴾ .
وقد روى أن رسول الله ﷺ : بكى حينما نزلت هذه الآية وقال :
«ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»

وبما يعين - على وجه العموم - التفكر في الموت وما بعده ، «والكيس من

دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » ، يقول ، صلوات الله وسلامه عليه
« كفى بالموت واعظاً » .

ويحتم الإمام الغزالي كتابه بقوله :

« وروى أنه وقف صبي في بعض المعاري ينادي عليه - لبيعه - فيس يريد
في يوم صائف شديد الحر ، مصرت به امرأة في حياء القوم ، فأقبلت تشدد ،
وأقبل أصحابها خفيفاً حتى أحدث الصبي ، وألصقته إلى صدرها ، ثم ألفت
ظهرها على الطحلاء ؛ وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : انني ، ابي »
فبكى الناس وتركوها على ما هم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ ، حتى وقف
عليهم . فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ، ثم بشرها فقال

« أعجبتم من رحمة هذه لاسها ؟ قالوا . نعم ، قال ﷺ .

« إن الله تبارك وتعالى : أرحم بكم جميعاً من هذه بانيها »

فتفرق المسلمون على أفضل السرور ، وأعظم ليشارة

فهذه الأحاديث وما أوردها في « كتاب الرجاء » يشترها سعة رحمة الله
تعالى ، وفرحوا من الله تعالى ، ألا يعامدنا بما يستحقه ، وأن يتفصل علينا بما هو
أهله ، بمنه وسعة حوده ورحمته .

أثر الإحياء :

أما أثر هذا الكتاب في العالم الإسلامي . فقد كان ضخماً ، لقد شرح
واحتصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون ، وترجم الكثير
منه إلى الإنجليزية ، والفرنسية ، والإسبانية ، وغير ذلك من اللغات الحية
شرقية وغربية .

ومخطوطاته ، التي بمكتبات العالم ، لاتكاد تنحصر ، وقد طبع في القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع في الهند ، وفي تركيا ، وفي فارس . ولا يزال الكتاب للآن في العالم الإسلامي مصدر إلهام ونور ، ودراسة تختلف نتائجها ، لاختلاف نزعات الدارسين . ولا يزال في القطر المصري جماعات تعمد حلقات أسبوعية ، تخصصها لقراءة « الإحياء » والتعمد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

تقدير العلماء لكتاب « الإحياء » :

أما تقدير العلماء ، لهذا الكتاب : فنصوره الآراء التالية .
يكاد اناقدون يجمعون على كلمة : « أبي المظفر » سبط « أبي العرج ابن الحوزي » في قوله :
« ووصفه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون لفقته ، فأبكروا عليه ما فيه ، من الأحاديث التي لم تصح » .
وفكرة الأحاديث التي لم تصح . أداع بها كثيرون من أعداء الإمام « العزالي » ، وتحدثوا عنها مقلدين ومدرسين ، قائمين وقاعديين ، ولكن ها هو ذا المولى « أبو الخير » يقول :
« أما الأحاديث التي لم تصح ، فلا يسكر عليه زيادها ، لحواره في الترغيب والرهيب »

والواقع ، أن الإمام « العزالي » لم يأت هذه الأحاديث التي لم تصح ، لإثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية التي يشت بها ما تؤدي إليه من أحكام ، وقواعد ، وهي على هذا الوضوح كامية

للإثبات والاستدلال ، ثم يأتي بعد ذلك بالأحاديث ، وبأقوال الصحابة والتابعين .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الصعبة من الإحياء ، فإن كل المبادئ والقواعد والعظات والعبر التي أتى بها الإمام « الغزالي » في هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها ، من ناحية الإثبات ، والاستدلال .

وبين من هذا ، أنه لا قيمة لهذا الاعتراض لا شكلاً ولا موضوعاً . على أنه قد قام العالم الثبت لحجة « الحافظ »^(١٠) العراقي « السي » قال فيه شيخه « إن ذمه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة ، وأصبح الطريق أنج .

وشيء آخر عن هذا الاعتراض له أهمية ، وهو أن كثيراً من الأحاديث التي قال عنها الإمام « العراقي » « لا أصل لها » بين الإمام « الريدي » شارح الإحياء أصلها ، وكثيراً من الأحاديث التي قال عنها الإمام « العراقي » « إنها ضعيفة » بين

(١٠) الحافظ العراقي هو زين الدين أبو العسل عبد الرحمن بن الحسين العراقي ولد بحمص في جهدي الأولى سنة ٧٢٥ هـ

أن سبته إلى العراقي فترجع إلى أن أصل أبيه من العراقي
وتوفى والده وهو في الثالثة من عمره ، ولكن عناية الله أحاطت به ، إدو به الله فقرة مختارة . ذكاء حارقاً ، ودهناً صافياً ، وهمة عالية في طلب العلم . ويسرت له عناية الله الجود الثماني ، فأخذ من كل العلوم الإسلامية حظ وافر ، ولكنه تخصص في « علم الحديث » وظهرت فيه مواهبه ؛ وكان من توفيق الله ، أن محبة ذاكرة قوية حافظة عقبه شيوخه « حافظ الوقت »
ومن أجل الحديث قام « الحافظ العراقي » بعدة رحلات ، سافر إلى ذلك على طريق الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال في طلب الحديث الشريف .
لقد سافر العراقي إلى الشام ، متفلاً بين حواصرها ، وسافر إلى مكة والمدينة وانتهت حياته في شعبان سنة ٨١٦ هـ وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة ، خلد فيها الحديث جامعة جليلة

الإمام « الزبيدي » أنها ضعيفة ، من الوجه الذي رواها به الإمام « العراقي » ولكنها هي نفسها حسنة ، أو قوية من وجه آخر ، وبين الإمام « الزبيدي » هذا الوجه الآخر .

قال الخافظ « العراقي » عن كتاب « لإحياء » :

« إنه من أجل كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، وترجع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الصروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللغة ، بحيث يتعدى الرجوع إلى الساحل ، بل مرع فيه على الظاهر والباطن ، ومرج معانيها في أحسن المواضع ، وسبك فيه نقاس : اللفظ وصبطه ، وسلكت فيه من النمط الأوسط ، مقتديا بقول « علي » كرم الله وجهه خير هذه الأمة النمط الأوسط ، ينحى بهم التالى ، ويرجع إليهم القالى » .

وقال « الزبيدي » شارح « الإحياء » :

« وأنا لا أعرف له نظيرا ، في الكتب التي صنمها الفصحاء ، لجامعون في تصانيفهم بين النقل ، والنظر ، والفكر ، والأثر »
وقال « ابن السكيت » :

« وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل من ينظر فيه إلا ويتعطف به في الحال » .
وقال الشيخ « عبد القادر العيدروس » في كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » .

اعلم أن مسائل « الإحياء » لا تخص ، بل كل قضية له باعتبار حيثياتها لا تستقصى .

وكان « عبد الله العيدروس » رضى الله عنه ، يكاد يحيطه ، وروى عنه أنه قال : « مكثت أطلع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه ، وأعاوده ، وأتدبره ، فيظهر لى منه فى كل يوم علوم ، وأسرار عظيمة ، ومفاهيم غزيرة ، غير التى قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد » ومن كلامه :
عليكم يا إخوانى متابعة الكتاب والسنة . أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزائية ، خصوصاً كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس .

وقد أكرم الشيخ « عبد الله العيدروس » أخاه قراءة الإحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة .

ونحن هذه التقديرات ، برأى أعتقد أنه فيصل الحق ، فى موضوع « كتاب الإحياء » وهو رأى فضيلة العالم الحليل الاستاد الأكبر الشيخ « محمد الحضر حسين » شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بمصيبة ، والآراء مجمعة على أنه من لعلماء الذين حاولوا حاهدبين أن يكون كل ما يصدر عنهم إنما يراد به وجه الله ، يقول :

« وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مأخذ معدودة ، فإنه من صعب شر غير معصوم من الزلل ، وكفى بكتاب الإحياء ، فضلاً وسمو منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وأن يظفر منه طلاب العلم ، وعشاق المضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره » .

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ .

النصوص^(١١) التي تبين منهج الغزالي

النص الأول : الطريق^(١٢) :

الطريق : تقديم المحاهدة ، ومحو الصفات المدمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومنها حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكامل له شؤبهه بأنوار العلم ، ودا تولى الله أمر القلب فاضت عليه لرحمة ، وشرق النور في انقلب ، واشرح الصدر ، ونكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب العرة بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتح الله تعالى من الرحمة ، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم نور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالرهق في الدنيا ، والتبصر من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، تعالى ، فمن كان لله ، كان الله به

وزعموا أن الطريق في ذلك أولا : باقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وقطع الهمة عن الأهل ، والمال ، والولد ، والوطن ، وعن العلم والولاية واجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه في زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ

(١١) أحسن هذه النصوص من طبعة « المروى » ، وهي برقة بحسب صفحاتها في هذه الطبعة

(١٢) الإحياء ص ١٣٧٧ .

القلب ، مجموع الهمم ، ولا يبرق فكره بفراة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا يكتب حديثاً ولا غيره بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهي إلى حاة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه .

ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه موطياً على الذكر .

ثم يواطب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معي الكلمة مجرداً في قلبه ، حاصراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس . وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرصاً ، لنصحات رحمة الله .

فلا يبقى إلا الانتظار ، لما لله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق .

وعند ذلك ، إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاده شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لواضع الحق في قلبه .

ويكون في ابتدائه : كالبرق الخاطف ، لا شئت ، ثم يعود ، وقد تأخر ، وإن عاد فقد بشت ، وقد يكون محتطاً وإن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على فن واحد . ومنارل أولياء الله تعالى ، فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تماوت خلفهم

وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصمية ،
وحلاء . ثم استعداد ، وانتظار فقط .

وأما النظر وذوو الاعتبار : فلم يكرهوا وجود هذا الطريق وإمكانه ،
وإقصاءه إلى هذا المقصد ، على السور ، فيه أكثر أحوال الأنبياء ، والأولياء ،
ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستبطنوا ثمرته ، واستعدوا استجماع شروطه ،
وزعموا أن نحو لعلاق إلى ذلك الحد كالتعذر .

• • •

النص الثاني : بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في
كتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد (١٣)

اعلم : أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الإلهام
والوفاة في القلب ، من حيث لا يدري ، فقد صار عارفاً بصحة الطريق ،
ومن لم يدرك نفسه قط ، فنحن نؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة
حد ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات

أما الشواهد فقوله ، تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فكل
حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهي طريق
الكشف والإلهام .

وقال ﷺ : « من عمل بما علم ، ورثه الله عم ما لم يعلم ، ووقفه فيما
يعمل ، حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما
يعمل ، حتى يستوجب النار » .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ من الإشكالات

(١٣) الإحياء ص ١٣٨٥

والشبه : ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قيل : بعينه حليماً من غير تعلم ،
ويعطيه من غير تجربة .

وقال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ قيل
نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات
ولذلك كان ، ﷺ ، يكثر في دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة
والسلام :

« اللهم أعطني نوراً ، وردني نوراً ، واحملني في قلبي نوراً ، وفي قبري
نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً » حتى قال « في شعري وفي بشري ،
وفي لحمي ودمي . وعظامي » .

وسئل ﷺ ، عن نور الله تعالى ﴿ ألمن شرح الله صدره للإسلام ، فهو
عن نور من ربه ﴾ : ما هذا الشرح ؟ فقال :

« هو التوسعة . إن النور إذا قذف به في القلب تسع له الصدر وانشرح »
وقال ﷺ ، لابن عباس . « اللهم فقهه في الدين . وعلمه التأويل »
وقال علي رضي الله عنه : ما عندنا شيء ، أسره النبي ﷺ ، إلينا إلا أن
يؤتي الله تعالى ، عدا فيها في كتابه . وليس هذا بالتعلم .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ إنه الفهم في كتاب
الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ فهماها سبيان ﴾ خص ما انكشف باسم الفهم
وكان « أبو الدرداء » يقول : المؤمن من ينظر بنور الله ، من وراء ستر
رقيق ، والله إنه للحق يقده الله في قلوبهم ، ويخرجه على ألسنتهم
وقال بعض السلف ، ظن المؤمن كهانة .

وقال ﷺ « تقوا فريسة النور ، فإنه يطر بور الله تعالى » .
 وإليه يشير قوله تعالى ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ . وقوله تعالى
 ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

وروى « الحسن » عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :
 « العلم علان ، فعلم باطن في القلب ، فذلك ، هو العلم لتافع إيج »
 وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو؟ فقال هو . سر من أسرار
 الله تعالى ، يقده الله تعالى في قلوب أحمده ، لم يطلع عنه ملكا ولا بشرا . .
 وقد قال ، ﷺ : « إِنْ مِنْ أُمَّتٍ مُّحَدِّثِينَ ، وَمُعَلِّمِينَ ، وَمُكَلِّمِينَ ، وَبِئْنَ
 عَمْرٍ مِّبِهِم »

وقرأ ابن عباس . رضى الله عنهما : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
 وَلَا نَبِيٍّ ﴾ وَلَا مُحَدِّثٍ : يعنى الصديقين .
 والمحدث هو الملهم ، والملهم : هو الذى اكشف له في باطن قلبه من حجة
 الداخلة ، لا من حجة المحسوسات الخارجة . والقرآن مصرح . بأن التقوى مفتاح
 الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم .
 وقال الله تعالى : ﴿ إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ خصصها بهم .

وقال تعالى . ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .
 وكان « أنويزيد » وغيره يقول ليس انعام الذى يحفظ من كتاب ، فإذا
 نسي ما حفظه صر حاهلا ، وإنما انعام يأخذ عمله من ربه أى وقت شاء . فلا
 حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الربانى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :
 ﴿ وَعِزَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ مع أن كل علم من لده ، ولكن بعصه بوسائط

تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لدنيا ، بل اللدنى الذى ينصح فى سر القلب من غير سب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل .

ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر . وأما مشاهدة ذلك بالتحارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر . وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال « أبو بكر الصديق » ، رضى الله عنه ، « لعائشة » ، رضى الله عنها ، عند موته إنما هما أحوالك وأختاك . وكانت روجه حاملا ، فولدت بتاً . فكان قد عرف قل الولادة أم بت . وقال « عمر » رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا سارية الجبل ، إدا انكشف له أن العذر قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن « أنس بن مالك » ، رضى الله عنه قال : دخلت على « عثمان » رضى الله عنه - وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى ، فنظرت إليها شرراً ، وتأملت محاسنها - فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت : يدخل على أحدكم ، وأثر الزنى ظاهر على عينيه ! أما علمت أن زنى العينين المظر؟ لتبين أولأعريتك ، فقلت : أوحى بعد البهى ؟ فقال لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراسة صادقة .

وعن أبى « سعيد الخرار » قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان ؛ فقلت فى نفسى :

هذا وأشباهه كل على الناس ، فنادانى وقال .

« والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال .

﴿ وهو الذي يقلل الثوبة عن عبادته ﴾ ثم عاب على ولم أره
 وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل
 الهاشمي ، وهو عليل ، وكان ذا عيان ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال
 فلما قلت في نفسي : من أين يأكل هذا ، رحل ؟ قال فصاح بي ،
 يا أبا العباس ، رد هذه الهمة الدنية ، فإن الله تعالى أظافاً حفية .

* * *

النص الثالث : دليل الكشف^(١٤)

والدليل القاطع على الكشف الذي لا يقدر على حمله أمران :
 أحدهما . عوائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب . وإذا جاز
 ذلك في النوم ، فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في
 ركود الخواس ، وعدم اشتغالها باحساسات ، فكم من مستيقظ غائص ،
 لا يسمع ولا يبصر ، لا اشتغاله بنفسه .

الثاني : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب ، وأمور المستقبل ، كما اشتمل
 عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبى ﷺ ، جاز لغيره : إذ البى عبارة عن
 شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في
 الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا
 لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً .

فن آمن بالأنبياء ! وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لا محالة ، أن يقر بأن
 القلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الخواس ، وباب إلى الملكوت من
 داخل القلب : وهو باب الإلهام والنفث في الروح ، والوحي

(١٤) الإحياء ص ١٣٨٩

فإذا أقر ، مهما جمعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعميم ، ومباشرة الأسباب
المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سيلا إليه
فهذا ما يسه على حقيقته مذكراته : من عجيب تردد القلب بين عالم
انشهادة وعالم الملكوت .

وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال الموح إلى التعبير ، وكذلك
تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضا من أسرار عجائب
القلب ، ولا يبيح ذلك إلا بعلم المكاشفة . فلنقتصر على ما ذكرناه ؛ فإنه كاف
للاستحاث على المجاهدة ، وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين
ظهر إلى الملك ، فسأله أن أمل عليه شيئا من ذكرى الخلق ، عن مشاهدتي
من التوحيد ، وقال : ما يكتب لك عملا ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل
تتقرب به إلى الله عز وجل ، فقلت : أليستما نكتيان المرائص ؟ قال : بلى ،
قلت : فيكفيكما ذلك

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكائنين ، لا يطلعون ، على أسرار القلب ،
وإنما يطلعون على الأحوال الظاهرة .

* * *

النص الرابع الفرق بين العلم النظري والعلم الكشفي^(١٥)

فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، ونهجر
إليه العلم منه ، فاستغنى عن لاقتباس من داخل الحراس ، ويكون ذلك كتمجر
الماء من عمق الأرض . ومما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسّات ، كان
ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ . كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار ،

(١٥) الإحياء ص ١٣٨٦

منع ذلك من التصحر في الأرض ، وكما أن من يطرأ الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس

فإذن للقلب بابه . باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو النوح المحفوظ ، وعالم الملائكة . وباب مفتوح إلى الخواص الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضاً ، يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة . فاما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الخواص ، فلا ينبغي عليك وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة النوح المحفوظ : فتعلمه علماً يقينياً : بالتأمل في عجائب الرؤيا ، وإطلاع القلب في انوار على ما سيكون في المستقبل ، أو كان في الماضي ، من غير اقتباس من جهة الخواص . وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال عليه السلام : « صبي المفردون » .

قيل : ومن هم المفردون يا رسول الله ؟

قال : المتزهون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم أورارهم ، وردوا القيامة مخفاهاً .

ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى . « ثم أقل بوحى عليهم ، أتري من واجهته بوحى يعلم أحد أى شىء أريد أن أعطيه » ؟

ثم قال تعالى : « أول ما أعطيهم أن أقذف الورق في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبرهم » .

ومحل هذه الأحبار هو الباب الباطن .

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العمداء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت

وعلم الحكمة يأتي من أبواب الخواص ، المفتوحة إلى عالم الملك

* * *

النص الخامس : الجود الإلهي ^(١٦) .

علوم الله سبحانه - لا نهاية لها ، وأقصى لرتب رتبة النبي ، الذي
تنكشف له الحقائق ، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل بكشف إلهي في أسرع
وقت .

ويهدى السعادة يقرب العبد من الله تعالى ، قريباً بالمعنى والحقيقة والصفة ،
لا بالمكان والمسافة .

ومراقى هذه الدرجات هي : منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر
لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي يلمه وسلوكه ، فيعرفه ويعرف
ما خلفه من المنازل ، فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علماً ، لكن قد
يصدق به ، بماً بالعب ، كما أنا نؤمن بالنبوة ، والنبي ، ونصدق بوجوده ،
ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي .

وكما لا يعرف الجنين حال الطمس ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من
العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل ، وما اكتسبه من العلوم النظرية ،
فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه من مزايا لطفه ورحمته :
﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا يحسبها ﴾ .

وهذه الرحمة مبدولة بحكم الجود والكرم ، من الله سبحانه وتعالى غير
مصنوع بها على أحد ، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرصة ، لنفحات رحمة
الله تعالى ، كما قال ﷺ :

(١٦) الإحياء : ١٣٥٩ .

« إن لربكم في أيام دهركم لمحات ، ألا تحرصوا لها ،
 والتعرض لها لتطهير القلب ، وتركته من الخبث والكدورة ، الخاصة من
 الأخلاق المنمومة ، كما سيأتى بيانه :
 وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ :
 « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع ، فأستجيب له ؟ »
 ويقول عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه عز وجل
 « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً »
 ويقول تعالى في الحديث القدسي « من تقرب إلى شبراً ، تقربت إليه
 ذراعاً » .

كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لحل ، ومنع
 من جهة المصم ، تعالى عن السحل والمص علوا كبيرا
 ولكن حجب الخبث وكدورة ، وشغل من جهة القلوب ، فإن القلوب
 كالأواني ، ما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله ،
 لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « لولا أن
 الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لظفروا إلى مكنوت السماء » .
 ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان . العلم والحكمة
 وأشرف أنواع العلم . هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الإنسان ،
 وفي كماله سعادته وصلاحه لحوار حصرة الجلال والكمال .

• • •

النص السادس^(١٧) : شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى .

(١٧) الإحياء ص ٢٥٨١

اعلم أن الأمة محمعة على أن الحب لله تعالى ، ورسوله ﷺ فرض ، وكيف
يعرض ما لا وجود له ؟ وكيف يصير الحب بالطاعة . والطاعة تبع الحب
وغرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب
ويبدل على إثباته لله تعالى قوله عز وجل : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى
﴿ والدين آمنوا أشد حبا لله ﴾ .

وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات النعوت فيه .
وقد جعل رسول الله ﷺ ، الحب لله من شرط الإيمان في أحوار كثيرة ،
إذ قال أنور رين العقيلي : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال :
« أن يكون الله ورسوله ، أحب إليك مما سواهما » .
وفي حديث آخر :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .
وفي حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »
وفي رواية « ومن نفسه » .

كيف وقد قال الله تعالى . ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم
وآرواحكم وعشيرتكم وأموال اقترعتموها ونحارة نكسوها ، ومساكن
ترصونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتركبوا حتى يأتى الله
بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١٨) .

وإنما جرى ذلك في معرض التهديد والإيثار . وقد أمر رسول الله ﷺ ،
بالهجرة فقال :

« أحبوا الله لما يفيضكم به من نعمه ، وأحوني لحب الله إني »
 ويزوي ، أن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك فقال ﷺ « استعد لمفقر » فقال إني أحب الله تعالى فقال « استعد للبلاء »
 وعن عمر رضي الله عنه ، قال نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقلدا وعليه هات كش قد تمطق به ، فقال النبي ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل أسي نور الله فيه بعد رأيته بين أنويه بعدوه بأطيب الطعام وشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

وفي الخبر مشهور ، أن إبراهيم عليه السلام ، قال لملك الموت إذا جاءه لقمض روحه :

« هل رأيت حبيلا يميت حليله ؟ فأوحى الله تعالى ، إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبته ؟ فقال : يا ملك الموت الآن فاقض »
 وهذا لا يحده إلا عند يحب الله بكل قلبه . وهذا علم أن الموت مسبب اللقاء ارجع قلبه إليه . ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .
 وقد قال نبينا ﷺ في دعائه :

« اللهم رزقي حاك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربني إلى حاك ، واحمل حاك أحب إلى من الماء البارد » .

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال :
 « ما أعددت لها » فقال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله ﷺ : « امرء مع من أحب » قال أس .
 رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه « من داق من حائص محبة الله تعالى
 لقصة التصوف المتخذ من الضلال

شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جمع البشر .

وقال الحسن : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو ، حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن »

وقال أبو سليمان الداراني : « إن من خلق الله خلقاً ما يشعلهم الحنان وما فيها من النعيم عه ، فكيف يشتعلون عه بالدسا ؟ » .

ويروى . « أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر ، وقد نحت أبدانهم ، فقال . ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا . الخوف من النار ، فقال . حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاورهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتعبرا ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قال : اشوق إلى الجنة ، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاورهم إلى ثلاثة آخرين . فإذا هم أشد نحولا وتعبرا كأن عبي وجوههم المراتي من النور ، فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون .

وقال : عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم في الثلج ، فقلت . أما تحب البرد فقال : من شعله حب الله ، لم يجد البرد .

وعن سري السقطي قال : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام . فيقال يا أمة موسى ، يا أمة عيسى ، يا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون يا أولياء الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فكاد قلوبهم تنخلع فرحاً . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل ، أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفكرة ، وهي تحسره في الدنيا ، وتروجه في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رصوانه ؟ ! ورضوانه يستغرق الآمان ، فكيف حبه ؟ وحيه يدهش العقول ، فكيف وده ؟ ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه ؟
وفي بعض الكتب : عدى : أنا وحقك لك محب ، فحقى عليك كن لى محبا .

وقال يحيى بن معاذ : « مثقال حردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب » .

وقال يحيى بن معاذ أيضا : « إلهى إني مقيم بصائلك ، مشغول بشائلك ، صغيرا أخذتني إليك ، وسر بلتي معرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحواص ، وقلبتني في الأعمال : ستر وتويه ، ورهدا ، وشوقا ، ورضا ، وحننا تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك . ملازما لأمرك ، ومشغوقا بقولك . ولما طر شاربي ، ولاح طائري ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا ، وقد اعتدت هذا منك صغيرا ، فلي ما بقيت حولك دندنة ، وبالصراعة إليك مهمة ، لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف ، وقد ورد في حب الله تعالى ، من الأحبار والآثار ، ما لا يدخل في حصر حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإعما الغموض في تحقيق معناه . فليشتغل به » .

الفصل السادس المنقذ من الضلال

- نوطنة
- مدخل السفسطة
- أصناف الطالبين (علم الكلام - الفلسفة ، أصناف الفلاسفة ، أقسام علومهم - مذهب التعليم ، طرق الصوفية)
- حقيقة السوء
- سبب نشر العلم

نوطة

الحمد لله ، الذي يفتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله ، وأصحابه ، اهادين من الضلالة .

أما بعد : فقد سألتني أيها الأح في الدين ، أن أنت إليك غاية العلوم ، وعائلة المذهب أغوارها .

وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والخرق وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يمام^(١) الاستبصار .

وما استفدته أولاً من علم الكلام وما اجتويته^(٢) ثانياً : من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام .

وما ازدريته ، ثالثاً : من طرق التفسف .

وما ارتضيته ، آخرأ : من طريقة التصوف :

وما انجلى لي في تصاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق

وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .

وما ردتني إلى معاودتي ، « بنيسابور » بعد طول المدة .

(١) اليماع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تقول : اجتويت البلد إذا كرهت للقام به وإن كنت في نعمة .

فتدبرت لإيجانتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق دعيتك ، وقدرت
 مستعينا بالله ، ومنوكلا عليه ، ومسوقاً منه ، ومنسجناً إليه
 اعلموا - أحسن الله ، تعالى ، إرشادكم ، وألار لبحق قيادكم أن
 اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة في المذاهب مع كثرة الفرق
 وتباين الطرق ببحر عميق ، عرق فيه الأكثرون وما يحامته إلا الأقليون ، وكل
 فريق يرعم أنه الساحي ، و ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ وهو الذي وعدنا
 به سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الصادق المصدوق ، حيث
 قال : « ستفرق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ساحية منها واحدة ^(٣) » ، فقد كان
 ما وعد أن يكون

ولم أرب في عصفوان شباني - منذ راهقت السوخ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى
 الآن ، وقد أناف السن على الخمسين - أقنم لحة هذا البحر بعميق ،
 وأحوض عمرته خوض الحسور ، لا حوض الحبان الخدور : أتوعل في كل

(٣) روى هذا الحديث على اختلاف في منه ، في عدة كتب ، بعده أسانيد ولكنه لم يرو في
 « صحيح البخاري » ولا في « صحيح مسلم »

وقد قال « ابن حرم » عنه ، إنه لا يصح أصلاً من جهة الإسناد
 وقال « ابن لوزير » في العواصم والقواصم « يالك أن تعبر بريادة كلها في الدار إلا واحدة »
 ريادة فاسدة ، ولا يعد أن تكون من دسيس الملاحدة
 على أنه قد روى هذا الحديث بالخائفة الآتية اثنتان وسبعون في دخته وواحدة في النار وقال المفدسي
 في « أحسن التقاسيم » إن الحديث على هذا الوضع ، أصح إسناداً
 ومع ذلك ، فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهرستاني » يعلون لفرق التي في النار ، ويتكلمون
 « الوصول » إلى « اثنتي وسبعين فرقة » ، مع أن شعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لا ينتهي حتى
 تقرب الساعة

انظر مقدمة كتاب ، « التصدير في الدين » التي كتبها « الشيخ » أحمد الكوثري « رحمه الله تعالى

مطعمة ، وأنهم على كل مشكلة ، وأنهم كل ورطة ، وأنهم عن عقيدة كل هرفة ، وأنهم كشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأمير بين محق ومبطل ، ومتمسك ومبتدع

لا أعادر باطلياً إلا وأحب أن أطلع على بطائه .
ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .
ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .
ولا متكلمياً إلا وأحتمل في الاطلاع على غاية كلامه ومحادثته
ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .
ولا معبدأ إلا وأنرصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .
ولا رنديقاً معطلاً إلا وأنحس وراءه للتسلسل لأسباب جراته ، في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي ، وديني ، من أول أمري . وريعان عمري . عريرة . وفطرة من الله . وصعنا في حلتي لا باختيارى وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا ، إذ رأيت :

صباى الصارى . لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصباى اليهود . لا نشوء لهم إلا على اليهود . وصباى المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » . فتحرك ناظني إلى حقيقة الفطرة الأصيلة ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاديين ، والتمييز بين هذه التقليديات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تميز

الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت في نفسي . أولاً ، إنما مطلوبى : العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم : ما هي ؟

فظهر لى . أن العلم اليقيني . هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقاربه إمكان الخط والنوهم ، ولا يسع القلب بتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقدرناً ليقين ، مقارنة أو تحدى بإظهار بطلانه - مثلاً - من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإنى إذا علمت ، أن العشرة : أكثر من الثلاثة فلر قال لى قائل ، لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلها ، وشاهدت ذلك منه . لم أشك - بسبه - في معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه .

فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت : أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى .

مدخل السفسطة

ثم فتشت عن علمي ، فوجدت نفسي : عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات .

فقلت : الآن بعد حصول ليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الحليات ، وهي الحسيات ، والضروريات : فلا بد من إحكامها أولاً ، لأتيقن أن تقني بالمحسّات ، وأمان من العلط في الضروريات . من حسن أمانى الذي كان من قبل في التقليديات ، ومن حسن أمانى أكثر الحق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ، ولا غائلة له .

فأقربت بجد يبلغ ، أتأمل في المحسّات والضروريات ، وأنظر : هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فأنتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسّات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالحواس ؟ وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل ، فتراه واقعاً غير متحرك ، وتحكم بنى الحركة ، ثم بالتجربة والملاحظة بعد ساعة تعرف : أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بنته ، بل على التدرّج ذرة ، ذرة ، حتى لم تكن له حالة وهووف .

وتنظر إلى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار ديار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار .

هذا ، وأمثاله ، من المحسّات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ، ويكسبه حاكم العقل ، ويخوبه ، نكسبياً لا سبيل إلى مدافعته .

فقلت قد بطلت الثقة بحسبات أيضاً ، فلم له لا ثقة إلا بالعقليات ، انى
هى من الأوليات ، كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة . واسى والإثبات لا
يجمعان فى الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً
معدوماً ، واحباً محالاً .

فقايت الحواس ثم تأمر أن يكون ثقتك بالعقليات ، كثفتك بالحسبات
وقد كنت واثقاً بى ، فحاء حاكم العقل فكذبى ، ولولا حاكم العقل لكنت
تستمر على تصديقى ، فلم وراء درك العقل حاكماً آخر . إذا تحلى كذب
العقل فى حكمه ، كما تحلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم نهي
ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالة !

فتوقفت النفس فى حجاب ذلك قليلاً ، وأيدت إشكالاتها بالمنام ، وقالت
أما تراك تعتقد فى اليوم أمراً . وتحيل أحوالاً ، وتعتقد شيئاً ثباتاً ، واستقراراً ،
ولا تشك فى تلك الحالة فيها . ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متحيلاتك
ومعتقداتك أصل ، وطائل ؟

فبم تأمر أن يكون جميع ما تعتقده فى بقطتك ، بحس أو عقل ، هو حق
بالإضافة إلى حالتك انى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطراً عليك حالة تكون
بستها بى يقطتك : كسنة يقطتك إلى منامك ، وتكون بقطتك يوماً بالإضافة
إليها ! فإذا وردت تلك الحالة ، تيفت أن جميع ما نوهمت بعقلك حيالات لا
حاصل لها .

وبعد تلك الحالة ما ندعه الصوفية : أنها حالتهم ، إذ يرفعون أنهم
يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا عاصروا فى أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ،
أحوالاً لا يوافق هذه المعقولات

ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قال رسول الله ﷺ
« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » .

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة . فإذا مات طهرت له الأشياء
على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك :

﴿ فكشفنا عنك غطاءك ففصرك ليوم حديد ﴾

فلما خطرت في هذه الحواطر ، وانقدحت في نفس ، حاولت لذلك
علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يكن نصب دليل إلا من
تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسببة ، لم يمكن تركيب الدليل
فأعصل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين . أنا فيها على السهولة بحكم
الحال ، لا بحكم الطق والمقال

حتى شئى الله تعالى . من ذلك المرحس ، وعادت النفس إلى الصحة
والاعتدال ، ورحمت الضروريات العقبية مقولة ، موثقاً بها على أمر وبقين
ولم يكن ذلك بنظم دليل وبريب كلام ، بل بنور قدسه الله ، تعالى ، في
الصدر ، وذلك نور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن طس أن يكشف : موقوف
على الأدلة المحررة ، فقد صبق رحمة الله الوسعة ، ولما سئل رسول الله ، عليه
الصلاة والسلام ، عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

﴿ من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قال

« هو نور ، يقده الله تعالى ، في القلب » .

ف قيل : وما علامته ؟

قال : « التجاوى عن دار لعرور ، والإبابة إلى دار الخلود » وهو الذي

قال : عليه السلام ، فيه :

« إن الله تعالى . خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليه من نوره » .

فمن ذلك النور : ينفي أن يطلب الكشف .

وذلك : النور يسجد من الخود الإلهي في بعض الأحيان ، ونحو الترسد

له ، كما قال عليه السلام : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا

لها » .

والمقصود من هذه الحكايات : أن يعمل في كمال الجهد في الطلب ، حتى

ينتهي إلى طلب مالا يطلب فإن الأوليات ليست مطبوعة ؛ فإنها حاضرة ،

والحاضر إذا طلب بغير واحتق . ومن طلب مالا يطلب لا يتهم بالتقصير في طلب

ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شهد الله تعالى ، من هذا المرض بفضله ، وسعة جوده ، انحصرت
أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق :

- ١ المتكلمون وهم يدعون أنهم أهل الرأى ، واسطر .
- ٢ - الباطنية . وهم يرعمون أنهم أصحاب التعليم ، وانخصوصون
بالاقتباس من الإمام المعصوم .
- ٣ - الملاسمة : وهم يرعمون أنهم أهل المنطق ولبرهان .
- ٤ - والبصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة
والمكاشفة

فقلت فى نفسى . الحق ، لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم
السالكون سبل طلب الحق ، فإن شد الحق عنهم ، فلا يبقى فى درك الحق
مصنع ، إذ لا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتة ، إذ من شرط المقلد ألا
يعلم أنه مقيد ، فإذا علم ذلك انكسرت رجاحة تقليده ، وهو شعب^(٤) لا
يرأب^(٥) وشعث^(٦) لا يلم باللفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ونستأنف
له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق

(٤) الشعب من الأصناد وهو هنا معنى الشئ

(٥) يرأب يصبغ

(٦) شعث متروك

مستنداً بعلم الكلام ،
ومثلياً بطريق الفلسفة ،
ومثلياً بتعليم الباطنية ،
ومربعاً بطريق الصوفية

• • •

علم الكلام : مقصوده وحاصله .

ثم إلى ابتدأ بعلم الكلام ، فحصلته ، وعقنته ، وطالعت كتب المحققين منهم .

وصفت فيه ما أردت أن أصف .

فصادفته عملاً وقيماً بمقصوده ، غير واف بمقصودي .

وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة (٧) .

(٧) يرى أن الإمام الغزالي مع همه في الهابة بعلم الكلام - كان محملاً للمشككين ، ويرى أن يذكر هنا رأي السلف في شيء من الاستعاضة

قال ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣ في كتاب ، جامع بيان العلم وفضله : « هي السيف ، رحمهم الله - عن الخصال في الله ، جل ثلوه ، في صفاته ، وأسمائه ، وما العقه فأجمعوا على الخصال فيه ، ولما ظهر لأنه علم يحتاج منه إلى رد الفروع إلى الأصول للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ، لأن الله ، عز وجل ، لا يوصف عبد الخواصة - أهل السنة - إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، أو أجمعت الأمة عليه ، ليس كمثله شيء ، فيدرك نفس أو إعدام نظر ، وقد سبنا عن التمسك في الله ، وادبرنا بالتسكير في حقيقة الدال عليه ، وعن مصعب من عبد الله الزميري ، قال كان مالك بن انس يقول الكلام في الدين أكرهه ، ولم ير أهل بلدنا يكرهونه ، ويهرون عنه نحو الكلام في رأي حهم . والغدير ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل »
وقال أيضاً في الكتاب نفسه : « وقال أحمد بن حنبل لا يفلح صاحب كلام أنداء ولا يكاد يرى أحدًا =

= نظر في الكلام إلا وفي عليه دخل :

وقال مالك ، أُرِيتَ إن جاءه من هو اجلد منه ، اندع دمه كل يوم ، لدين حميد ؟
قال أبو بكر : تناظر القوم ونجادو في الفقه وسوا من الخدال في الاعتقاد لأنه يؤدي إلى الاسلح
من الدين ألا ترى إلى مناظرة بشر في قومه ، عروجل (ما يكون من بجوى ثلاثة إلا هو راعهم)
حين قال هو داته ، في كل مكان فقام به خصمه فهو قلسونك ، وفي حشث ، وفي حرف
حمار تعان الله ما يمول حكى ذلك وكيع رحمه الله ، وآله والله أكره أن أحكى كلامهم فسد
وشبهه نبي العلماء :

من كتاب : التمهيد : للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق

وقد جاء فيه أيضا عن شيخ الإسلام الخواري المتوفى سنة ٤٨٩ هـ

وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : « حرج رسول الله ﷺ ، على
أصحابه ذات يوم وهم يدرجون في القدر ، فخرج بعضهم حتى وقف عليهم ، فقال يا قوم هذا
صلب الأمم قبلكم ، اختلافهم عن أنبيائهم ، وصرهم الكتاب بعضهم بعضا ورس القرآن لم يزل تنصرون
بعضه ببعض ولكن نزل القرآن فصديق بعضهم بعضاً ، ما عرفتم منه فاعلموا به وما نسيه فآسوا به »
وأخرج عن أبي هريرة قال : « حرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن متنازع في القدر ، فخصب ، حتى
احمر وجهه ، ثم قال أهدأ أمرم ، أم هذا أرسلت إليكم ؟ إما حدث من كان قبلكم حين يدرعون في
الأمر ، هومت عليكم ألا تنازعوا »

وأخرج عن أبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وأبي مالك ، ورواه عن الأصبغ قال : « حرج إني
رسول الله ﷺ ، ونحن متنازع في شيء من الدين ، فخصب خصبا شديداً ، فبعض مثلث ثم اقتفروا .
قال يا أمة محمد ألا تبصرون على أنفسكم ثم قال أهدأ أمرتكم ، وليس عن هذا بينكم ؟ ، مما هلك
من كان قبلكم هذا ثم قال دروا المرء لقد حيره ، دروا المرء ، فلا يفقه قليل ، ويبهج
العداوة بين الإخوان دروا المرء ، فإن المرء لا يؤمن فنته دروا المرء فإن مرء يورث شلث ، وعط
العمل ، دروا المرء فإن المؤمن لا يبارى دروا المرء ، فكفى بك ظمأً ألا تروا محارماً دروا المرء فإن
المهرى لا أشفع له يوم القيامة ، دروا المرء ، فأما وهم ثلاثة أبيات في الدنيا في مصعبها ، وبعصها ،
وأنعلاها لم ترك المرء ، وهو صادق ، دروا المرء ، فإنه نور ما ساء الله عنه بعد عبادة الأوثان . وشرب
الخمر ، دروا المرء فإن الشيطان قد شس من أنه بعد ، ولكن رضى بالتحريس ، وهو المرء في الدين ،
دروا المرء ، فإن بني إسرائيل افرقوا على إحدى وصعين فرقة ، والبصاري على اثنتين وصعين فرقة =

فقد ألقى الله تعالى ، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي . الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان في وساوس المستدعة أمورا مخالفة للسنة ، فهجروا ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها فأشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تليسات أهل البدعة المحدثنة على خلاف السنة الماثورة ، فهدى بشأ علم الكلام وأهله ^(٨) .

= وابن أمي سمعني على ثلاث وسبعين مرة كلهم على الصلاة ، إلا السواد الأعظم ، قالوا يا رسول الله ، ومن السواد الأعظم ؟ قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي ، ثم قال إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً فطوبى للغرباء ، قالوا يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال الذين يصلحون يد صد الناس ، ولا يجارون في دين الله أحد .

(٨) تحدث الإمام الغزالي عن علم الكلام عبر مرة في كثير من كتبه ، وتحدث في « الإحياء » عن الآراء في كونه حلالاً أم حراماً ، ثم قال

وإن التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف قال من عد الأعرابي رحمه الله . سمعت الشافعي ، رضي الله عنه ، يوم باطر حصصاً الفرد ، وكان من متكلمي المعتزلة يقول لأن يلقى الله عز وجل ، العبد بكل ذنب ما حلا لشرك ما لله خير له من أن يبقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حصص كلاماً لا أقدر أن أحكيه

وقال أيضاً قد اطمعت من أهل الكلام على شيء ما طنته قط ، ولأن يبطل العبد بكل ما سبي الله عنه ما عدل الشريك ، خير له من أن ينظر في الكلام

وحكي الكرابيسي . أن الشافعي رضي الله عنه مثل عن شيء من الكلام فعصب ، وقال سل عن هذا حصصاً الفرد وأصحابه أحزاهم الله

وذا مرض الشافعي رضي الله عنه ، دخل عليه حصص الفرد فقال له من أنا ؟ فقال حصص الفرد . لاسمك الله ولا رحاله حتى يموت بما أت فيه

وقال أيضاً لو علم الناس ما في الكلام من الأهراء ، لفروا منه ودرهم من الأسد وقال أيضاً إذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له .

فلقد قام طائفة منهم بما يدينهم الله تعالى إليه ، فأحسوا الذنب عن السنة ،
والنصال عن العقيدة المتلقاة بالقول من النبوة ، ولتخير في وجه ما أحدث من
البدعة .

ولكنهم اعتبدوا في ذلك على مقدمات تسموها من حصومهم ،

قال الزمخشرى قال الشافعى حكى في أصحاب الكلام ، أن يصرخوا بأخريد ويظاف بهم في
القتال والمناظر ، ويدل هذا جراً من ترك الكتاب والسنة ، وأخذ الكلام
وقال أحمد بن حنبل لا يطلع صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً يظن أن الكلام إلا وفي قلبه
دغل وباطل في دمه حتى هجر الحارث الضمير مع رده وورعه سبب تصيغه كتاباً في الرد على
المتدعة ، وقال له . ألسنتي تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ؟ ألسنتي تحمل الناس تصيغك على مطالعة
البدعة ، والصكر في تلك الشبهات ، يدهوهم ذلك إلى الرأي والبحث
وقال أحمد ، رحمه الله : علماء الكلام ردة

وقال مالك ، رحمه الله : أرايت إن جاءه من هر أجلى منه ، أيدع فيه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى
أن أقوال المتجددين لن تتفاوت .

وقال مالك رحمه الله أيضاً لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء
نقال بعض أصحابه في تأويله . إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام . على أى مذهب كانوا
وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام يتردى
وقال الحرس لا يجادلوا أهل الأهواء ، ولا تجالسوهم ، ولا تسمعوا منهم ، وقد اتفق أهل الحديث
من السلف على هذا

ولا يصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه .
وقالوا : ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم -
إلا لطمهم بما يتولد منه عن الشر ، لذلك قال النبي ﷺ :
(هلك المنتظمون ، هلك المنتظمون ، هلك المنتظمون ، أى المنتظمون في البحث والاستقصاء جدلاً
واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ، ويعلم
طريقه ، ويثنى عليه وعلى أربابه ، فقد علمهم الاستجاء ، ودينهم إلى علم المرائض ، وأثنى عليهم ،
وسأهم عن الكلام في القدر وقال أسكروا عن القلور ، وعن هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم
فالتزادة على الأستاذ طمیان وظلم ، وهم الأستاذون والقدوة ، ونحن الأتباع ، والتلامذة

واضطربهم إلى تسليحها أما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القول من القرآن والأخبار .

وكان أكثر حوصهم في استخرج مناقصات الخصوم . وموآحداتهم بلوارم مسلماتهم وهذا قبل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً . فلم يكن الكلام في حق كافيلاً ولا بدلى لدى كنت أشكوه شديداً^٩

نعم . لما نشأت صعه الكلام ، وكثر الخوص فيه ، وطالت مدة تشوق المتكلمون إلى محاولة الدب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، وحصولها في البحث عن الجوهر والأعراض وأحكامها ، لكن لما لم يكن ذلك مقصود عنهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يحو بالكلية طيات الأخيرة ، في اختلافات الخلق

ولا أبعاد أن يكون قد حصل ذلك تعيرى ، بل لست أشك في حصول ذلك بطائفة . ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات .

والعرض الآن حكاية حلى . لا لإبكار على من استشى به ، فإن أدوية لشدة تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء يتفع به مريض ويستصبره بحر

(٩) ونحدث الإيدم العروى في الإحياء أيضاً عن منفعه عم الكلام وفائدته معيراً به النص عن رآيه خاص قدر

وأن منفعته فقد نظر أن فائدته ، كشف الحقائق ، ومعرفة على ما هي عليه وهيات ، فليس في الكلام وفاة بهذا انطباع الشريف ، ومن التحيط والتصيل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث ، أو حشوى ربما حظير بذلك أن الناس أعداء ما جهنوا ، فاسمع هذا من حبر الكلام ثم فلا بعد حقيقة الخبره وبعد النعفل فيه إلى منتهى درجه المتكلمين وجاور ذلك إلى التعنى في عدم آخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود

الفلسفة :

أحاصيلها ما يدم منها ، وما لا يدم . وما يكفر قائله ، ولا يكفر ، وما يبدع فيه ، وما لا يبدع ، وبيان ما مرقوه : من كلام أهل الحق ، ومرجوه بكلامهم لترويح باطلهم في درج ذلك . وكيفية حصرون نكرة انهموس من ذلك الحق ، وكيفية استحلاص صراف الحق الخاص من الزيف والبهرح من حملة كلامهم .

ثم إلى شدات - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة ، وعلمت بقيتاً . أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم في أهل ذلك العلم ، ثم يريد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ، من غوره وعائله ، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا .

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وحمته إلى ذلك ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم - حيث اشتغلوا بالرد عليهم - إلا كلمات معقدة مددة ظاهرة انشقاق وانفساد لا يطر الاعتراض بها لعقل علمي ، فصلا عن يدعي دقائق العلوم فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه : رمي في عمية .

فشعرت عن ساق الحد في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المصلحة ، من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا مُصَوِّب^(١٠) بالتدريس والإعادة

(١٠) مبتلى

لثلاثة من الطلبة بعداد .

فأطلعني الله سبحانه وتعالى ، بمحرد المطالعة في هذه الأوقات المختلطة على منتهى علومهم ، في أقل من ستين ، ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه ، قريباً من سنة أعاوده وأردده ، وأنفقد غوائله ، وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه : من خداع ، وتليس ، وتحقق ، وتحيل ، اطلاقاً لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم : فإني رأيتهم أصافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصحة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم في العدد عن الحق ، والقرب منه .

أصناف الفلاسفة وشمول وصحة الكفر كافتهم .

اعلم : أنهم - على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام

الدهريون ،

والطبيعون ،

والإلهيون ،

الصنف الأول : الدهريون^(١١) وهم طائفة من الأقدمين : ححدوا

(١١) بعد أن ذكر سبلانا كلام اليعقوبي والغزالي عن الدهرية قال : « فإننا لم نحاولنا استنباط الأصول التي اعتمدها اليعقوبي والغزالي فيما ذكرناه في حق الدهرية وجدنا أرسطو يقول في كتاب « السماء والعالم » حاكياً عن « أبيادو قليس » :

أصبح المدرس^(١٢) العالم القادر ، ورعموا : أن العالم : لم يزل موجوداً ، كذلك

١ إن هذا العالم لم يخلقه أحد من الآلهة ولا من البشر بل كان أبداً ١ هـ ثم قال أرسطو في المقدمة الثالثة من كتاب السماء ما نصه

أما من ذهب إلى قول أن دو قلس وديموقريطس فإنه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها في بعض بل لاحتوت إلا في الظاهر فإنها موجودة على حدس ٢ فخرق بعد الاجتماع ١ هـ .

ثم قال في كتاب : « الفساد والتكوين » في المقالة الأولى : « وعندهم . أن الأركان إذا اجتمعت بعد تحدث الأجسام وإذا افرقت فسدت الأجسام . وعندهم أيضاً أن الوجود لا يصير أبداً إلى العدم ١ هـ وقال ديوجانس في تاريخ الحكماء : ورأيهم أن العدم لا يحدث منه شيء وأن الوجود لا يصير إلى العدم ١ هـ فإذا ما قلنا هذه لصوص ٢ في تاريخ اليقوني وجدناها مطابقة ، مصللاً مصللاً ، لما ذكره من مذهب الدهريين

تقرر حينئذ أن الدهرية عند العرب هم شيعة (ديموقريطس) و (أنبادو قلس) وأن الطبيعيين . هم بقية الأقدمين من الفلاسفة

ومذهب ديموقريطس هو الغاية القصوى في فلسفة اليونان أو غير المصر الأول

اقتبس منه الأشاعرة قولهم بالخرق الذي لا يتجزأ

ومنه أصل النظام من متكلمي المعتزلة قوله بالكون

ومنه أصل جم كثير من الملاحدة والطبيعيين قولهم في إنكار الباري ووحدة الوجود

لن طابق قول ديموقريطس مما عليه الطبيعيون من الفلاسفة في عصره هذا لما وجد بين القولين تفاوتاً ، اللهم إلا ما نشأ عن تقدم العلوم في زمانه

والحق أن من انحصر على الطبيعيات ، ولم يقل بغيرها ، لا يسهل إلا الانحصار والصل

بشائركم مع أن من بصري عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأي ، لا يقص ، في كل زمان ، إلا لإنكار الحقائق وهدم دعائم العقل ١ هـ ستلنا المذاهب الفلسفية ، مخطوط مكتبة الجامعة

(١٢) إن حقيقة التي لا جدال فيها هي أن الأعلى السطى من الفلاسفة ومن العلماء من جانب الإيمان

والإلحاد في جو الفلاسفة ، وجو العلماء شذوذ

وبما لا شك فيه أن عباقرة الفلسفة : القدماء منهم والمحدثين مؤلفون فسفاط ، وأفلاطون ،

وأرسطو ، وأطوطين ، وديكاروت من المؤلفين .

وإذ كان الإلحاد يفسى شذوذاً فإن ذلك لا يبي أن حقيقة موجودة وأن له ممثلي باستمرار ،
وهم - على حد تعبير الإمام العزاي - جحدر الصانع المدير العالم القادر ودعموا أن العالم لم يزل موجوداً
كذلك بعينه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من حيوان ، كذلك كان ، وكذلك
يكون أبداً .

وديموريطس في العهد اليوناني هو الذي حاول بكل جهده أن يجمع من الإلحاد مذهباً وكانت فكرته
هي

أن المادة قديمة ، وهي مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، وهذه الأجزاء أو الدواب دائمة التحرك في
الفضاء اللانهائي ومن اجتماعها تتكون الأجسام وافتراقها تنهي وهكذا استمر الأمر من الأرب ، وسبق
إلى الأبد بدون نهاية ولا هدف . إنها الآلية المحضة

وهذه الفكرة ، وإن كانت قديمة فإنها فكرة كل من يحدد الإلحاد مذهباً في العصور الحديثة ومن
اختلعت كيميائيات لتعبر عنها .

إنها فكرة الماديين محدثين كما كانت فكرة القدماء ولم يغير من جوهرها تحطيم المذاهب أو تعذيبها ، اللهم إلا
في كيفية التعبير عنها

وقد رد القدماء في سهولة وفي قوة على هذا المذهب وكذلك فعل محدثون وكانت حججهم ، من الدقة
ومن الإحكام ، بحيث تجعل التأمل فيها لا يأتني له أن يقول بغيرها .

وقد لخص حجاج القدماء الأستاذ سائلانا في المخطوط المسمون بعنوان « المذهب الإسلامية »

وحي نورد تلخيصه الرائع فم يل

(١) وأما القول بالطبيعة . وأن لا شيء غيرها فهو لا يبرص العقل المتبصر كأنه يقول

نعم أن لا أنارح في كون الطبيعة والحركة من أصول الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل
منها

فلو لم يكن هناك مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل هذا العالم هذا النظام المسجيب ،
والترتيب العريب الذي حازت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول

كيف نسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد المحت ؟ ليت شعري . كيف اجتماع تلك الأجزاء ؟
وكيف تألفت على اختلاف أشكائها وتباين موادها وقواها ؟ وكيف يصب على تألفها ؟ وكيف
تجددت على تخط واحد بلرة بعد المرة ؟

وقد شهدت المعينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تقصى إلا إلى غاية الانبساط وعدم
القيام !

هذا معنى ، كمثل من وضع حروف معجم في ظروف ، و صديق ثم جعل حركتها يوماً بعد يوم ،
قطعاً منه ما يتألف من نقاء نفسها ، فتركب منها نصيده نبيحة ، أو رسالة عميقة في المنطق أو كتاب في
الهندسة دقيق ؟ !

أليس ذلك من السعة البين ، فإنه لو دُم على حركتها النسيم والتهور لما حصل من كله ، لا على
حروف ؟ !

فكيف يتصور حدوث هذه الوجود (لعمري) عما هو عليه من الإنسان والإحكام وتصاميم لأجرام ،
وعجيب تناسباتها بعضها بعض من حركات اتفاقية في حلاء لاهية ١٢٩

قال أرسطو في كتاب (سبع الكيان)

(إن كل نظام يدل على وجود العقل)

(ب) وفصلاً عن هذا فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ولا يتكرر ولا يسوع به حكم على
عنه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في علمنا من الثبوت ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم
من العلوم الرياضية والطبيعية

(جـ) هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شيء سواها فليس أين هذه القوة العقلية التي
يحدثها كل واحد من نفسه ؟ ! !

وهي مع ما فيها ، من العجز والقصور وكثرة الخطأ من تظهر هذه الشواهد على وجود ما يخالف
مجرد المادة في هذا العالم

ولا يسيل من المادة إلى أفعال المعاد ، فليس من انبعاثه الأصمى موجود هذه القوة يستدعي وجود
جوهر يجاسه ويغلبه ، يكون أصلاً لها ويركز على تحمل ، مشاهدته من تصور المعقولات ،
ويكشف عن الكليات وتحرير القصص وتركيب المقدمات ليس هو في نفس الأمر ، إلا اصطكاكاً جزء
من المادة بجزء آخر ؟ !

هل يمكن أن ما تصبته عقول من الأبحاث الدقيقة ، والتجارب العميقة كالمسطق ، والرياضيات
والإلهيات ، وما تشبهه العلوم ، من الشعر الرقيق والمطرب من الألحان ، وصحح بيبي ، أصله من تلك
الأجزاء ؟ !

وكائنات النار من اصطكاك الحجر وذلك في حصوص النار ، ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق
كثير .

(د) إن المادة غير قادرة على أن تكون علّة نفسها فمن باب آخر وأولى بها لا يكون عنه لا هو أعلى
مها مكاناً وأهم شأن في درجة الوجود ، وإلا كان الأحسن أصلاً لما هو أرفع ، وهذه ما تبعده وتأنه

بنفسه ، وبلا صانع ، وم يرل الحيوان من الطفة ، والنطفة من الحيوان ،
كذلك كان ، وكذلك يكون أئداً وهؤلاء هم الرائدة (١٣)
والصف الثاني : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحشهم : عن عالم لطبيعة
وعن عجائب الحيوان والسات .

وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات
فأروا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمه ، ما اضطروا معه إلى
الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع
التشريح وعجائب منافع لأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العم الضروري

الفقرة السليمة

(١٣) يقول مستلانا أيضا :

« من يبصر في عواقب الأمور تحق ، أن مثل هذا الرأي لا يقص في كل زمان إلا إلى إنكار الحقائق
وهدم دعائم العقل كيف لا ومن قال إنه ليس في الوجود إلا نفس ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن
يحكم بالوسوء ؟ »

وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح يحصل حيث قال مثلا عن أرسطو وغيره
الحس إدراك فقط

والحكم تأليف بين مدركات بالحس ، أو بغير الحس .

وبين من شأن الحس التأليف الحكمي ، لأنه إدراك فقط فلا شيء من الأحكام محبة أصلا ، فإذن
كل ما هو محس لا يمكن أن يوصف من حيث كونه محساً مكرهه يقياً أو غير يقين أو حقاً أو باطلاً
أو صواباً أو خطأ فإن جميع هذه الأوصاف من نواحي الأحكام هـ وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس
وأنه مقصور بالضرورة على خصوص الإدراك لا يتعداه

على أن المدرك والمدرك لا رالا يتغير فكيف يحكم به على غيره ، وكيف يبي عليه حكماً عقلياً ،
وكيف يبي على جميعه إذ كل ذلك موقوف على ما هو غير الحس ، فإن إذا بصورت مثلا أن قد سمعت
الصوت فقد تجاورب حد الإدراك الحسي ، وأدخلك فيه حكماً عقلياً ليس له بالحس تعلق
فكل فلسفة مقصورة على محرم الحس لا يكون منها حبيته إلا الشك في الحقائق ، كما وقع في اليونان في
أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

كحال تدبير الماني لنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء لكثرة عثرهم عن الطبيعة ظهر عندهم - لاعتدال مزاج
تأثير عظيم في قوم قوى الحيوان به . فطنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة
لمزاجه أيضاً ، وأنها تظل سطلان مزاجه فيعدم . ثم إذا انعدم ، فلا يعقل
إعادة المعلوم ، كما رعموا فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فمحدوا
الآخرة ، وأنكروا الجنة ، والنار ، والحشر ، والشتر ، والقيامة ، والحساب ،
فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فاحل عنهم للجرام ،
وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً ربادقة ، لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله ، واليوم
الآخر ، وهؤلاء جمحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصف الثالث . الإلهيون : وهم المتأخرون مهم مثل « سقراط »^(١٤) وهو

(١٤) سقراط من أشهر فلاسفة الإغريق ومؤسس فلسفة الأخلاق وإلى مدارس الأخلاقية التي شادها

تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفكر الأخلاقية التي حرمت فلسفات المصور حتى عصرنا هذا

عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وجاهد في سبيل الحق حتى لقي مصرعه على أيدي حاشديه من

أنصار الياطل فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق في كل زمان ومكان

وتوحى إلى أنصهم بأسمى مثل الطونة والشجاعة والثبات على الحق

وسمجه في البحث مشهور . والحديث التالي يعطينا صورة منه وقد جرى بينه وبين أرسطو ديموس الذي

كان ينكر الإله ، ومنه نستطيع أيضاً بعض أفكاره

قال سقراط : أتى الناس من يعجبك براعته في الصنائع ؟ فقال .

نعم . وتسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعلم أربع من غيره .

فقال سقراط : أيها عنك أرفع شأن ؟ أم يصنع الغائيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور

الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال من يصنع الصور الحية . اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادقة والاتفاق لاس

عمل العقل . قال سقراط : إنه قرصنا أشبه لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمضعة ، فما

أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس »

و « أرسطاطاليس » هو الذي رتب لهم لمطلق ، وهدب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنصح لهم ما كان قجاً من علومهم وهم يحملهم ، ردوا على الصنم الأول من الدهرية ، والطبيعية ، وأردوا في الكشف عن مصانعهم ما أعوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتات بتقاتلهم .

ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون^(١٥) وسقراط ومن كان قبله من الإلهيين ، ردّاً لم يقصر فيه حتى تردّ عن جميعهم . إلا أنه استبقى بضاً من

قولك في تلك الأشياء ؟ ما هي التي عندك من فعل العقل ، وما هي التي عندك من فعل الاتفاق ؟ فإن لا شك أن ما ظهر قصده ومنعته من فعل العقل .

قال سقراط أولت ترى أن صانع الإنسان في قول شأنه جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ فاعطاه البصر ، والأذنين ، يسمع ما يكون نفعه صدقاً وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا لخباشم وكيف يدرك المطاعم ويهرب من المر والملو والملز ، لو لم يكن لسان يدوي به إن نصره معرض للاتفات أولت ترى كيف اعنت القدرة الإلهية بذلك ؟ فجعلت الأحكام كالآليات تجمع ما يصيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتفريق ما ضرر الرياح ، وما حولك في آلة السمع ، وهي تعمل جميع الأصوات ولا تملأ أذناً ، أب رأيت الحيوانات ، كيف رتب أسنانها للقدمة ؟ وأعدت لقطع الأشياء علقها إلى الأصراس فلتقطها دقا ؟

يبد تأملت في ترتيب ذلك يمكنك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو من فعل العقل ؟ قال أرسطو دعهم نعم إذا تعكرنا في ذلك ، لانك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصوغاته من مخطوط « ستلانا »

(١٥) فسوف يروا ولد سنة ٢٩ : وتوفي سنة ٣٤٧ ق م ويطلق عليه (أفلاطون الإلهي) ذلك أن الروحانية تحمل من فلسفته المركز الرئيسي .

ونظرت في (المثل) وعلى رأسها (مثال الخير) مشهورة وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثاً بعض محاورات وكتاب (الجمهورية)

ردائل كفرهم وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للتزوع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير
 شيعتهم من المتفهمة الإسلاميين كاس سيد و القاراني وأمثالها .
 على أنه لم يقم نقل علم . أرسطاطاليس^(١٦) أحد من متفهمة الإسلاميين
 كقيم هذين الرحدين ، وما بقه غيرهما ليس يتخلو عن تحييط وتحيط ، بتشوش
 فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم كيف يرد أو يقس ؟ ومجموع ما
 صبح عندها من فسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرحدين ، يمحصر في
 ثلاثة أقسام :

- ١ - قسم يجب التكفير به .
- ٢ - وقسم يجب التبديع به .
- ٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فنمضه .

أقسام علومهم :

اعلم : أن علومهم بالنسبة إلى العرض الذي نطله ستة أقسام :

رياضية ، ومسطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وميائية ، وحلقية

١ - أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ،
 وليس يتعنق شيء منها بالأمور الدسنة نصاً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية ، لا

(١٦) أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) هو أعلم فلاسفة اليونان الأسمى وبعده بعض الناس أعظم
 شخصية فلسفية وجدت حتى الآن وهو مفيدون الأصل رجل إلى أثينا وتعلم على أفلاطون ولارمه
 ويسمى أتباعه (بالمثاليين) ويلقب هو بـ « المعلم الأول » لأنه أول من رتب المنطق ونظمه وكونه علماً له
 حدوده وأهدافه وقد طلب إليه الملك فيليس المفيدون تعليم ابنه الإسكندر فأخذ يعلمه ثلاث سنوات وقد
 ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه كتاب « الأخلاق » و (الكون والعصاد) و (السياسة) ترجمها الأستاذ
 أحمد لطفى السيد وترجم له الأستاذ الالهوى كتاب النفس

مسيل إلى محاكمتها بعد فهمها ، ومعرفتها .

وقد تولدت منها آفتان :

الآفة الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها .
فحس بسب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في
الرصوح ، وفي وثاقة البرهان ، كذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم ،
وعطيلهم ، وسهاوهم ناشرع ، ما يداوله الألسنة ، فيكفر بالتقيد المحض ،
ويقول ، لو كان الدين حقاً ، لما احتق على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم !
فإذا عرف بالتسامع ، كفرهم وحجدهم ، فيستدل على أن الحق : هو المحمد
والإنكار للدين . وكم رأيت من يصل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له
سواه !

وإذا قيل له : لحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل
صناعة ، فلا يرم أن يكون الحاذق في الفقه ، والكلام ، حاذقاً في الطب ،
ولا أن يكون الحاضر بالمعليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها
رتبة البراعة والسق . وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها ، فكلام
الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من
جربه وحاض فيه ، فهذا إذا قرر على هذا الذي اتخذ بالتقليد لم يقع منه موقع
القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكيس على أن يصير
على تحسين الظن بهم في العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب رجر كل من يحوض في تلك العلوم ^(١٧) ،

(١٧) إن الرياضيات الآن م بعد تابعة للفلسفة ، أو علم من علومها ، وإنما هي مادة مستقلة لاغنى
صها للمجتمع الإنساني ، وهي حينما تدرس لا يفكر المدارس لها في أمور الدين ولا في مبادئه وسبل ومبعضها

فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ عمومهم ، يسرى إليه شرهم وشؤمهم فقل من يخص فيها ، إلا وينحطع من الدين ، ويسحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين يسبى أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع عمومهم وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف ، والخسوف ، ورغم أن ما قاله على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد لفلسفة حياً ، وللإسلام بعضاً .

ولقد عظمت على الدين حثاية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنسبة ، والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدنيوية . وقوله عليه السلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى ، لا يحسمان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الصلاة » . ليس في هذا إنكار علم الحساب ، المعروف بمسير الشمس ، وانقمر ، واجتماعها ، أو مغايبتها على وجه الخصوص .

أما قوله ، عليه السلام « لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فليس توحد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً .

فهذا حكم الرياضيات وألفتها .

في أيام الإمام الغزالي كان غير رصعها الآن وما من شك في أن الإمام الغزالي وهو واسع الأفق مستبصر
يوحاش بيتا الآن لما قال ذلك

٢ وما المنطقيات فلا يتعلق شيء منها بالدين ، بهيأ وإثباتاً ، بل هو
اسطر في طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها
وشروط اخذ الصحيح ، وكيفية ترتيبه .
وأن العلم : إما تصور ، وسيل معرفته الخد ، وإما تصديق وسيل معرفته
البرهان

وليس في هذا ما ينفي أن يسكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون ،
وأهل لطر في الأدلة ، وإعما يفارقونهم بالعبارات ، والاصطلاحات ، وبريادة
الاستقصاء في التعريفات ، والتشعيبات

ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (أ) (ب) ، لزم أن بعض
(ب) (أ) أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن بعض حيوان إنسان ،
وعبروا عن هذا بأن المرححة الكمية ، تعكس موححة حرثية وى تعلق لهذا
عمهات الدين ، حتى يحدد ويسكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره - عند أهل
المطلق إلا سوء الاعتقاد في عقل المسكر ، بل في ديه الذي يرعم أنه موقوف
على هذا الإنكار

نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعزم
أنها تورث اليقين ، لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدبية ، ما
أمكهم انوفاء تلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل
ورعنا يطر في لبطو أيضاً ، من يسحسه ، ويراه واضحاً فيظن أن ما
يسقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك الراهين ، فاستعجل بالكفر قل
الانتهاء إلى العنوم الإلهية .

هذه لآفة أيضاً منطرفة إليه

٣ وأما علم الطبيعيات فهو بحث عن عالم لسموات ، وكواكبها ، وما تحتها من الأجسام المفردة . كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن الأحسام المركبة : كالحیوان ، والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتحاها ، وذلك يصاهي بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مراجه ، وكما أنه ليس من شرط المدين إنكار عم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة . ذكرها في كتاب « نهضة الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فقد تأمن يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جملتها . أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والطبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ وأما الإلهيات : ففيها أكثر أعاليتهم لما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثرت الاختلاف بينهم فيها ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابي (١٨)

(١٨) الفارابي (٢٦٠ - ٣٢٩) ولد في طراب وهو إقليم فارسي في نجوم بلاد الترك رحل إلى بغداد ثم استقر به المقام في كنف سيف الدولة يعيش عبثه الزهد . موجهها كل همه إلى الدراسة والتأمل يقول بن حنكاه وكان مدة معلمه بدمشق لا يكون غالباً إلا بعد مجتمع ماء ، أو مشبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه

وكان الفارابي يحسن الموسيقى تلقيناً وترغيباً ، حتى يحكى من حنكاه أن الآلة الموسيقية القانون إلى هي من وضعه ، وقد أطلق عليه المسلمون المعلم الثاني ، كما أطلق على أرسطو المعلم الأول وتقدير المؤرخين مصدق . فهم من نقله على ابن سينا ومنهم من يقدم ابن سينا عليه

قضية التصوف المنقذ عن الضلال

وابن سينا^(١٩) .

ولكن مجموع ما عبطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة
مها ، وتنديعهم في سبعة عشرة .

ولا يطل مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفها كتاب « التفاهت » .
أما المسائل اثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم

١ - إن الأجساد لا تحترق^(٢٠) ، وإنما المثاب ، والمعاقب هي الأرواح
المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا حسانية

(١٩) ابن سينا - (٣٧١ - ٤٢٨ هـ) كان فيلسوفاً عظيماً من فلاسفة الإسلام كما كان له في الطب
قدم راسخة وعلم دقيق وقد ألف في كتاب القانون الذي كان يدرس في معاهد أوروبا عدة قرون .
أما كتبه الفلسفية فكثيرة ومتداولة ومن أشهرها كتاب : الإشارات وكتاب الشفاء وكتاب الحجة
(٢٠) لعل من الإيضاح ، الذي يدعو إليه دائما الإمام الغزالي ، أن نذكر رأي ابن رشد في مسائل
الثلاث التي كثر بها الإمام الغزالي في الفلاسفة
يذكر رأي ابن رشد ، مختصراً عن كتابي فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة بقرون
ابن رشد

والعماد : مما اختلفت عن وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء وإنما اختلفت الشرائع في
صحة وجوده ، ولم تختلف في الحقيقة في وجوده ، وإنما اختلفت في الشهادات التي مثلت بها للجمهور
تلك الحال الغائبة وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً ، أعني للنفس ، ومنها من جعله للأجسام
والنفس معاً ، والاتفاق في هذه المسألة مبني على اتفاق الوجود في ذلك ، واتفاق قديم البراهين الضرورية
عند الجميع في ذلك أعني أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين ٢ أخروية ودنيوية ، وأبني ذلك
عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل

تم أخذ ابن رشد في بيان هذه الأصول ، من العقل والفعل ، ثم قال . فالشرائع كلها كما قلنا . متصفة
عن أن للنفس من بعد الموت أحوالاً من السعادة أو الشقاء ولكنها مختلفة في تمثيل هذه الأحوال ، وتفهم
وجودها للناس وشبه أن يكون التمثيل الذي في شريعتنا هذه أتم إيفاءها لأكثر الناس ، وأكثر تحريكاً
تنويعهم إلى ما هنالك . والأكثر من هم المقصود الأول بالشرائع .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، وإسبا كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار
الجبانية ، وكهروا بالشريعة فيما نطقوا به .

وأما التمثيل الروحاني فيشبه أن يكون أقل تحريكاً لنفوس الجمهور إلى ما هنالك والجمهور أقل رغبة فيه
وحوافاً له . منهم في التمثيل الجسماني ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسماني أشد تحريكاً إلى ما هنالك
من الروحاني ، والروحاني منه قبولاً عند المتكلمين المتعادلين من الناس ، وهم الأقل
وهذا معنى مجد أهل الإسلام - في فهم التمثيل الذي جاء لملتقى أحوال المعاد ثلاث فرق
فرقة رأت أن ذلك الوجود هو عينه هذا الوجود الذي ههنا من البعيم واللدنة أعنى أسمه وأواؤه واحد
بالجسم وأنه إنما يختلف الوجودان بالبدن والانتقطاع ، أعنى أن ذلك دائم وهذا منقطع وطائفة رأت
أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين طائفة رأت أن الموجود الممثل هذه المحسات هو روحاني ،
وأما مثل به إرادة البيان وهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة مشهورة فلا معنى لتعديدها
وطائفة رأت أنه جسماني ، لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية - الموجودة هنالك مخالفة لهذه الجسمانية
تكون هذه باقية وذلك باقية ولهذا أيضاً حجج من الشرع

ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأي لأنه روى عنه أنه قال
ليس في الدنيا من الآخرة إلا أسماء ويشبه أن يكون هذا الرأي هو أليق بالخواص
وذلك أن إمكان هذا الرأي يوجب على أمور ليس فيها منارعة عند الجميع أحدها أن العنصر باقية
وثالث أنه يلحق عن عودة النفس إلى أجسام آخر المحال الذي يلحق عن عودة تلك الأجسام
بغيرها

وذلك أنه يظهر أن مواد الأجسام التي ههنا توجد متعاقبة ، ومتتلفة من جسم إلى جسم ، أعنى أن
المادة الواحدة بغيرها توجد لأشخاص كثيرة ، في أوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن
توجد كلها بالفعل ، لأن مادتها هي واحدة
مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ،
فاعتدى إنسان حر من ذلك النبات ، فكان منه منى حين تولد منه إنسان آخر
وأما إذا فرغت أجسام أخرى ، فليس تلحق هذه الحال .

والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها بعد أن يكون نظراً لا يعنى
إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة فإن هذا النحو من الاعتماد ، يوجب تكفير صاحبه
لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس ، بالشرائع والمقول

٢ - ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكلليات دون الجزئيات^(٢١) .
وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في
السموات ، ولا في الأرض » .

٣ - ومن ذلك قولهم بتقديم العالم وأرليته^(٢٢) فلم يذهب أحد من المسلمين
إلى شيء من هذه المسائل .

(٢١) يذكر بن رشد عن الإمام الغزالي بوله : إن الفلاسفة يرون أنه سبحانه ، لا يعلم الجزئيات ثم
يقول : ليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون (الفلاسفة) أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث لدى من
شرطه الخلق محدثها إذ كان (علم الله) علته لها ، لا معلولاً عنها ، كالحال في العلم المحدث
وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن
صورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة
أنه عالم ، كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق) وهو اللطيف الخبير وقد اضطر البرهان إلى أنه غير عالم بها
بالمعنى الذي صفة العلم المحدث ، موافق أن يكون هنالك للموجودات علم آخر ، لا يكيف ، وهو علم
القديم سبحانه ، وكيف يمكن أن يتصور أن الشاكرين من الحكماء ، يرون أن العلم القديم لا يجحد بالجزئيات
وهم يرون أنه سبب الإندراجات في ملئامات ، والوحى ، وغير ذلك من أنواع الإلهامات

(٢٢) يقول ابن رشد : وأما مسألة قدم العالم أو حدوثه فإن الاختلاف فيها عديد - بين المتكلمين
من الأشعرية ، وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض
القدماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات ، طرفان ، وواسطة بين الطرفين
فاتفقوا في تسمية الطرفين ، واحتلما في الواسطة

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود وجد من شيء غيره وعى شيء ، أعنى من سبب فاعل ، ومن
مادة ، والزمان متقدم عليه - أعنى على وجوده - وهذه هي حار الأجسام التي يدرك تكوينا بالحواس ،
مثل تكون الماء ، والهواء ، والأرض والحيوان ، والنبات ، وغير ذلك ههنا الصنف من الموجودات
اتفق الجميع من القدماء ، والأشعرية ، على تسميتها بحدث

وأما الطرف المقابل هذا فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عى شيء ، ولا تقدم زمان وهذا أيضاً
اتفق الجميع من الفرقين على تسميته قديماً وهذا الموجود مشترك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذي
هو فاعل الكل ، وموجده والملاحظ له ، سبحانه وتعالى قدره
وأما الصنف من الموجود ، الذي بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه

رمان ، ولكنه موجود عن شيء أعنى عن فاعل وهذا هو العام بأسره والكل مهم متحقق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين سلموا أن الزمان حيز متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ، إذ لزمان عندهم شيء مفارق بحركات والأجسام ، وهم أيضاً معقون مع القدماء على أن الزمان يستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون في الزمان الماضي ، والوجود بخاصة فالتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيخته . وأرسطو وفرقة يرون أنه غير متناه ، كحال في المستقبل فهذا الموجود الآخر ، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شيئاً من الوجود الكائن بالحدث ، ومن الوجود القديم لم يلب عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه الحدث ، سواء قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه الحدث ، سواء محدثاً وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً حقيقياً ، فإن الحدث الحقيقي فاسد ضرورة القديم الحقيقي ليس له علة .

ومهم من سواء محدثاً رلياً ، وهو أفلاطون وشيخته ، لكون الزمان متناهياً عندهم من الماضي فالذهب في العالم ليست تساعد كل التباعد حتى يكفر بعضها فلا يكفر ، فإن الآراء التي شأنها هذا ، يجب أن تكون في العاية من التباعد ، أعنى أن تكون متقابلة كي ظل المتكلمون في هذه أسئلة ، أعنى أن اسم القدم والحدث في العام بأسره هو من المتقابلة ، وقد تبين من قوتنا أن الأمر ليس كذلك وهذا كله مع أن هذه الآراء في العالم يسب على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة ، على الأبناء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين أعنى غير منقطع وذلك أن بونه تعالى . (وهو لدى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) يقتضى بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود وهو العرش والماء ورمائاً قبل هذا الزمان ، أعنى المقرون بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركات الفلك وقوله تعالى (يوم تبين الأرض غير الأرض والسموات) يقتضى بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود ، وقوله تعالى . (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) يقتضى بظاهره أن السموات والأرض خلقت من شيء .

والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العام ، هل ظاهر الشرع ، بل متأولون فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع القدم اخص ، ولا يوجد هذا في نص أبداً ، فكيف تصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات ، أن الإجماع يعقد عليه ؟ والظاهر الذي قلناه من الشرع في وجود العام ، قد قال به فرقة من الحكماء وشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العريضة إما معنيين مأجورين وإما مخطئين معدومين فإن التصديق بالشئ من قبل الدليل القاطن في النفس ، هو شيء اضطرارى ، لا اختياري ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق ، أو لا نصدق كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ،

٤ - وأما ما وراء ذلك من تبهم الصمت ، وقولهم ، إنه عيب مدسات لا يعلم رائد على الدات ، وما يجرى مجره ، فدهبهم فيها . قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

وقد ذكرنا في كتاب : « مبطلات الفرق بين الإسلام والبرذفة » ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ - وأما السياسات - فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصحح ، المتعلقة بالأمور الديوية ، والإيالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المترلة على الأنبياء ، ومن الحكم للأئمة عن سلف الأنبياء

٦ - وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأحلاقها ، وذكر أحناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها . ومجاهدتها .

وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون ، المتأبرون على ذكر الله ، تعالى ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد اكتشف لهم في مجاهدتهم من أحلاق النفس وعبوبها ، وآفات أعماها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم ، توسلاً بالتجمل بها إلى ترويح باطلهم .

ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتأهلين ، لا يحل

فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له ، إذا كان من أهل العلم بعلوم ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام

« إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

وأى حاكم أعظم من الذى يحكم على الوجود بأنه كذا ، أوليس بكذا ؟ وهؤلاء الحكماء هم العلماء ، يحصهم الله بالتأويل

الله ، سبحانه العالم عنهم ، فإبهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تطرون ، وبهم ترزقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف » .

وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن

فتولد من مزحهم كلام النوبة وكلام الصوفية ، يكتبهم آفتان :

١ - آفة في حق القابل

٢ - آفة في حق الراد .

٣ - أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة ، إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم ، ومزجواً باطلهم ينفي أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره . إذ لم يسمعه أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل . كالذي يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصراني » ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني : كافر ، باعتار هذا القول ، أو اعتبار إنكاره نبوة محمد - عليه السلام - فإن لم يكن كافراً إلا باعتار إنكاره . فلا ينبغي أن يُحافى في غير ما هو به كافر ، مما هو حق في نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول : يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعقل يقتدى بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حيث قال « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق ، تعرف أهله » .

والعقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مطلقاً ، أو محققاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل

الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب - ارغام^(٢٣) ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس لقلاب ، وانتزع الإبريز الخالص ، من الزيف والبحر ، مهما كان وثاقاً ببصيرته . وإنما يزجر عن معاملة الغلاب الفروى ، دون الصيرفي البصير ، ويمنع من ساحل البحر الأخرق دون السواح الحادق . ويصد عن مس الحبة الصبي ، دون المعزم البارع .

ولعمري ، لما غلب عن أكثر الخلق طهم بأنفسهم الحداقة والبرعة ، وكال العفل ، في تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة ، وحب جسم الناس في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل لضلالة ما أمكن ؛ إذ لا يسمون من الآفة الثانية التي سذكرها ، وإن سلموا عن الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض على بعض الكلمات المشروطة في تصانيفنا ، في أسرار علوم الدين ، طائفة من الدين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تفتح إلى أقصى عايات المذاهب بصائرهم .

ودعمت : أن تلك الكلمات من كلام الأوائل^(٢٤) ، مع أن بعضها من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحائر على الحافر وبعضها يوحد في الكتب الشرعية .

وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية .

وهب أنها لم توحد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه مؤيداً بانبرهان ؛ ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ، أو يسكر ؟

(٢٣) الرغام . الغراب

(٢٤) يقصد به الأوائل ، الفلاسفة القدماء

فلو فتحنا هذا الباب ، ونظرنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر منطل
لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر حملة آيات من القرآن ، وأخبار
الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية - لأن صاحب
كتاب « إخوان الصفا » أوردها في كتابه ، مسشهادة بها ومستدرجاً قلوب
الحمقى بواسطتها إلى باطله . ويتدعى ذلك إلى أن يستخرج المبتطلون الحق من
أيدينا ، بإيداعهم إياه في كتبهم .

وأقل درجات العالم ، أن يتمير عن العامى العمر^(٢٥) ، فلا يعاف العسل
وإن وحده في محجمة الحدم ، ويتحقق أن محجمة لا تغير دات العسل ، فإن
هرة الطمع منه ، مية على جهل عامى ، مشؤه أن المحجمة إنما صغت للدم
المستقدر ، فيظن أن الدم مستقدر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه مستقدر
لصفة في ذاته ، فإذا عذمت هذه الصفة في العسل ، فكونه في طرده ، لا
يكسه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقدار .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فهمما نست الكلام ،
وأسدته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسدته
إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه ، وإن كان حقاً

فأبداً يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية

الصلال ١ ١

هذه آفة الرد

٢ آفة القبول - فإن من بطر في كتبهم : كإخوان الصفا ، وغيره ، رأى

ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما

(٢٥) رجل غمر : لم يجر الأبور

استحسبها ، وقبها ، وحس عتماده فيها ، فيسارع إلى قبول باطنهم المروج به ، لحسن ظن حصل فيها رآه ، واستحسسه .

وذلك نوع استدراج إلى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم ، لما فيها من العدر ، والخطر .

وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مراقب الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب .

وكما يجب صون الصبيان من مس الحيات ، يجب صون الأسماع عن محتلط تلك الكلمات .

وكما يجب على المعزّم ألا يمسه الحية بين يدي ولده الطفل ، إذا علم أنه سيفتدى به ، ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره ، بأن يحذر هو نفسه ، ولا يمسه بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله .

وكما أن المعزّم الحاذق إذا أخذ الحية ، وميز بين الترياق والسم ، فاستخرج منه الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشع بالترياق على المحتاج إليه ، وكذلك الصراف الناقد البصير ، إذا أدخل يده في كيس القلاب ، وأخرج منه الإبريز الخالص ، وأطرح الزيف والهرج ، فليس له أن يشع بالجيد الموصى على من يحتاج إليه : كذلك العالم .

وكما أن المحتاج إلى الترياق ، إذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه مستخرج من الحية التي هي مركز السم ، وجب تعريضه .

والفقير المصطر إلى المال ، إذا نهر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب ، وجب تبنيه على أن تُفترقه جهل محض ، هو سبب حرمانه من الفائدة

التي هي مطلبه ، وتحتم تعريفه أن قرب الحوار بين الزيف والجيد : لا يجعل
الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الحق باطلاً ، كما لا يجعل الباطل حقاً .
فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وعائلتها .

مذهب التعليم وعائلته :

ثم إلى ما فرغت من عم الفلسفة ، وتحصيله ، وتفهيمه ، وتزيف ما يزيف
منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً
بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات

وكانت قد نغمت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق ، تحديثهم بمعرفة معنى
الأمور ، من جهة الإمام المعصوم ، القائم بالحق ، عن لي : أن أبحث عن
مقالاتهم ؛ لأطلع على ما في كتبهم .

ثم اتفق أن ورد على أمر جازم من حصرة الخلافة ، بتصنيف كتاب ،
يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعى مدافعته ، وصار ذلك مستحسناً من
خارج ضميعة للبائع الأصل من الباطن .

فاندأت بطب كتبهم ، وجمع مقالاتهم وكان قد بلغني بعض كلماتهم
المستحلثة ، التي ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على انتهاج المجهود من سلفهم .
فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيباً محكماً ، مقارناً للتحقيق ، واستوفيت
الحواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغتي في تقرير حججهم ، وقال :
« هذا سعى لهم ، إنهم كانوا يحزرون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات ،
لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها » . وهذا الإنكار من وجهة : حق ، فلو

أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي^(٢٦) ، رحمها الله ، تصيفه في الرد
على المعتزلة ؛ فقال الحارث :
الرد على البدعة فرض .
فقال أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبههم أولاً ، ثم أحست عنها ، هم تأمن أن يطالع
الشبهة من يعلق ذلك بهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو يطر إلى الجواب
ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، فأما إذا انتشرت
فاجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية
نعم . . ينبغي ألا يتكلف لهم شبهة ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد
سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إليّ ، بعد أن كان قد التحق
بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يصحكون عن تصايف المصنفين ، في
الرد عليهم ، فإسهم لم يفهموا بعد حججهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها
عهم ، فلم أرص لنفسى أن يظن بي العقلة عن أصل حججهم ، فذلك أوردتها
ولا أن يظن بي أنى وإن سمعتها هم أفهمها ، فذلك قررتها

(٢٦) يقول عنه القشيري عديم النظر في زمانه علماً ، وورعاً ومعاملة وحالاً ، بصري الأصل
مات به بغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين قال أبو حيد الله بن عفيف اقتسوا بحسنة من شيوخنا
والفاقون سلمواهم حافهم الحارث بن أسد المحاسبي وأخيه بن محمد أبو محمد روم وأبو العباس بن عطاء
وعمر بن عثمان الكوفي . لأنهم جمعوا بين العلم والحفائق
وما يروى عنه بوله من صحيح باطنه بالمراقبة والإخلاص ، ربي الله ظاهره بالعبادة واتباع السنة
وقد ألف كتباً كثيرة ، يوجد بعضها مخطوطاً في دار الكتب المصرية وفي مكتبة الجامعة
وأما ما يعرف من كتبه كتاب الرعاية لحقوق الله وقد طبعته الآتية مرجع سميت وطبعها في
القاهرة طبعة منقحة . وقد طبع له كتاب التوهم بالقاهرة

والمقصود أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية
البرهان .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .
ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت الدعة مع ضعفها إلى
هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت الداعين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في
مقدمات كلامهم ، وإلى محادثتهم في كل ما نطقوا به فجاحدوهم في دعواهم
« الحاجة إلى التعليم ، والمعلم » ودعواهم أنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لابد
من معلم معصوم » . وظهرت حاجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ،
وضعف قول المتكررين في مقابلته ، فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة
مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ولم يفهموا أن ذلك يضعف ناصر الحق ،
وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لابد أن يكون
المعلم معصوماً ، ولكن معلماً المعصوم هو : محمد ﷺ .

فاذا قالوا : هو ميت .

فنقول : فعلمكم غائب

فاذا قالوا : معلماً علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وهو ينظر مراجعتهم إن
اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكل .

فنقول : ومعلماً قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وأكمل التعليم ، إذ
قال الله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ وبعد
كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر عينه

فبقى قولهم : كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ؟ أبالنص ؟ ولم تسمعوه ؟ أم

بالاجتهاد والرأى ، وهو مظنة الخلاف ؟

فنقول : نفعل ما فعله معاد ، إذ بعثه رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، إلى اليمن^(٢٧) . أى نحكم بالنص ، عند وجود النص ، وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعائهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص . فإن النصوص المتناهية لا تسترعب الوقائع غير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستغنى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .

فإن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد . إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، لعانت وقت الصلاة ، إذا جاز الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد ولمصيب أجران » فكذلك فى جميع المجهلات .

وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير . وربما يظنه فقيراً باجتهاده ، وهو غنى باطناً بإحسان ماله . ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه .

(٢٧) حينما أراد رسول الله ﷺ أن يبحث معاداً قاصداً باليمن قال له

م تفصى بامعاد ؟

فقال : ما فى كتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : ما فى سنة رسول الله

قال : فإن لم تجد ؟

قال : أجتهد رأى

فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يحب رسول الله

فإن قال : طى مخالفه كظنه .

فنقول : هو مأمور باتباع طن نفسه ، كالمجتهد في القبلة ، يتبع طن نفسه ، وإن خالفه غيره .

وإن قال : فالمقلد يتبع أنا حبيمة ، والشافعي - رحمها الله - أم غيرهما ؟ .

فأقول : فالمقلد في القبلة عند الاشتباه ، إذ اختلف عليه المجتهدون كيف

يصنع ؟

فسيقول : له مع نفسه اجتهاد في معرفة الأفضل الأعم بدلائل القبلة ، فيشيع ذلك الاجتهاد ، وكذلك في المداهب .

فرد الخلق إلى الاجتهاد ضرورة الأنبياء والأئمة مع العلم أنهم قد يخطئون بل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أنا أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » أي ، أنا أحكم بغائب لظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطئوا فيه ، ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدات فكيف نطمح في ذلك ؟

ولهم ها هنا سؤالان

أحدهما قولهم : هذا وإن صح في المجتهدات ، فلا يصح في قواعد العقائد ، إذ المخطئ غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه يُعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم وهي الموارد التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، وهي خمسة ، ذكرناها في كتاب « القسطاس المستقيم » .

فإن قال : نخصومك يخافون في ذلك الميزان .

فأقول لا يتصور أن يعهم ذلك الميراث ثم يخالف فيه أهل التعليم ، لأنى
استخرجته من القرآن ونعلمته منه .

ولا يخالف فيه أهل المطلق : لأنه موافق لما شرطوه فى المطلق ، غير مخالف
له

ولا يخالف فيه المنكح . لأنه موافق لما يذكره فى أدلة المظريات ، وه
يعرف الحق فى الكلاميات

فإن قال : فإن كان فى يدك مثل هذا الميراث فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟
فأقول : لو أصغوا إلى رفعت الخلاف بينهم

وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ، لتعلم
أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ، ولا يصحون بأجمعهم

بل قد أصغى إلى طائفة ، رفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع
الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فم م يرفع ، فى الآن ؟

ولم لم يرفع على رضى الله عنه ، وهو رأس الأئمة ؟ أو يدعى أنه يقدر على
حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟

ولأى يوم أجنه ؟ وهل حصل بين الخلق ، بسبب دعوته إلا زيادة خلاف
وريادة مخالف ؟ نعم ! كان يحشى من الخلاف نوع من الضرر ولا ينتهى إلى

سبك الدماء ، وتخريب لملاذ ، وإيتام الأولاد ، وقطع الطرق ، والإعارة على
الأموال . وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف ما لم يكن مثله
عهد .

فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير بين
المناهج المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، ولم يلزمه الإصغاء إليك دون

خصمت وأكثر الخصوم بحالفوك ، ولا فرق بينك وبينهم ؟
وهذا هو سؤالهم الثاني .

فأقول : هذا أولاً يقب عليك ، فإنك إذ دعوت هذا المتحير إلى نفسك
فيقول المتحير : بم صرت أولى من مخالفتك ، وأكثر أهل العلم يحالفونك فليت
شعري ! بعدا تحيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامي منصوص عليه ، من يصدقك
في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع
نضابق أهل العلم على احتراعك وتكديتك .

ثم هب أنه سمى بك النص ، فإن كان متحيراً في أصل السؤ ، فقال : هب
أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى فيقول : الدليل على صدقي ، أني أحیی أباك
فأحياءه . فناطقني بأنه محق ، فهاذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق
عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشككة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر
العقلي ، والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق
ما لم يعرف أن الله لا يضل عباده . وسؤال الإصلاال وعسر تحرير الجواب عنه
مشهور - فهاذا ندفع جميع ذلك ؟ ولم يكون إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ؟
فيرجع إلى الأدلة النظرية التي يكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الأدلة .
وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، ولو جتمع أولهم
وآخرهم على أن يجيبوا جواباً ، لم يقدرُوا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الصعفة ، باظروهم ، فلم يشتعروا بالقلب بل
بالجواب ، وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسق سريعا إلى الإيهام ، فلا
يصح للإيهام .

فإن قال قائل - فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟

فأقول : نعم ! جوابه أن المتحير لو قال أنا متحير ، ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول : أنا مريض ، ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، أو إسهال ، أو غيرهما ، فكذاك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه ، فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالورن بالموازين الخمسة التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميران الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به فيفهم اميزان ، ويفهم أيضاً صحة الورن ، كما يفهم متعلم الحساب ، نفس الحساب وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب ، وصادقاً فيه وقد وضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهرى » أولاً

وفي كتاب « حجة البيان » ثانياً ، وهو جواب كلام فهم عرض على ببغداد وفي كتاب « مفصل الخلاف » الذي هو اثنا عشر فصلاً ، ثالثاً وهو جواب كلام عرض على بهمدان .

وفي كتاب « الدرر » المرقوم « بالحداول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض على بطرس .

وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستعناء عن الإمام المعصوم ، من أحاط به .

بل المقصود : أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجى من طمات

الآراء بل هم من عجزهم عن إقامة البرهان على تعين الإمام ، طائفاً جريتناهم
فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه لدى عيونه ، ثم
سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم . وعرضنا عليهم إشكالات فلم
يفهموها فضلاً عن القيام محلها ! فلما عجزوا أحالوا عن الإمام العائب ،
وقالوا : إنه لا بد من السفر إليه .

والعجب أنهم صيعو عمرهم في طلب العلم ، وفي التبجح بلطفه به ولم
يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالتصحيح بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى إذا
وجده لم يستعمه ، ووجد متصمخاً بالخبثاث .

ومهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركب
فلسفة فيثاغورس ، وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرك مذهب
الفلاسفة ، وقد رد عليه أرسطاطاليس ، بل استرك كلامه ، واسترذله وهو
المحكى في كتاب «خوان الصفاء» وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب حول العمر ، في طلب العلم ، ثم يقتنع بمثل ذلك العلم
الركيك المستغث ، ويظهر بأنه طهر بأقصى مقاصد العوم !

فهؤلاء أيضاً جريتناهم ، وسيرنا ظاهرهم ، وباطنهم ، فرجع خاصتهم إلى
استدراج العوام ، وضعفاء العقول ، ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومخادتهم في
إنكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوي ، مضخم ، حتى إذا ساعدتهم على
الحاجة إلى المعلم مساعد وقال : هات علمه ، وأعدنا من تعليمه ، وقف وقال :
الآن إذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فإنا عرضي هذا القدر فقط إذ عيم أنه لو راد
على ذلك لا تصح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ،
فضلاً عن جوابه .

هذه حقيقة عالمهم ، فأخبرهم تقلهم^(٢٨) فلما حبرناهم نقصنا ليد عنهم .

* * *

طرق الصوفية :

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت سنى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما قتم بعلم وعمل .
وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتتره عن أخلاقها المدمومة ، وصفاتها الخبيثة . حتى يتوصل بها إلى تحلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فالتذات بتحصيل علمهم ، من مطالعته كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لأبى طابب المكى رحمه الله ، وكتب الخارث المحاسنى والمنفرقات الماثورة عن الحنيد^(٢٩) .

(٢٨) تبصهم .

(٢٩) سيد هذه الطائفة وإمامهم أصله من يهود ، وبشتره ومولده بالعراق وأبوه كان بيع الرجوح فلذلك يعدل له العواريرى وكان نصيباً على مذهب ابى تور وكان يعنى فى حلقته بخصرته وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧

قال ابوودبارى سمعت الحنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال الجيد إن هذا قول قوم تكللوا بأسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة والذى يسرق ويورى أحسن حالاً من الذى يقول هذا قول العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ، ولو بقى ألف عام لم أنقص من أعمال الله ذرة إلا أن محال فى

٣٥٥

وقال الحنيد انطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اتقى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام وقال من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقدس بالكتاب والسنة .

والشبل^(٣٠) ، وأبي يزيد البسطامي^(٣١) ، قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعم والسماح ، فظهر لي أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالتوق ، والحال وتبدل الصفات وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشعاعاً ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه من شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

وقال مذهب هذا مذهب بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة القشيرية)

(٣٠) بغدادى المولد والنشأ وأصله من أسر وشه صاحب الحيد ومن في عصره . وكان شيخ وقته حالاً وطرباً وعلماً ، مالكي المذهب عاش سبعمائة ومائتين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ومائة و (يعدد)

وكان الشبل إذا دخل مصانجد فوق جد من عصره ويقول هذا شهر عظمه ربي فأن أول من بعظمه

(٣١) كان من كبار الزهاد العابدين ، قيل إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين

ودهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد بها حرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمي ببصافه تجاه القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسم عليه وقال هذا غير مأثور على أدب من أدب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأثوراً على ما يدعيه ؟

ومن كلامه لو نظرت إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تعترو به حق تنظروا كيف يجدونه عند الأمر والسهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة (نظر الرسالة القشيرية)

والطبيب في حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها وهو
فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن
يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلت يقيناً : أنهم أرباب الأحوال ، لأصحاب الأقوال . وأن ما يمكن
تحصيله بطريق العلم ، فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسمع
والعلم ، بل بالسوق والسلوك .

وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها في
التفتيش عن صنى العلوم الشرعية ، والعقلية - إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة ،
وباليوم الآخر !

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان ، كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل
معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها
وكان قد ظهر عدى أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف
النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب عن الدنيا ،
بالتجافي عن دار الغرور ، والإقامة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله
تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الحياه ، والمال ، والهرب من الشواغل
والعلائق .

ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أخلقت لي من
الجوانب .

ولاحظت أعمالي وأحسبها التدريس والتعليم . فإذا أنا فيها مقل على علوم
غير مهمة ، ولانافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا

هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها وحركها طلب الجاه ، وانتشار
الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وآني أشهيت على النار ، إن لم
أشتغل بتلاي الأحوال .

فلم أرل أهلك فيه مدة . وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على
الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل الحرم يوماً . وأقدم فيه
رحلاً وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل
عليها جند الشهوة حملة ، فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني
سلامتها إلى المقام ، ومنادي الإيمان يبادي - الرحيل الرحيل ، فلم يبق من
العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم
والعمل ، رياء وتخييل فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع
الآن هذه العلاقات متى تقطع ؟ فعد ذلك تنعث الداعية ، وينحرم العزم على
الحرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فبها
سريعة الروال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم
الحالي عن التكدير والتغيب ، والأمن المسلم الصافي من منازعة الخصوم ، ربما
التمنت إليه نفسك ولا ينسر لك المعادة .

فلم أزل أتردد بين تحاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة
أشهر أولها : رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة^(٣٢) وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد
الاختيار إلى الاضطراب : إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ،
مكنك أجاهد بمسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً للقلوب المختلعة إلى ، فكان

(٣٢) في نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة

لا يعلق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها التمة ، حتى أورثت هذه العقبة فى
انسان ، حرباً فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراعاة الطعام والشراب ،
فكان لا يساع لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى
قطع الأطباء طبعهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر مرل بالقلب ، ومنه سرى إلى المخرج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن
يتروح السر عن أهم الملم !

ثم لما أحسست معجى ، وسقط بالكلية اختيارى التحات إلى الله تعالى ،
التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له فأجانبى الذى يجيب المضطر إذا دعاء وسهل
على قلبى الإعراض عن الحياه ، واماى والأولاد والأصحاب .

وأصهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سهر الشام ، حذراً أن
يطلع الحليفة ، وحملة الأصحاب ، على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت
سوائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعاودها أدياً ، واستهدفت
للأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت
فيه سبياً ديباً ، إذ طوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين . وكان ذلك
مبلغهم من العلم .

ثم ارتبث الناس فى لاستشاطات ، ومن من بعد عن العراق ، أن ذلك
كان لاسشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد
إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، وإعراضى عنهم . وعن الالتفات إلى
قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى . وليس له سبب ، إلا عيب أصابت أهل
الإسلام ، وزمرة العلم

فصارقت بغداد ، وهرقت ما كان معى من المال ، ولم أدر إلا قدر الكفاف

وفوت الأطفاد ، ترحصاً بأن مال العراق مرصد للعصاح ، لكونه وفقاً على المسلمين ، فلم أر في العالم مالا يأخذ به العالم لعياله ، أصح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقيمت به قريباً من ستين ، لاشغل لي لا العزلة ، والخلوة والرياسة ، والمحاهدة : اشتعالاً بتركية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب بذكر الله تعالى ، كما كنت حصته من علم الصوفية فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخلت كل يوم الصحرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاسماد من بركات مكة ، والمدينة ورياسة رسول الله ﷺ ، بعد الفراغ من ريادة الخليل ، صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز .

ثم جدتني الهمم ، ودعوات الأطفاد إلى الوطن ، فعادته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه .

فأثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر . وكانت حوادث الزمان ، ومهات العيال وضرورات المعاش ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصمو لي الخال إلا في أوقات متفرقة ، لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدعى عنها العوائق ، وأعود إليها . ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

واكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ولقد قدر الذي أذكره يستمع به . أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون
فضية التصوف المتقدم من الضلال

لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن لسير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأحلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليعبروا شيئاً من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم ومسكاتهم ، في ظاهريهم وباطنيهم ، مفتسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

والجملة . فمادام يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها الحارثي منها محرم التحريم من الصلاة . استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

وآخرها الفناء بالكلية في الله .

وهذا آخرها ، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب : من أوائلها ، وهي ، على التحقيق أول الطريقة ، ومقابل ذلك . كالدلهيز للسائل إليه .

ومن أول الطريقة تتدنى المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد

ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والأمثال ، إلى درحات يضيق عنها نطاق اسطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لمظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة : ينتهي الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول ،

وطائفة الاتحاد .

وطائفة الوصول

وكل ذلك خطأ .

وقد سنا وجه الخطأ فيه في كتاب : « المقصد الأسى » بل الذى لاسته
الحالة لا يشئى أن يزيد : على أن يقول .

وكان ماكان مما لسب ذكره فطن حيراً ولا تسأل عن الخبر
وبالجملة ، فس لم يرزق منه شيء بالدوق ، فليس يدرك من حقيقة النوة
إلا الاسم ، وكرامات الأولياء - على التحقق - هى بدايات الأنبياء . وكان
ذلك أحوال رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حيث تبثل ، حين أقبل إلى
جبل « حراء » حيث كان يتخلو فيه بربه ، ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن
محمدًا عشق ربه .

وهذه حالة نتحققها من سلك سبلها . .

فس لم يرزق الدوق فيثيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصعبة حتى
يعلم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً ، ومن جالسهم استمد منهم هذا الإيمان ،
فهم القوم لا يشئى جليسهم .

ومن لم يرزق صحتهم ، فلعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على
ما ذكرناه في « كتاب » عجائب لقلب » من كتب إحياء علوم الدين .
والتحقيق بالبرهان علم ، وملاسة عين تلك الحالة دوق .

والقبول من التسامع ، والتجربة ، بحس الظن ، إيمان . وهذه ثلاث
درجات !

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

ووراء هؤلاء قوم جهال هم المسكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام يستمعون ، ويسحرون ، ويقولون العجب بهم كيف يهدون ! وفيهم قال الله تعالى .

﴿ ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للدين أوتوا العلم . ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم ﴾^(٣٣) . فأنصهم . وأعمى أنصارهم ﴾^(٣٤) .

ومما يان لي ، دالضرورة من ممارسة طريقتهم : حقيقة النوة ، وخاصيتها ولا بد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسبب الحاجة إليها

(٣٣) محمد آية ١٦

(٣٤) محمد آية : ٢٣

حقيقة النبوة

واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة . خلق خالياً ، ساذجاً ، لا خير معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة ، لا يحصيها إلا الله تعالى ، كما قال . ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾

وإنما خبره في العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات . خلق ليصطلح الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ، أحاس الموجودات . فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أحساساً من الموجودات كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة وغيرها . واللمس قاصر على الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال ، وهو أوسع عوالم الحسّات .

ثم يفتح فيه السمع ، فيسمع الأصوات والنفحات .

ثم يخلق له الذوق .

وكذلك ، إلى أن يجاور عام الحسّات ، فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سمع سين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على الحسّات لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل فيدرك الواجبات ، والمحاذرات ،

والمستحيلات ، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قلها
 ووراء العقل طور آخر تفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون
 في المستقبل ، وأموراً أخرى ، العقل معزول عنها ، كعمل قوة التمييز عن إدراك
 المعقولات ، وكعمل قوة الحس عن مدركات التمييز .
 وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباه ، واستبعدوها ،
 فكذلك بعض العقلاء . أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها ، وذلك عين
 الجهل : إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد في حقه فيظن أنه غير
 موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال ،
 وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقر بها .
 وقد قرب الله تعالى ، ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية
 النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، بما صريحاً ، وإما
 في كسوة مثال يكشف عنه التعبير وهذا لو لم يحرمه الإنسان من نفسه . وقيل
 له : من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويرون عنه إحساسه ، وسمعه ،
 وبصره ، يدرك الغيب . لأنكره ، وأقام البرهان على استحالة ، وقال
 القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ،
 فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق ،
 وهذا برع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة ، فكأن العقل طور من أطوار
 الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معرولة عنها ،
 فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر في نورها الغيب ،
 وأمور لا يدركها العقل .
 والشك في النبوة إما أن يقع :

في إمكانها ، أوفى وجودها ووقوها

أوفى حصولها لشخص معين . ودليل إمكانها وجودها .

ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل : كعلم الطب ، والنجوم^(٣٥) فإن من بحث عنها ، علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي . وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليه بالتجربة ، فمن الأحكام السجومية ، مالا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف يبال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان . أن في الإمكان : وجود طريق لإدراك هذه الأمور ، التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالسورة ، لا أن السورة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرنا مضطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها : وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب ، والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقلاء ببصاعة العقل أصلا .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة . إنما يدرك بالدوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا مهمته بأنموذج رزقته وهو انبساط ولولاه لما صدمت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولاتفهمها أصلا ، فكيف تصديقها ؟ وإعنا التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف . فيحصل به نوع من الدوق بالتقدير الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه

(٣٥) لعل الإمام رحمه الله يريد أن يقول : الإنسان في ابتداء وجوده وخلقته أممه الله الأسس التي

يبنى عليها مجاريه في عالم الطب وملاحظته في علم الفلك

فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل السورة
فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا
بمعرفة أحواله . إما بالمشاهدة ، أو التواتر والتسامع . فإنك إذا عرفت الطب ،
والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع
أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم .

ولأنهم أيضاً عن معرفة كون الشاعري رحمه الله فقيهاً ، وكون
جائوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من
الفقه والطب وتطالع كتبها ، وتصانيفها : فيحصل لك علم ضروري بحالها
فكذلك إذا فهمت معنى السورة ، فأكثرت النظر في القرآن ، والأخبار
يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه وسلم ، على أعلى درجات النبوة . وأعضد
ذلك بتجربة ماغاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في
قوله : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق في قوله « من أعان ظالماً ، سلطه الله عليه »
وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهووم هم واحد (هو التقوى)^(٣٦) »
كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة^(٣٧) .

فإذا جرت ذلك في ألف ، وألف ، حصل لك علم ضروري
لا تتأري فيه .

فمن هذا الطريق ، اطلب اليقين بالسورة لأمس قلب العصا ثعباناً ، وشق

(٣٦) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وصنعناها لبيان المعنى .

(٣٧) وفي سنن أبي ماجه عن رسول الله ﷺ « ومن جعل الهموم همّاً واحداً ، هم المهاد ، كفاه

الله هم دنياه . ومن تشعب به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي نوديته هلك »

القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده لم تنصم إليه القرائن الكثيرة المخارحة عن
الحصر ، ربما ظلت أنه سحر ، وتخيل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه ﴿ يصل
من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .

وترد عليك أمثلة المعجزات : فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم في
وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرنب في وجه الإشكال والشبهة
عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في مجلة نظرك ، حتى
يحصل لك علم ضروري ، لا يمكنك ذكر مستنده على التعمين ، كالذي تجربه
جماعة بغير متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ،
بل من حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا تعين الآحاد ، فهذا
هو الإيمان القوى العلمي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية
فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في العرض الذي أقصده الآر ، وسأذكر وجه
الحاجة إليه .

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إنى واظبت على العزلة والخلو ، قريباً من عشرين سنين ، وبأن لى فى أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لأحصيلها ، مرة بالدوق ، ومرة بالعلم البرهانى ، ومرة بالقبول الإيماني أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعنى بالقلب حقيقة روحه ، التى هى محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والهيمة ، وأن البدن به صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ، ولا يسجد إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿ وله مرض فيه هلاكه الأبدى الأخرى ، كما قال تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ وأن الجاهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى دأؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى تزيافه الهوى ، وطاعته بمخالفة الهوى دأؤه الشافى ، وأنه لاسبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية كما لاسبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة ، وخاصة فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بأن لى - على الضرورة - أن أدوية العبادات - بمحدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقطرة من جهة الأنبياء - لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر ، هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب : مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، ولا ينجو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بور النبوة .

ولقد نحاق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط - بطريق العقل - لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت عن الاتفاق ، لاعت سر إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصة . وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها ، وزوائد هي متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن : متممات لتكامل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : الأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى هنا هنا محرى العقس ومخطاه ، وهو معرول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطيب إليه

فهذه أمور عرفها بالضرورة الجارية بحرى المشاهدة ، في مدة الخلوة والغزلة ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة .

ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة . وتحققنا شيوع ذلك بين الحق ، فنبطرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

١ - سبب من الخائفين في علم الفلسفة .

٢ - وسبب من الخائفين في طريق التصوف .

٣ - وسبب من المتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ - وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإنني تتبعته ، مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر مهمهم في متابعة الشرع ، وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له ، مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، وست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حقاقة ! فإنك لا تتبع الاثنين بواحد ، فكيف تتبع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كاهن . فدير نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كهرك الخبيث ، الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب حرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تحملها بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع !

فقايل يقول : هذا أمر لو وحشت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين المصلاء ، لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهلم جرا ، إلى أمثاله . . .

وقايل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة ،

وقال ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقايل رابع نقى أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه منحصر ،

والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأنا حاصها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها : صبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل ، ولتنازع ، والاسترسال ، في الشهوات ، لما أما من العوام الجهال ، حتى أدخل في حجر التكليف ، وإتباعها من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد .

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابى وهؤلاء المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ نقرآن ويحضر الجاعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه ، مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من المسق والفحور !

وإذا قيل له :

إن كانت النبوة عبر صحيحة فلم تصلى ؟ وربما يقول لرياضة الجسد ، وبعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! وربما قال . الشريعة صحيحة والنبوة حق . فإذا قيل له :

فلم تشرب الخمر ؟ فيقول :

إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة وابعضاء ، وأنا بحكمى محترز عن

ذلك ، وإنى أقصد به تشديد خاطرى .

حتى إن ابن سينا فى وصية له كتب فيها أنه عاهد الله ، تعالى ، على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوصاع الشرعية ولا يقصر فى العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تداوياً ونشافياً ، فكان منتهى حاله فى صفاء الإيمان ، والتزام العبادات : أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافى

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم ضعف اعتراض المعارضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضرورى هم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد ، بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى ملية^(٣٨) بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فضح هؤلاء : أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي لعمومهم ، وطرفهم ، أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية وللتوسمين من العلماء ، انقدح فى نفسى أن ذلك متعين ، فى هذا الوقت ، محتم .

لما تعميك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على اهلاك ؟

ثم قلت فى نفسى : متى تشتعل أنت بكشف هذه الغمة . ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والصور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وإنى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟

فترخصت ، بينى وبين الله ، تعالى ، بالاستمرار على العزلة ، تعللاً بالعجز

(٣٨) ألب بالمكان . أقام به وزمه .

عن إظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى : أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا تحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كاد ينتهي . لو أصررت على الخلاف - إلى حد الوحشة .

فحظرت أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة . وعلت عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم تُرخص نفسك بعسر معاناة الخلق ؟ والله تعالى يقول : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : لَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٩) .

ويقول عز وجل ، لرسوله وهو أعز خلقه : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرْ ، عَلَى مَا كَذَّبُوا ، وَأَوْدُوا ، حَقٌّ أَنَاهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَدَدَ لَكُمَا اللَّهُ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ تَأْمُرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٤١) . ويقول ، عز وجل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : يَس . وَالْقُرْآنُ الْحَكِيم . إِلَيْكَ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم .

تتريل العزيز الرحيم .
لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون .
لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون .

(٣٩) سورة التكوير آيات ١ - ٣

(٤١) سورة الأنعام آية : ٣٤

إنا جعلنا في أعناقهم أعلا لا همى إلى الأذقان فهم مممحون .
 وحملنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون .
 وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
 إنما تنذر من اتبع الذكر ﴿٤١﴾ .
 فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهدات فاتفقوا على
 الإشارة بترك العزلة والخروج من البراية .
 وابتدأوا إلى ذلك مناعت من الصالحين كثيرة ، متواترة تشهد بأن هذه
 الحركة مبدأ خير ، ورشد ، قدرها الله ، سبحانه ، على رأس هذه
 المائة (١٢)

وقد وعد الله ، سبحانه ، بإحياء دينه ، على رأس كل مائة
 فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، وبسر الله
 تعالى ، الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذى القعدة ، سنة تسع وتسعين
 وأربعمائة ، وكان الخروج من بغداد في ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة
 وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة .
 وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها
 اقتداح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والتزوع عن
 تلك الأحوال ، مما خطر إمكانه أصلا بأببال ، والله تعالى ، مقلب القلوب
 والأحوال وه قلب المؤمنين بين إصبعين من أصابع الرحمن :

(٤١) سورة يس : آيات ١ - ١١

(٤٢) روى أبو دورد ، والحاكم ، والبيهقي : إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة
 من يجدد لها دينها

وأنا أعلم : أتى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في لزمان أشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ، وبقى . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به ينزك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن بيتي وقصدي . وأميني . يعلم الله ذلك مني وأنا أبعي أن أصلح نفسي ، وعيى ، ولست أدري الأصل إلى مرادى ، أم أحترم دون غرضي ؟ ولكن أؤم إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأنى لم أنحرك لكنه حركى . وأنى لم أعمل ، لكنه استعملنى فأساله : أن يصلحنى أولاً . ثم يصلح لى ، ويهديى . ثم يهدي لى ، وأن يرينى الحق حقاً ، ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلاً ، ويردقنى احتنابه .

* * *

ونعود الآن إلى ما ذكرناه . من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر طريق إرشادهم ، وإيقادهم من مهالكهم أما الذين ادعوا الخبرة بما سمعوه من أهل التعليم ، فعلاجه ما ذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره في هذه الرسالة . وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع ، وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النوبة : فقد ذكرنا حقيقة أسوأ ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم حواس الأدوية والسجوم وغيرهما . وإنما قلنا هذه المقدمة لأجل ذلك

وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم ،
ونحن نبين لكل عالم بفتح من العلوم كالنجوم ، والطب ، والطبيعة ،
والسحر ، ولطلسات ، مثلاً من نفس علمه برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، سوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على
التحقيق : كاهن بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص يقتضى طالع
أن يكون متبوعاً .

وليس هذا من النبوة في شيء

بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تمنح فيه عين يدركها
مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان .
والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات
فإن لم يجوز هذا ، فقد أقفنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده .
وإن حوز هذا فقد أثبت أن ما هنا أموراً تسمى خواص لا يدور تصرف
العقل حوالها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها . ويقصى باستحالتها فإن ورن
دائق^(٤٣) من الأفيون سم قاتل ، لأنه يجمد الدم في العروق ، لفرط برودته
والذى يدعى علم الطبيعة ، يزعم أن ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بمصرى
الماء والتراب ، هما العصران الباردان ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب لا يبلع
تبريدهم في الباطن إلى هذا الحد : فلو أخبر طبعي بهذا ، ولم يجربه ، لقال :
هذا محال ، والدليل على استحالة أن فيه نارية ، وهوائية ، والهوائية والنارية
لا تزيد بها برودة ، فتقدر الكل ماء وترباً ، فلا يوجد هذا الإمراط بالتبريد ،
من انصم إليه حاران هالاً يوجب أولى . ويقدر هذا برهاناً !

(٤٣) الدائق يفتح اللوا وكسرها سندس المرحم ،

وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإهيات . متى على هذا الجس .
فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقوه ، وما لم يألفوه قدروا
استحالته

ولو لم يكن لرؤيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع ، أنه عند ركود
الخواص ، يعلم العيب لأنكره المنصون بمثل هذه العقول
ولو قبل الواحد ، هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حية ، يوضع
في بلدة ، ليأكل تلك البلدة محملتها ، ثم يأكل نفسه ، فلا يبقى شيئاً من البلدة
وما فيها ، ولا يبقى هو في نفسه ؟ لقار : هذا محال ، وهو من حملة الحرافات ،
وهذه حالة النار : يكرها من لم ير النار . إذا سمعها .
وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل

فنقول للطبيعي : قد اضطرت إلى أن تقول : في الأفيون حاصية في
التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون في لأوصاع
الشرعية من الخواص ، في مداراة القلوب ، وتصفيتها ما لا يدرك بالحكمة
العقلية ، بل لا يصير ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب
من هذا ، مما أوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة ، المحرقة في معالجة
الحامل ، التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

د	ط	ب
ح	هـ	ر
ح	١	و

يكتب على حرفتين ، ه يصحبها ماء ، ويطر إليها الخامل عيها ، ويصحبها
تحت قدميها ، فيسرع الولد في الخاب إلى الخروج ، وقد أقروا بإمكان ذلك
وأوردوه في كتاب « عذائب الخوص » وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرفه
فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في حدود واحد خمسة عشر ، قرأته في
طول الشكل ، أو في عرصه أو على التأريث .

فبت شعري ١ من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير
صلاة لصبح بركعتين ، والظهر بأربع والعرب بثلاث هي الخواص غير
معلومه بغير الحكمة ، وسبها اختلاف هذه الأوقات ، وإنما يدرك هذه
الخواص نور النبوة .

والعجب أن لو غير العادة إلى عادة المحمدين ، يعقوب اختلاف هذه
الأوقات فنقول : أليس يختلف الحكم في لطلوع بأن تكون الشمس في وسط
السماء ، أو في الطالع ، أو في الغرب ، حتى يسوا على هذا في تسيراتهم
اختلاف العلاج ، ونبوت الأعمار والأحار ، ولا فرق بين الزوال وبين كون
الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغرب ،
فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعادة محم ، حرب كدبه مائة
مرة ، ولا يزال يعاود بصديقه ، حتى يوقال المحم له إذا كانت الشمس في
وسط السماء ، ويطر إليها نكوكب الفلاني . ويطالع هو المرح الفلاني ،
فست ثأراً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ٢ فإنه لا يفسى الثوب
في ذلك الوقت ، وربما يفسى فيه الرد الشديد ، وربما سمعه من محم ، وقد
عرف كدبه مرار .

فبت شعري ١ من يتسع عقله عن هذه البدائع ويصطر إلى الاعتراف

نأما خواص معرفتها معجزة لبعض الأنبياء كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجرات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ، ورمى الحمار وعدد أركان الحج ، وسائر تصدات الشريعة ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً فإن قال : قد جرت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فأنقذح لي نفسي تصديقه ، وسقط من قلبي استبعاده ، ونهرته ، وهذا لم أحربه قيم أعلم وجوده وتحقيقه ؟ وإن أقبرت بإمكانه فأقول :

إني لا تقتصر على تصديق ما جرت به ، بل سمعت أخبار المحررين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء ، فقد حاربوا ، وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع واسلك سبيلهم ، تدرك بأشاهد بعض ذلك

على أني أقول : وإن لم تجرب به فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً فإننا لو فرضنا رجلاً بلغ ، وعقل ، ولم يجرب المرض ، لمصر ، وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء ، فقال : هذا يصح لمرضك ويشفيك من سقمك . فإذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مرّاً كرهه المذاق ؟ أينأوله ؟ أويكذب ويقول أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء ، لتحصيل الشفاء ولم أجربه ؟ فلا شك أنك : تستحقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحقك أهل البصائر في توقفك !

إن قلت : هم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعرفته بهذا الطب ؟ فأقول :

وهم عرفت شفقة أبيك ، وليس ذلك أمراً محسناً ؟ بل عرفتها بقرائن

أجواله ، وشواهد أعماله في مصادره ، وموارده علماً ضروريا لا تتأري فيه .
ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام . وما ورد من الأخبار في
اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق ، واللطف إلى تحسين
الأخلاق وإصلاح ذات الدين ، وبالجملة إلى ما يصلح إلا به دينهم ، وديارهم
حصل له على علم ضروري ، بأن شقيقته على أمته أعظم من شقيقة الوالد على
ولده .

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب الذي
أشهر عنه في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان ،
فظهر ذلك كما ذكره علم - علماً ضرورياً - أنه بلغ الطور الذي وراء العمل
وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا لخواص ،
والأمور التي لا يدركها العقل .

هذا هو منها تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي عليه الصلاة والسلام ،
عجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان .
وهذا القدر : يكفي في تنبيه المتفلسفة . ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا
الزمان .

وأما السبب الرابع وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء
فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدها : أن نقول : إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام بمعرفته بتحريم
ذلك الحرام ، كمعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير ، والزنا ، بل بتحريم العيبة
والكذب والنجاسة ، وأنت تعرف ذلك وتضعه لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل
لشهوتك العالية عيبك ، شهوته كشهوتك ، وقد علبته كما علبتكم فعله بمسائل

وراء هذا يتميز به عنك ، لا يتناسب زيادة زجر عن هذا المحذور المعين ، وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن العاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح فهذا يحمل هفوات العلماء .

الثاني أن يقال للعامي : ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينحبه ، ويكون له شافعاً ، حتى يتساهل معه في أعماله لمصلحة علمه وإن جاز أن يكون ريبه حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له وهو ممكن ، فهد وإن ترك العمل يدلي بالعلم أما أنت أيها العامي ، إذا نظرت إليه ، وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بسوء عملك ، ولا شافع لك .

الثالث ، وهو الحقيقة أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل الخفوة . ولا يكون مصرّاً على المعاصي أصلاً إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية : سم مهلك وأن الآخرة خير من الدنيا ومن عرف ذلك لا يبيع الخبر بما هو أدنى .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى .
وأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية ، وخوفاً ، ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الخفوات التي لا ينفك عنها الشرفى العثرات ، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالمؤمن معتن تواب . وهو بعيد عن الإصرار ، والإكباب .

• • •

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر
عليهما ، لا بطريقة .

وسأنا الله العظيم أن يجعلنا ممن أثره واجتبه ، وأرشدنا إلى الحق وهداه ،
وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ،
واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

خاطرة (٤٤) حول (المنقذ من الصلال)

أحى الدكتور عبد الحلیم محمود ، يعرف فيما بین إخوة العشيرة بکیة أبو العارفين وهی تعبر عن لصورة التي يعرفه علیها هذا المحيط الروحي ، فی محال المقلین علی الله ، من طلاب الحقائق ، والباحثین عن مشارق الأنوار ، وأسرار الغیوب .

والدكتور عبد الحلیم يُعرف أيضاً فیما بیننا - نحن المحمدیین - بأنه « عزالی مصر » فی هذا العصر . . .

والواقع ، أن الدكتور عبد الحلیم فی ذاته ، ظاهرة صوفیة ، غیر مكررة ، بما یفیض به من القيم ، وما یفاض علیه من انوارها ، وما یسمح له الله تعالى من الوقت ، والمدد ، فیتفرق نتاجه سلسلاً عذناً ، مدمعاً فی رقة ، رابياً متلاحقاً فی قوة ، بین منطوق ، ومکتوب ، یتلاحق فیدکرنا بأعلام السلف الصالح ، ویطمشنا علی مستقبل الربانیة المقدسة ، ویعطى الناس مثلاً حياً فی کرامات الأولیاء !

قارئ الدكتور عبد الحلیم أو سامعه ، لا یحس الصنعة بما یقرأ له ، أو یسمع منه ، ولكنه یحس القلب والعاطفة ، والعقل والإیمان ، ویبصر الأدب والفصل ، والتواضع والثقة بلا حدود ، کل ذلك ینقدح فی ومصات ،

(٤٤) حیثاً صدرت الطبعة الخامسة من هذا الکتاب ، تعمل بکتابه هذه الخاطرة الکاتب الکبیر صاحب السلوک الصوفی المستر ، وصاحب القلم الصوفی الملهم ، فضيلة الشیخ محمد رکی إبراهیم الراءد الموفق للعشيرة المحمدیة جراه الله خیر الجزاء ، وشکر الله له جمیل صیبه

ولحات ، ولفئات ، وملاحظ وقواعد ، وأصول تهتر بالحياة ، وتنفل بالعلم ،
والأصالة والمعرفة ، وانصلة بالله ، والغيرة على محارمه ، ويحس المرء منها ابتغاء
رضوان الله .

‘ما أنا قارئ له وأسمعه كأما أقرأ ما كتبه ، أو أسمع ما أحدث به .

إن إحالي بالدكتور عبد الحليم من نوع هريد ، فقد نلتقي بعد عياب حسدى
طويل ، فلا يحدث أحدا الآخر ، بأكثر مما يحدث به زميله الذى لا يفارق ظله
ظله ، وفي إيجاز قد يصل إلى الاقتضاب ، ثم يقنعنا هذا ، ويكفينا ، ويحصل
منه على معان شتى ، وأغراض أكثر ، يضيق عنها النطق ، وتعبا به العبارة ،
وتفطل قلوبنا تتناجى فى حرية ، وتتواصى فى لهفة ، كما كانت قل هذا اللقاء
الجسافى ، ثم بما نحصله هذه القلوب نكتفى ونشتفى ، إلى أن نجتمعنا الصديقة ،
أو القصد مرة أخرى ، وعندها أعود فأحس كأننا لم نفرق ! !

أقول ذلك بمناسبة صدور الطبعة « الخامسة » الجديدة من كتاب « المنقذ
من الضلال » للغزالي بتقديم وتعليق وتحليل ، ودراسة الأخ الدكتور عبد الحليم
حمود فقد صدرت هذه الطبعة فى رجب هذا العام ، واستغرقت ٣٥٠ صحيفة
من القطع الكبير ، وأصاف إليها الأستاذ كعادته فى كل طبعة سابقة لهذا الكتاب
أبواباً جديدة ، ولواناً مستحدثة دقيقة ، بعيدة العمق عريضة الهدف فى أهم
وأخطر المباحث الموصولة بالتصوف الإسلامى ، على المستوى الفكرى الشرقى
والغربى معاً ، حتى أصبح هذا الكتاب الذى كان يباع فى طبعته الأولى بخمسة
قروش ، يباع فى هذه الطبعة الأخيرة بخمسين قرشاً تمنحك زبداً نقياً ودسماً من
العلم ، والمعرفة ، والتاريخ ، والتحقيق ، والاستدلال ، والإيمان ،

والإشراق ، وتعطيك التصوف الإسلامى فى مثل ضوء الشمس بهاء ونقاء ،
وسموا وخلوداً .

رضى الله عن الأخ الدكتور عبد الحليم محمود ، وزاده ثما يحب ويرضى
ويعنى بحبه وإخائه فيه تعالى .

فهرس

الصفحة

مقدمة : التصوف والحياة ٧ - ٢٦

الفصل الأول : التصوف

(لفظاً ، وتعريفاً ، وطريقاً ، ومصادر ، ونشأة ، ولغة

عامة) ٢٧ - ١٢٠

الفصل الثاني : التصوف والشريعة

(التصوف والدين ، التصوف والتحليل من الشريعة ، وحدة

الوجود ، السجود للأوامر الإلهية كمظهر للتدين السليم

والتصوف الصحيح) ١٢١ - ١٧٤

الفصل الثالث : التصوف والمعرفة

(البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث ، في وسيلة المعرفة ،

التصوف والشك ، اشك ومدارج السالكين ، الإمام الغزالي

يرسم طريق المعرفة ، مشكلة المعرفة الصوفية) ... ١٧٥ - ٢٣٤

الفصل الرابع : قضية التصوف

(إنكار التصوف، تحديد موطن النزاع، المشاكل التي يراود حلها، الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة، العنل ومشاكل ما وراء الطبيعة، البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة، الطريق إلى المعرفة، طريق البصيرة طريق الصواب، التصوف أريستوقراطية، تفاوت الناس في فهم الدين، التصوف قوة، التصوف ليس دخيلاً على الإسلام، التصوف في

العصر الحديث) ٢٣٥ - ٢٦٦

الفصل الخامس : الإمام الغزالي

(حياته، نبذة عنه بقلم أحد معاصريه، كتبه، تحليل

كتاب «الإحياء»، نصوص تبين منهجه) ٢٦٧ - ٣٢٤

الفصل السادس : المنقذ من الضلال

(توطئة، مدخل السفسطة، أصناف الطالبين، حقيقة

النبوة، سبب نشر العلم) ٣٢٥ - ٤٠٠

خاطرة ٤٠١ - ٤٠٣

٢٠٠٣/١٦٣٠٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-6509-8	الترقيم الدولي

١/٢٠٠٣/٤٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعَدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث ، ولقب بأبي التصوف في العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأهميات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالي وكتابه : المنقذ من الضلال ، ، و : دلائل النبوة ، ، و : القرآن في شهر القرآن ، إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة في عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمر الدين ، وأيضاً يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع العالم ، وسيقى هذا العالم وتراثه في قلوبنا على مر العصور .

إمامنا العلامة

